

سلسلة الرسائل المكية (١١)

وَيْضٌ مِنَ الْحَرَمِ

خُطْبٌ وَمَوَاعِظٌ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ

المجموعة الخامسة

بقلم

د. سَعِيدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الشَّيْخِ
إِمَامٍ وَخَطِيبٍ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ



مَدْرَسَةُ الْعِلْمِ وَالنَّجْدِ



حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م



مَدَارُ الْوَطَنِ لِلنَّشْرِ

الدائري الشرقي - مخرج ١٥ - ٢ كم غرب أسواق المجد

- الرياض : الملز/ت : ٤٧٩٢٠٤٢ (٥ خطوط) - فاكس : ٤٧٢٣٩٤١
السويدي ت ٤٢٦٧١٧٧ فاكس ٤٢٦٧٣٧٧ فرع جدة ت ٠٢٦٨٧٠٦٧٩ فاكس ٠٢٦٨١٧٣٨٦
مندوب الرياض : ٠٥٠٣٢٦٩٣١٦ - مندوب الغربية : ٠٥٠٤١٤٣١٩٨
مندوب الشرقية والدمام : ٠٥٠٣١٩٣٢٦٨ - مندوب الجنوبية : ٠٥٠٤١٣٠٧٢٧
مندوب الشمالية والقصيم : ٠٥٠٤١٣٠٧٢٨
مندوب التوزيع الخيري للمنطقتين الجنوبية والشرقية : ٠٥٠٨٣٩٩٨٥٧
مندوب التوزيع الخيري لباقي مناطق المملكة : ٠٥٠٦٤٣٦٨٠٤
لطلبات الجهات الحكومية : ٠٥٠٠٩٩٦٩٨٧

الموقع على الإنترنت : www.madar-alwatan.com

البريد الإلكتروني : pop@dar-alwatan.com

المقدمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله
وصحبه ومن اهتدى بهُداه.

أما بعد:

فإنّ هذا هو الجزء الخامس من المجموعة الموسومة بـ(وميض
من الحرم)، وهي الخطب التي ألقيتها من على منبر المسجد الحرام،
أردت خروجها مطبوعة؛ لتلحق بسابقاتها علّها تحل محلاً لائقاً في
النفع العام، غير أن هذه المجموعة انفردت عن مثيلاتها بخلوها من
المقدمة المشهورة التي أصدر بها كل جزء من هذه المجموعة بعنوان
(بين يدي الخطيب)، وما ذاك إلا لأنني أفردت مسائل الخطيب
والخطبة بكتاب ضخّم استقلالاً، ووسمته بـ(الشامل في فقه الخطيب
والخطبة)، والذي لاقى رجع صدى في أوساط الراغبين في الإفادة
منه، سائلاً المولى جلّ شأنه أن ينفع به وبهذه المجموعة من الخطب
وأن يجعلها في ميزان الحسنات ورفعة للدرجات ومحوراً للسيئات، إنه
خير مسؤول وأكرم مجيب، وهو المستعان وعليه التكلان.

قاله مقيده

سعود بن إبراهيم بن محمد الشريم

مكة المكرمة

ص.ب ٧٥٤٥ - فاكس ٥٢٧٥٨٩٩

نداء الوحدة

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له ومن يضلِّل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ؕ وَلَا تَمُونَّ إِلَّا وَآنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ؕ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ؕ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧١﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ؕ وَاللَّهُ يَطِيعُ اللَّهُ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد:

فيا أيها الناس، في دنيانا المحيطة بنا، أمثلة وضروب تتلون وتتجدد، ثم إن بعضها يتبع بعضاً، على وجه المطالبة الحثيثة، بحيث إن النفوس المؤمنة، تستمرئها بسبب متابعتها رويداً رويداً حتى تألفها، فلا تكاد تتحوّل عنها، وهذه الأمور عباد الله، إنما هي نماذج لأحزان وأشجان، وقروح تمس بلاد الإسلام حسيّة ومعنويّة،

مما يجعلها سبباً لكثير من الناس في أن يسعوا جاهدين إلى إزالة همومهم وغمومهم بشيء من الكيوف الموقوتة، والسراب الخادع من كل ما هو من زخرف الدنيا وزينتها، والذي يجب على المسلمين جملة، ألا يغتروا بما يرونه من زخرف الحياة الدنيا وزينتها في أمة تقطعت روابطها، وانفصمت عراها؛ ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفِثَنَّهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ١٣١].

من أجل الدنيا وزينتها، يغش التجار وبعلفنون، ومن أجل الدنيا يتجبر الرفعاء ويستكبرون، من أجل الدنيا وزخرفها، يروج الصحفي بقلمه الكذب والزور، ويخفي الحقائق وهي أوضح من فلق الصباح، من أجل الدنيا، يصبح المرء مسلماً ويمسي كافراً، ويمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا مقيت، كل الناس على هذه البسيطة يغدو، فبائع نفسه فمعتقها، وبائع نفسه فموبقها؛ من مترف مبطون، يأتل ولا يشبع، داؤه العُضال هو أن تذكره بذوي المسغبة أو المسكنة، أو المصاب الجلل من أمته، ومن قاروني يجمع ويجمع، ثم يأخذ ويمنع، ومسابه الجلل في أن تحته على الإنفاق في سبيل الله جهاداً ودعوة وسدقة، ومن شباب وفتيات دُعوا إلى الفضيلة فأبوا، ونودوا إلى صيانة النفس فتمرّدوا، وألقوا ثيابهم نكل قادم ناهب، وكشفوا أوعيتهم لكل سبُع والغ.

والحق عباد الله: أن هذا الانطلاق المحموم، في مهامه الحياة ودروبها، أفراداً ومجتمعات، دون اكتراث بما كان وما يكون، أو الاكتفاء بنظرة خاطفة لبعض الأعمال البارزة، أو الأعراض المخوفة، الحق أن ذلك نذير شؤم والعياذ بالله، وقد عدّه سبحانه، سمةً من سمات المنافقين، الذين لا كياسة لديهم ولا يقين لهم؛ ﴿أُولَٰئِكَ يَرْوُونَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٦].

أيها المسلمون، في الليلة الظلماء يفتقد البدر، وفي لهيب الشمس وسُموم الحر، يُستطلب الظلُّ وتُستجلب النفحات، وما أروع العدل حين يطغى الجور، والإنصاف حين يعلو الغمط، والوقوف مع النفس في مكاشفة ومصارحة، في عصر غلبت عليه المجاملات والرتابة، والفرقة والوحشة، والتناثر بين النفوس شذر مذر، ومن هنا يأتي الحديث ضروريًا عن الوحدة والاجتماع، والتآلف والتآخي، والتناصر والتكاتف، في عصر كثرت فيه الموجعات، وقلّت فيه الرادعات، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أيها المسلمون، لطالما تحدّث المتحدّثون، وهتَفَ الهاتفون من أمة الإسلام، بأنه يجب أن تكون هناك وحدة قوية، راسخة الأسس، شامخة المعالم، تطال أمة الإسلام طُرًا، حتى تكون بعد ذلك صخرًا صلدًا تتحطّم أمامه أمواج الضعف والتخاذل. وهذه

الدعوة في حقيقتها ليست مستحيلة ولا ضرباً من التخيل، أو نزوة من أحلام اليقظة، كلا عباد الله، فلو كان الأمر كذلك، لما حضَّ الباري جل شأنه عباده المؤمنين، على أن يكونوا إخوة في الله متناصرين متعاونين تجمعهم كلمة واحدة، ورابطة واحدة، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٌ﴾ [التوبة: ٧١]، ولَمَّا حَرَّضَ رسول الله ﷺ على أن يتلاحم المسلمون ويكونوا كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر، غير أن السؤال الذي قد يشغل بال الكثيرين هو: كيف نبني هذه الوحدة؟ وعلى أي أساس يجب أن تنهض ليشدد عودها ويستقيم ظلها؟

أَتَقَامُ هذه الوحدة على أساس من اللغة؟ كلاً، فاللغة وحدها غير كافية؛ إذ قد يكتنفها مسلم وكافر، فضلاً عن أنه لم يكن اللسان يوماً ما، هو سبيل الاتحاد والوحدة؛ فكم هم الذين يتكلمون بلغتنا ومن بني جلدتنا، وهم في الحقيقة شياطين في جثمان إنس، كما وصفهم النبي ﷺ بذلك عند مسلم في صحيحه.

أفتقام إذن هذه الوحدة على الجنس؟ كلا، فالجنس وحده ليس معياراً يعتمد عليه، أو يجعل تكأة للاتلاف العميق، فالإسلام لا يقيم للجنس في تقديره وزناً، فالناس كلهم لآدم وآدم من تراب، وإن كان لهم من أصلهم نسب يفاخرون به، فإنه لا يعدو كونه

الطين والماء؛ ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَقَكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

إذاً على ماذا تقام هذه الوحدة، وبأي شيء تكمل؟ إنها لا تقوم حقيقة، إلا على أساس يجمع الأرواح، قبل أن يجمع الأشباح، ويقنع العقول، إثر سيطرته على القلوب، ويؤلف بين الرغبات والأهواء، كما يؤلف بين النبات والماء.

هذا الأساس كله، هو عقيدة الإيمان المستقرة في الخواطر والصدور، وملة الإسلام التي تظل أبناءها جميعاً ليتفيروا ظلالتها بلواء العلي الغفّار، ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ [البقرة: ١٣٨].

إنه يجب علينا جميعاً أن نؤمن بأن الدعوة للوحدة، ليست عصبية، أو جنسية، أو إقليمية، أو تأليباً على الشر، أو اعترافاً للبطش والعدوان، بل هي الوحدة المؤمنة العادلة، التي يلزمها أن تقوم للناس بالحق والقسط. والدين الإسلامي هو أقوى وتر حسّاس في نفوس المؤمنين على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وتباين أقطارهم وبلدانهم، ولن تجتمع كلمتهم يوماً ما دون أن تؤسلم قضاياهم، وتحدد معاييرها، من خلال الإطار الإسلامي الخالد، والإسلام بحقيقته، ليس إلا.

ثم إن الإسلام في الحقيقة إنما انطلق في وحدته، من خلال توحيد الخالق سبحانه؛ ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]،

ووحدة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ [الفتح: ٢٩]،
 ووحدة الدين؛ ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ عِزَّ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: ٨٥]،
 ووحدة الكتاب؛ ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ [الإسراء: ٩]،
 ووحدة القبلة؛ ﴿ قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا
 وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ﴾ [البقرة: ١٤٤]، ووحدة الأمة؛ ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً
 وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون: ٥٢].

هذه هي معايير الوحدة الحقّة، وأي وحدة سواها فهي كالظنّير
 المستأجرة، أو النائحة المزورة.

عباد الله، إن من مكملات الوحدة وتداعياتها، نصرّة الأَخ
 المسلم، وخوض ميدان دعمه حال اشتباكه مع قوى الباطل، في
 معركة موصولة الكر والفر، ولا يحصل مثل ذلك إلا بترويض
 النفس على شيء من المجاهدة والمثابرة، وحمل همّ الإسلام؛
 لنضمن شيئاً من الكفاية ونتقي الفضول، ولنكون أعون شيء على
 رفع مستوى الثغور والجهات لأمة الإسلام، وتوفير العِزّة إرضاءً لله
 سبحانه؛ فإنه ولا شك لا يتفق طمع في الدنيا، وانتصار للمثل
 العليا.

كما أنهما لا ينسجمان البتة: حرص على إعلاء كلمة الله،
 وحرص على تكثير المغانم، والعبّ منها كما الهيم، مع استرضاء
 الخلائق، واستجدائهم بالخور والجبن.

وفي التفاتة سريعة إلى دنيا الناس في مجملها تجاه النصره
والخذلان، والرفعة والدون، فإنها يمكن أن تصوّر لنا الناس كحال
رجلين اثنين:

إما رجل له مالٌ وبنون، طال أجله وأدبر شبابه، وكان واجباً
عليه أن يتهيأً للآخرة بزاد حسن. ومثله لو قُتِلَ في سبيل الله، فإنه
لم يترك وراءه شيئاً يخاف عليه الضياع: لا الزوجة العجوز، ولا
الأولاد الكبار؛ ومع هذا فهو أشبه ما يكون بشيطان أخرس، أو
ناطق يَفْرُقُ من كلمة حق، ويُوَجِّلُ من موقف شرف، ويتشبث
بأذيال الحياة؛ طلباً للمزيد بنهم وسعار.

وفي المقابل مثل شباب، لهم آمال، وتعترهم صبوات أيما
صبوات، ولهم أحمال وعليهم أعباء، ومثلهم لو توثقت علائقهم
بالدنيا أو قهرتهم الصبوة بكلكلها، لما كان في سيرتهم كبير
عجب، ومع هذا كله يذهلون عن الدنيا المقبلة، ويتركون ذرية
ضعافاً خافوا عليهم، ويقبلون على نصره دين الله بنبل وجلال.

هذان مثلان مضروبان، يمكن تنزيلهما في واقع الناس على
كافة المحاور، شعوباً وحكومات وأفراداً؛ كلٌّ بحسبه.

ومن باب أن الشيء بالشيء يذكر: فإن المؤمن الصادق لا
يمل كثرة الحديث عن ثالث المسجدين، وعن مسرى رسول الله
ﷺ، عن فلسطين الأبيّة؛ لأنها اليوم تعدُّ نقطة الارتكاز في ميدان

القضية الإسلامية، والجهاد الإسلامي، وقضيتها حديث القضايا الإسلامية، وساحتها محطة امتحان وكشف لقوة المسلمين وغيرتهم على دينهم وأوطانهم وحرمااتهم، فهي أرض المسلمين ولا تصلح إلا للمسلمين، أرض أظهرت صورة رجالها البواسل، حينما أخرجت العالم من مكتبه، والعامل من معمله، واستنجدت المرأة في بيتها، والطفل في مدرسته، أمسوا على وهج النار، وأصبحوا على دخان البارود، إنهم يدافعون عن دينهم وكرامتهم، إنهم يسوقون في وجه الغاصبين، شباباً أنضر من الزهر، وأبهى من الوضاءة، وأثبت من الجبل، وأمضى من العاصفة، إنهم يكافحون بشيوخ لهم حماسة الشباب، وشباب لهم همّة الشيوخ، ونساء لهم قوة الرجال، وصغار لهم عزائم الكبار، ولئن هلك منهم فوجٌ، ليأتنَّ بأفواج، ولئن صبر مغتصبهم يوماً، ليرمتهُ بأيام.

إن من يستشعر مثل هذا، ليس له منطلق إلا الإسلام، فإنه سيوقن ولا ريب أن المسلمين أصحاب دين لا يموت، ولا ينبغي له أن يموت، مهما هبت الأعاصير وادلهمت الخطوب، وهو باق خالد إلى قيام الساعة، وعندما يشرئب أعداؤه أن تشيع جنازته، فإنهم سيصعقون ببزوغ شمس من جديد.

كما أنه ينبغي علينا جميعاً أن ندرك جيداً بأن انتصار المسلمين وانكسارهم لا يرجع إلى قوة أعدائهم أو ضعفهم، وإنما

الانتصار والانكسار في الحقيقة يعودان إلى الأمة الإسلامية نفسها، فإذا وُحِّدَت كلمتها، ومن قبل ذلك: وُحِّدَت ربها، ولزِمَت أمره، وأقامت حقّه، فإنها منصوره لا محالة؛ ﴿إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

والقلّة والكثرة، ليست هي المعيار الحقيقي؛ فقد انتصر المسلمون في بدر وهم قلة أدلة؛ ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، ثم هُزِمُوا في حنين وهم كثرة كاثرة؛ ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كَثُرْتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْرِيْنَ﴾ [التوبة: ٧].

والمسلمون عباد الله، إنما ينتصرون إذا أحسنوا علاقتهم بالله، وعزموا على نصره دين الله؛ فإن من لا يعرف إلا الله لن يغلبه من لا يعرف الله، ومن لا يعرف إلا الحق لن يغلبه من لا يعرف إلا الباطل؛ ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، ولا عدوان إلا على الظالمين،
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولي الصالحين، وأشهد
أن محمداً عبده ورسوله النبي الأمين، صلى الله عليه وعلى آله
وأصحابه المتقين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فيا أيها الناس، إن العجب كل العجب، أن تسفل النفس
المؤمنة، حتى لا تطلب رفعة، أو تقنط حتى لا يكون لها أمل. أما
لو أيقن المسلمون، أن لهذا الكون مدبراً عظيم القدرة، وأنه القاهر
فوق عباده، تخضع كل قوة لعظمته، وتدين كل سطوة لجبروته،
وأن هذا القادر العظيم، بيده مقاليد كل شيء، يصرف عباده كيف
يشاء، لما أمكن مع ذلك أن يتحكم فيهم اليأس، أو تغتال آمالهم
غائلة القنوط.

فما على المسلمين إلا أن يتحققَّ بينهم روح الإخاء والتضامن
في الدين؛ فيأخذ القوي بيد الضعيف، ويشد المقتدر من أزر
العاجز، وترفع راية التوحيد المحضنة، ويطرح التفاهم بإخلاص في

الأمر، مع الاعتماد على الله واللجوء إليه، بعد بذل الأسباب المادية، ومحض التُّصَحِّح للقيادة، ابتغاء وجه الله؛ فدين الله وشرعه - وإن ضعف فيه شخص المتقين المجاهدين - فهو باق خالد، وضعت فيه صفات المتقين، وخطط المجاهدين، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

كما أنه من الواجب على المسلمين بعامة، أن يبحثوا في كل مَظَنَّة ضعف عن سبب قوة. ولو أخلصوا في تلمُّس ذلك وطلبه، لانقلب الضعف إلى قوة؛ لأن الضعف قد ينطوي على قوة مستورة يؤيدها الله بعنايته ورعايته، فإذا هي تهد الجبال، وتحير الألباب؛ ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٤].

سمع معاوية رضي الله عنه أن رجلاً من خصمائه شرب عسلاً فيه سم فمات، فقال رضي الله عنه: إن لله جنوداً منها العسل.

كما أنه ينبغي علينا جميعاً أن نعترف بأخطائنا في الواقع، والتي يتكاثر عدها، ويستحيل حصرها، والتي تخل بنظام السببية في النصر والتمكين، وأن يكون هذا الطرح بصورة صريحة في واقعنا، عبر كافة الوسائل المتاحة، دون اقتراح خيانات قاتلة من ذوي الأقلام المؤثرة، والألسن المستميلة، في حق دينهم وأمتهم، بتجاهل تلك القضايا المهمة، والتي بتجاهلها وغض الطرف عنها

يؤخر يوم النصر ولا يقدّم، فتقود إلى الغرق في بحرٍ لُجِّيٍّ، من الخداع والتضليل، ولا عاصم من أمر الله إلا من رَحِمَ، فهل يرتفع شعار الإسلام وترفرف رايته، في تحليل القضايا الإسلامية، أم تبقى تحت الرايات العمية؛ لتبلغ بها القاع والعياذ بالله؟! ﴿وَلَيَنْصُرَنَّكَ اللَّهُ مِنْ نِصْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿[الحج: ٤٠، ٤١].



﴿ قل هو من عند أنفسكم ﴾

الخطبة الأولى:

الحمد لله القوي المتين، المَلِكِ الحق المبين، غافرِ الذنب وقابلِ التوب شديد العقاب ذي الطول، لا إله إلا هو إليه المصير، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ما اتخذ صاحبةً ولا ولدًا، ليس له شريك في الملك، ولم يكن له ولي من الدن، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وخليله وخيرته من خلقه، أتى بالمَحَجَّةِ وأقام الحُجَّةَ، وأشهدَ أُمَّته على نفسه عام الحَجَّةِ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه، وَمَنْ سَارَ على طريقهم واقتفى.

أما بعد:

فإن النصيحة المبذولة لي ولكم عباد الله، هي تقوى الخالق جلَّ شأنه، فهي عدة الصابرين، وذخيرة المجاهدين، وسلوان المصابين، ما خاب من اكتسى بها، ولا ندم من اكتنفها، بها النجاة في الأولى، والفوز في الأخرى، لا يسألكم الله رزقاً، هو يرزقكم والعاقبة للتقوى.

أيها الناس، لعلَّ المسلمين في ثنایا هذه العصور المتأخرة، هم أكثر الناس آلاماً، وأوسعهم جراحاً، ولعلَّ أرضهم وديارهم وأموالهم هي التي يستنسر بها البغاث، وتستأسد فيها الحُمُر.

والمسلمون مع ذلك، يتجرعون هذه الجراحات في صياصيتهم وهم لا يكادون يُسيغونها، ويحملون معها أثقالاً إلى أثقالهم، إنهم يُدْعُونَ إلى الاستكانة والاستجداء دَعَاً، وتتقاذفهم مضارب الغالبين، إلى أن يعترفوا بأن حقهم باطل، وباطل غيرهم حق. يُزجُّ بهم في كل مضيق من أجل أن يقلبوا الحقائق، ويتقبلوا أضدادها على مضض، حتى ينطق لسانهم بالرسم المغلوط، والفهم المقلوب، فتكون عبارتهم لعدوهم بلسان حالهم: إذا مَرَضْنَا أتينَاكُمْ نعوذُكُمْ، وتخطئون فنأتيكُمْ ونعتذرُ.

والحقُّ أيها المسلمون، هو أن المتأمل في هزائم المسلمين المتلاحقة، وضعفهم الحثيث، واستكانتهم المستحوذة عليهم أمام أعدائهم، يجد أنها لم تكن بدعاً من الأمر، ولا هي نتائج بلا مقدمات، ولم تكن قط، قد قفزت هكذا طفرةً دونما سبب، وإنما هي ثمرةٌ خللٍ وفتوق، في ميدان الأمة الإسلامية، وتقصيرٍ ملحوظ تجاه خالقها ورسولها ﷺ ودينها.

وهذه الثغرات والفتوق هي التي أذكأها أعداء الإسلام، بما يبثونه عبر سنين عديدة، من المكر والخديعة، واللتِّ والعجن منذ زمن على الإسلام والمسلمين، وبسبب نقيمتها هذه، اختبأت وراء صور الاستعمار المتنوعة، تتناول من خلاله ما تشاء من الأساليب، فإذا احتاج الأمر إلى المكر، لانت، وإذا احتاج الأمر إلى القسوة،

بطشت، وهي في لينها: تبث السم في العسل، وفي شدتها: تحترف الهمجية والجبروت، وهي في كلتا الحالتين: لا تنام عن غايتها أبداً، ولو نامت بإحدى مقلتيها، فإنها بالأخرى يقظانة ساهرة. وهذا سر أسفنا المتصاعد عباد الله.

أيها المسلمون، إن الكثيرين منا ليتساءلون إثر كل بلية تحل بدار الإسلام: ما السبب؟ وكيف ولم؟ ومِمَّ وَعَمَّ؟ كل صور الاستفهام تتناثر صيحاتها في مسامعنا حيناً بعد آخر، ولكن هل نجعل هذا التساؤل جديداً على أسماعنا؟ أم أن في أفئدتنا، وما أعطانا الله من صلة بكتابه العزيز، ما يذكر بسؤال مماثل للرعيّل الأول، في أزمة هي من أشد الأزمات التي حلّت بهم، ألا وهي هزيمتهم في معركة أحد؛ يندبون حالهم، ومِنْ ثَمَّ يتساءلون، فيقول الله عنهم: ﴿أَوَلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أِنَّا هَذَا﴾ [آل عمران: ١٦٥]، فيجيبهم الله بخمس كلمات، لم ينسب - ولا في كلمة واحدة - سبب الهزيمة إلى جيش، ولا إلى عُدَّة، ولا إلى تحرّف في قتال، وإنما قال لهم بصريح العبارة: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، يقول الله لهم ذلك ليبين لهم ولَمَن بعدهم بوضوح: أن خواتيم الصراعات والمدافعات بين الأمم على كافة الأصعدة لا يمكن أن تقع خبط عشواء، وإنما هي وفق مقدمات أثمرت النتيجة بعد استكمال أسبابها؛ ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ

مُصِيكَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴿ [الشورى: ٣٠].

تقع الهزائم؛ ليستيقظ الناس، وتتوالى الضربات؛ لتحل المحاسبة محل النفوس، ويتضح مثل هذا بما أتبع الله الآية بقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَيَاذَنَ اللَّهُ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَنَتَلَوُا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ أَدْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَتَّبِعَنَّكُمْ هُمْ لِلْكَافِرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿ [آل عمران: ١٦٦، ١٦٧].

لقد كتب الله سبحانه على نفسه النصر لرسله وأوليائه؛ فقال: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿ [المجادلة: ٢١]، ولكن الله سبحانه علّق هذا النصر، بتحقيق الإيمان في القلوب، واستيفاء مقتضياته في كل مناحي الحياة، وهذه هي سنّة الله في النصر، وسنّة الله لا تحابي أحداً، وحين تُقَصِّرُ الأُمَّةُ وتُفَرِّطُ فعلها أن تقبل النتيجة المرّة؛ لأنها مع كونها مسلمة إلا أن ذلك لا يقتضي خرق السنن وإبطال النواميس.

أيها المسلمون، إن على رأس الضعف الأصيل، البعد عن تشخيص الأحداث بصورتها الحقيقية، مع الاكتفاء بمجرد التلاوم، وإلقاء التبعة على الغير، فعامة الناس يُلقون باللائمة على العلماء، والمصلحين والمثقفين، وهؤلاء يُلقون باللائمة على الساسة والقادة الآخرين. وما القادة والساسة، والعلماء والمصلحون والعامّة، إلا

جزءٌ من كل، ولا استقلالَ في اللوم بصنف دون آخر، وإلا كان جرماً واستكباراً وخروجاً عن الواقعية؛ فرسول الله ﷺ يقول: «كلُّكم راعٍ، وكلُّ راعٍ مسؤولٌ عن رعيته»، ثم إن المنصف الحذق يلمح من خلال هذا التلاوم المشترك، أنه ليس في الحقيقة أحد ملوم؛ إذ كلُّ يلقي باللائمة على الآخر، فيلزم من ذلك الدَّورُ، وهو ممنوع عند جميع العقلاء. ورحم الله مالك بن دينار، حينما وعظ أصحابه موعظةً وجِلُّوا منها، وارتفع بكاؤهم، وبيناهم كذلك؛ إذ فقدَ مصحفه الذي بين يديه، فالتفت إليهم وقال: ويحكم! تبكون جميعاً، فمن الذي سرَقَ المصحف إذن؟!

عباد الله، لأجل أن نصل إلى حال راقية، من المكاشفة والوضوح في الطرح، ولأجل أن نحسن تشخيص الداء؛ لنستجلب له الدواء؛ فإن ثَمَّةَ مفاهيمٍ ينبغي ألا تغيب عن أذهاننا طرفة عين، حتى نصل إلى المقصود، ويتحد الهدف.

فمن هذه المفاهيم: أن الناس إن لم يجمعهم الحق، شَعَبَهُمُ الباطل، وإذا لم توحدهم عبادة الرحمن، فرقتهم غواية الشيطان، وإذا لم يستهوهم نعيمُ الآخرة، اجتالهم متاع الدنيا فتخاصموا عليها، ولو غلغلنا النظر في كثير من الانقسامات، لرأينا حب الدنيا والأثرة العمياء تكمنُ وراء هذه الحزازات، وهذا هو سر الوهن العظيم الذي سُئِلَ عنه النبي ﷺ حينما قال: «وليقذفنَّ اللهُ في

قلوبكم الوهن» قيل: وما الوهن؟ قال: «حبُّ الدنيا، وكرهية الموت».

ويظهر هذا الأمر جلياً في سبب من أسباب هزيمة المسلمين في أحد؛ حيث يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلَكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، يقول ابن مسعود رضي الله عنه: والله، ما علمتُ أنَّ معنا في أحدٍ من كان يريد الدنيا إلا لما نزلت هذه الآية.

ولأجل هذا عباد الله، كانت هذه الهزيمة، حين لم يستجب أقوامٌ منهم لوصية الله تبارك وتعالى، في أول عظة للمسلمين بعدما انتصروا في معركة بدر، بأن يوحدوا صفوفهم، ويلموا شملهم، حيث قال سبحانه: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١]، أنزل الله عليهم هذه الآية؛ ليقطع على النفس مطامع الدنيا، وغلبة حبِّ الغنيمة على حب نصر دين الله ورفعته.

ومن المفاهيم التي يجب أن تعرف: هو أن منطق الأعداء الحاقدين واحد، وهو برؤيته ليس جديداً على الساحة العامة، كما

أن قلب الحقائق وتشويهه صورة المسلمين، ليست هي بدعة العصر الحديث، فمنطقُ المجرمين واحدٌ ولو تطاولتِ القرون، وإن شئتم، فاسمعوا قول فرعون عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ : ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذُرِّيٌّ أَقْتُلُ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ ۗ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ [غافر: ٢٦]، هذا هو منطق فرعون الأول يظهر غيرته على دين الناس وأمنهم، فهو يخاف عليهم إفسادَ موسى في الأرض، فيقرر أن موسى يُزهِبُ أهلَ الأرض فهو لا يستحق البقاء. هذا هو منطق فرعون الأُمس، وها هو التاريخُ يعيد نفسه، وما أشبه الليلة بالبارحة، فهل يتعظ المسلمون بعد هذا، أم سيقولون مرة أخرى: ﴿ أَنَّى هَذَا ﴾؟ ﴿ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

إن استجابة النفس للدعاوى الأفاقة، والاستسلامَ لشيوعها، والتي تصلُ - بسبب قوة طرحها، والتأثير الإعلامي لها - إلى درجة الرضا بها، والقبولِ لها، ومن ثمَّ يتحول الافتراء إلى حقيقة مسلَّمة، وواقع لا مَمَاراة فيه، ولنضرب مثلاً على هذا فنقول: نحن نعلم أن حقوق المسلمين، ودماءهم في أقطار كثيرة تُهدَرُ وترخص، حتى لو داهمهم مغتصب، والتوت عليهم يد معتد، فأبدوا مقاومة واهنة، أمام المُغِيرِ عليهم، ودفعوا بِرَاحِهِمْ أَفْتَكَ أنواع السلاح، ارتفعت صيحات وشنِشِنات أخزمية تقول: المسلمون معتدون! المسلمون إرهابيون! ومن ثمَّ يكون هذا تبريراً

للدبابات والمجنزرات، في أن تَصَبَّ جَامَ غضبها على أُمَّة لا تملك إلا الحجارة. ويبدو أن مثل هذا الإفك لا ينقطع، وأن الأصدقاء بأن المسلمين إرهابيون أكذوبةٌ كبرى، فهي - كما يقول علماء النفس -: نوع من الإسقاط الذي يدفع المرء إلى اتهام غيره بما في نفسه هو من شر، وقديماً قيل: «كل إناء بما فيه ينضح».

ومع ذلك كله: تُصَابُ أمة الإسلام بصدمة عنيفة من قبل آراء عالمية تصف المالك الطريد إرهابياً لا حق له، وتجعل اللص الغالب رباً بيتٍ محترماً، ثم بعد ذلك يقول المسلمون: ﴿أَتَى هَذَا؟﴾ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

ومفهوم رابع: يتجلى في الحذر من المغرضين وبني جِلْدَة المسلمين، والذين يُعْرِفُونَ في لَحْنِ القول والله يُعلم إسرائهم. هم سر في ضعف المسلمين، وثغرة صارخة في صفوفهم، يعد أمثالهم في دول كبرى، طابوراً خامساً حَسَبَ قواميسهم، فهم يتقونهم في مجتمعاتهم بكل ما يملكون من سُبُل. وإنَّ معرفة مثل هؤلاء، والوقاية منهم، سببٌ رئيس في تحصيل القوة، والبُعد عن الهزيمة، وعلينا أن نعلم جميعاً، أن الله فعل ما فعل بالمسلمين في أحد، لِحَكَمِ ظاهرة، منها قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَنَنْتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَافِرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

ومفهوم خامس عظيم: وهو أن تغيير هذا الواقع المرير، إلى واقع رفيع، مرهونٌ ولا شك بتغيير واقع الناس أنفسهم، وهذا يعني بدهشة، أنه متى دبَّ الضعف وتأخر النصر، فإن هناك أسباباً تؤخره بلا ريب، ورأسُ هذه الأسباب هو أن الباحثين عن نصر الله وتغيُّر حالهم لم يغيروا ما بأنفسهم؛ ولذلك كان الغنم بالغنم والغُرم بالغُرم، والله جل شأنه يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].



الخطبة الثانية

الحمد لله الكبير المُتعال، له الحمد على كل حال، وله الشكر بالغدوِّ والآصال، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شديد المِحال، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله النبي المِفْضال، صاحبُ النوال، وسديدُ المقال، صلى الله عليه وسلم وعلى أصحابه وإخوانه والآل.

أما بعد:

فاتقوا الله أيها المسلمون، واعلموا أن ثَمَّة مفهوماً مهمًّا ينبغي ألا يُغفل عنه؛ لأنه لُبُّ في الموضوع، وعمودُ ارتكازٍ في التصحيح، ألا وهو المعصية، وما لها من أثر وشؤم، ووقوع عظيم في تحديد معايير النصر والهزيمة، وإن من يُلقَى بنظره إلى غزوة أُحد، وإلى السبب الرئيس للهزيمة، لَيَجِدُ أنه يكمن في المعصية، والتي تَلَقَّى المسلمون بسببها لكمة موجعة، أفقدتهم من رجالهم سبعين بطلاً، على رأسهم سيدُ الشهداء حمزة، فردَّتْهم الهزيمة إلى المدينة وهم يعانون الأمرين من جرَّائها، وشماتة كُفَّار قريش بسببها.

وإن تعجبوا عباد الله، فعجبٌ أمرُ هذه المعصية في أُحد، إنها لم تكن في فُشُوِّ زِناءٍ بينهم، ولا في احتساء خمرة مسكرة، ولم تكن

في إقصاء شريعة وتحكيم قوانين خارجة عنها، ولا في فساد امرأة أو انحراف شباب، بل إنهم خرجوا إلى أحد، ومعهم إيمانهم بالله، وحبُّهم لرسوله ﷺ، ودفاعُهُم عن الحق، وطلبُهُم رِفْعَةَ هذا الدين ونُصْرَتَهُ، وكل ذلك في الواقع، يرشِّحهم بأقوى أنواع الترشيح في أن ينتصروا ولا يُهْزَمُوا.

ولكن! يبلو الله المؤمنين في أحد؛ فينزل الرُّمَاءَ عن الجبل، لا لقصد عصيان الرسول ﷺ، ولكن لما رأوه من الانتصار للمسلمين، فخاف بعضهم فوات حظه من الغنائم، ثم كانت الكارثة!! هزيمة موجعة، فاجعة مَهُولَةٌ، وأثابهم الله غمًّا بغم، وكُسِرَتْ رَبَاعِيَةُ الرسول ﷺ، وشُجَّ رأسه، وقُتِلَ سبعون شهيداً، فالله أكبر، ما أعظم أثر المعصية على واقع المسلمين حتى في أحلك الظروف.

تلك هي معصيتهم، فما هي معاصينا إذا؟! إنه لسؤال صعب، والجواب عليه أشدُّ من لعق الصبر؛ يقول الرسول ﷺ: «إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورَضِيتُم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلَّطَ اللهُ عليكم ذلاً لا ينزعهُ منكم حتى ترجعوا إلى دينكم» [رواه أحمد وغيره]، إنَّ شؤم المعصية يعم مهما قلَّ حجمه، أو ضعُف الاكتراثُ به، يمحِّقُ البركة ويفسد العمل، ولو كان جهاداً في سبيل الله.

دخلت العالية - امرأة أبي إسحاق السَّبَّيحي - على عائشة رضي الله عنها، فدخلت معها أم ولد زيد بن أرقم، فقالت: «يا أم المؤمنين، إني بعت غلاماً من زيد، بثمانمائة درهم نسيئة، وإني ابتعته منه بستمائة نقداً؟ فقالت لها عائشة: بئس ما اشتريتِ، وبئس ما شريتِ، إنَّ جهاده مع رسول الله ﷺ قد بطل إلا أن يتوب»؛ رواه الدارقطني بسند جيد، فرحماك يا رب رحماك، ولا حول ولا قوة لنا إلا بك.

اللهم صلِّ على محمد...



خُصَمَاءُ الشَّنَّةِ

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له ومن يضلِّب فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُونَنَّ إِلَّا وَآنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ءَ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد:

فيا أيها الناس، نورُ النبوة وإشعاعُها، والهدايةُ المتحققةُ بإذن الله في الاقتباس من ذلك النور، مرهونٌ بمدى قُربِ المسلمين من هدي نبيهم ﷺ، والبعْدُ عمًا يخالفه، وكلما ازداد المسلمون تمسكاً برسالته ﷺ، ازداد هذا النورُ واتسع، وعمَّ ضياؤه المدرَّ والوبر، وعلى العكس من ذلك: كلما ابتعدوا عنه أو زهدوا فيه، أو اقتبسوا نوراً من غيره، ضاق عليهم ما اتسع، وأظلم ما هو منيرٌ لهم، وهذه سُنَّةُ الله في

المتخاذلين؛ ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠].

إن المترقب لأحوال كثير من المسلمين في جملة من الأقطار، قد يرى ما يؤسفه، ولربما صدق حدسه، وظهر أثر ترقبه، ونتيجة سببه واستقرائه، على أن جهوداً غير قليلة، تتسلل لوادأ، وتُبدل على تخوف مشوب بمكر، على الإخلال بواقع المسلمين، حتى يرضى المسلمون، ولو ببعض الإسلام الذي تلقوه عن نبيهم ﷺ، وعرفوه من كتاب ربهم سبحانه!! نعم قد تُبدل مثل هذه الجهود، لتهميش الإسلام من قبل أعدائه، ممن هو أجنبي عنه أو ممن يتكلم بلغته.

وهم مع ما يبذلونه من جهود في هذا الإطار، لن يهدأ لهم بال أو يقرّ لهم قرار، حتى يروا في واقعنا إسلاماً منقوص الحقيقة والأطراف، إسلاماً منقوص العرى والشائج، يُنكر عليه المنكرون ويزمجرون، كيف يتدخل في شؤون التشريع كافة دون استثناء، أو يبت في قضايا المجتمع، أو يقتلع من السلوك العام ما يחדش قيمه ويمس مثله الرفيعة؟! إنهم لا يريدون أن يبقى من الإسلام إلا اسمه، أو على أقل تقدير الإبقاء بضرورات لا تلبث أن تزول، ليصدق فيها ما ذكر النبي ﷺ منوهاً إلى آخر الزمان بقوله: «يُدْرَسُ الإسلامُ كما يُدْرَسُ وشي الثوب حتى لا يُدْرَى ما صلاة ولا صيام ولا زكاة».

إن الجهود الغامضة، لا تزال تبذل في غير ما سبيل،
لتحصيل أجيالٍ مهيأةٍ لقبول مثل هذه الصور المشوهة للإسلام،
حتى ترتضي ما قام في أوساط البسطاء السُّدَج من أهله، من الجرأة
على تحليل الحرام أو تحريم الحلال، أو قطع ما أمر الله به أن
يوصل، والوصول إلى واقع يُدفع فيه معظمُ الأمور الثوابت بعيدةً
عن هداية الله، فيألفُ البعضُ التفُلتَ من المسلّمات؛ كتحقيق
توحيد الله جلَّ شأنه، وكالربا، وذرائع الزنا، مع مصادمةٍ لسُنَّة النبي
ﷺ، ودعواتٍ متهافئةٍ، لاقت رجع الصدى يمنةً ويسرةً، داعيةً إلى
تحرير الناس من أواصر القيود الشرعية زعموا.

ولعلَّ من أشهر ما انصبَّ عليه التَّغريبُ دون هداوةٍ أو تريُّث،
سُنَّة المصطفى ﷺ، التي هي أُسٌّ من أساسات هذا الدين، والتي
حذَّر النبيُّ ﷺ من الوقوع في مغبَّةٍ ما ذكر بقوله: «إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلُ مَا
بعثني الله به كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمَهُ، فَقَالَ: يَا قَوْمُ، إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ
بعيني وأنا النذيرُ العُرْيَانُ؛ فالتَّجَاءُ، وكذبت طائفةٌ منهم، فأصبحوا
على مكانتهم، فصَبَّحَهُم الْجَيْشُ فَأَهْلَكَهُمُ وَاسْتَبَاحَهُمُ، فَذَلِكَ مَثَلِي
وَمَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ مَا
جِئْتُ بِهِ مِنَ الْحَقِّ» [رواه البخاري].

إن ما خشي منه النبيُّ ﷺ بدأت تظهر ملامحه على فترة من
أهل العلم، وإبانَ طفرةٍ طاغيةٍ، من الظواهر المعلوماتية والثقافات

العولمية، والتي تَصُبُّ في قالبٍ واحد، هو جعلُ العالمِ كلِّه كالكتلة الواحدة دون تميُّز، حتى سبَّب الهجومَ الكاسح، والحرب التي لا هوادة فيها تُجَاهَ سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، مع قلةٍ في الإنصاف، وبعْدَ عن الطرح الصحيح، الموافق للشرع الصحيح والعقلِ الصريح، وأمثال الخائضين في مثل هذا مهما قَصَّروا هجومهم على سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ فحسب، فإنهم لو تَمَّ لهم ما يريدون، لأضاعوا القرآن والسُّنَّةَ على حد سواء، حيث إن خدش السُّنَّةِ ذريعةٌ لخدش القرآن، ومن ثم القضاء على الدين بمرّة.

ولأجل أن نقرب من فهم هذه القضية، فلا أقلّ من تسليط الضوء بوضوح على بعض الوسائل التي سار عليها أصحابُ الغارة على سُنَّةِ المصطفى ﷺ بعد التأكيدِ الجازمِ على تعدُّدها عندهم واختلافِ محاورها باختلاف البيئاتِ قوَّةً وضعفًا، فكان من أشهر وسائل الطعن في السُّنَّةِ أمران:

الأول منهما: التشكيكُ في صحة جملةٍ من الأحاديث النبوية،

لاسيما تلك التي يبني عليها المسلمون مرتكزاتهم الدينية، وثوابتهم الشرعية؛ فيصفونها بعدم الثبوت تارة، أو أنها مكذوبةٌ تارة أخرى، أو يشككون في ثقة رواتها وحُسنِ مقاصدهم، مع أن للحديث جهابذةً وصيارفةً، على مدى التاريخ، يبيّنون ضعفها من سقيمها، يقول أبو القاسم الأصبهاني رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ولئن دخل في غمار الرواة من

وُسِمَ بِالْغُلَطِ فِي الْأَحَادِيثِ، فَلَا يَرُوجُ ذَلِكَ عَلَى جِهَابِذَةِ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ وَرَتَوْتَ الْعُلَمَاءُ - أَي رُؤَسَائِهِمْ - حَتَّى إِنَّهُمْ عَدُّوا أَغَالِيطَ مَنْ غُلَطَ فِي الْأَسَانِيدِ وَالْمَتُونِ، بَلْ تَرَاهُمْ يَعْدُونَ عَلَى كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ فِي كَمِّ حَدِيثٍ غُلَطَ، وَفِي كَمِّ حَرْفٍ وَمَا ذَا صَحْفٍ». اهـ.

أما ثاني الأئمة عباد الله: فهو الترويض والتنشئة على استسهال نقد نصوص السنة دون مسوغات شرعية، والجرأة على مواجهتها بأنها تخالف العقول، مما يسبب قلة الاكتراث بها، وذوبان هيبتها في نفوس المشاهدين لذلك والمستمعين له، على وجه التلقني والقابلية، حتى يكون أسهل شيء لدى البعض أن ينقد حديثاً صحيحاً، إما بتكذيبه أو دعوى مخالفته للعقل، فيتلاعب جمهور الدهماء بذلك، ويتهكون حرمة النص النبوي ويسئون الظن به، ولقد أحسن ابن القيم رحمته الله، في وصف أمثال هؤلاء بقوله: «ومن ذلك: تلاعبهم بالنصوص وانتهاك حرمتها؛ فلو رأيناهم وهم يلوكونها بأفواههم وقد خلت بها المثلات، وتلاعبت بها أمواج التأويلات، وتقاذفت بها رياح الآراء، واحتوشتها رماح الأهواء، ونادى عليها أهل التأويل في سوق من يزيد، فبذل كل واحد في ثمنها من التأويلات ما يريد». إلى أن يقول رحمته الله: «فلا إله إلا الله، والله أكبر! كم هدمت بهذه المعاول من معاقل الإيمان، وثلمت بها حصون حقائق السنة والقرآن، وكم أطلقت في نصوص

الوحي من لسان كل جاهل أخرس ومنافق أرعن». اهـ.

عباد الله، إن المشككين في سُنَّة النبي ﷺ، والمحاربين لها، لو قاموا في حربهم على أسس علمية، لوجب ألا يدرس التأريخ في بلد ما؛ إذ لأي شيء يقبل التاريخ على أنه علم مُسَلَّمٌ به، وتهتم كل أمة به، ثم هي لا تقبل جملة من سنة النبي ﷺ مع أن طرق الإثبات في التأريخ أقل شأنًا من طرق الإثبات في الحديث النبوي؟! ثم لماذا تدرس سير العظماء ومواقفهم، وتعرض للتأسي والإعجاب، ويحرم من ذلك الحق رسلُ الله، لاسيما محمد ﷺ من خلال سُنَّتِه؟!

إننا حينما نتطرق لمثل هذا عباد الله، فإنما نقوله لأجل أن نبين أن للسُّنَّة رجالها الخبراء بها، وهم أئمة الدين من العلماء والفقهاء، النجوم الثواقب، ورواسي الأرض وأوتادها: ﴿فَإِنْ نَنْزَعُكُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩]، ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

إذا ترك الرد إلى الرسول وإلى أولي الأمر وهم العلماء، سبيلٌ من سبيل اتباع الشيطان؛ فحريٌّ إذن ألا يُقبل في هذا الميدان ما يُرسله المتهورون من أحكام طائشة، تجعل التطويح بالسُّنَّة

النبويّة أمراً جائزاً، أو تجعل تكذيب حديث النبي ﷺ والتلاعب به هوى مطاعاً وكلاً مباحاً... وما سبب قولنا هذا عباد الله، إلا لما نراه في هذه الأزمنة من ذهاب أهل العلم، الذين تنقص الأرض بموتهم، مع فشو القلم وكثرة الكذب والقول على الله بلا علم، ونطق الرويضة - وهو الرجل التافه الحقير الذي يتكلم في أمور العامة - وهو من العلم خواء، وفؤاده هواء، حتى كثر المتعاملون، وصار الحديث في أحكام الدين مطلق العنان لدى البعض، دون زمام ولا خطام، فخاض البعض في السُّنَّةِ وخاصموا، ولثُوا وَعَجَنُوا، من خلال محادثاتٍ شفهيّة، أو مطارحاتٍ صحفية، أو عبّر كتب النشر المقروءة والقنوات المرئية، فبدأوا يتحدثون في مسلمات في الدين، وثوابت لا تتغيّر، فشكّوا في الربا، وهمشوا الولاء والبراء، فأعموه من حيث أرادوا تكحيله، وتحدّثوا عن المرأة وميراثها ونقصانها عن الرجل، وتحدّثوا عن حجابها وعزلتها عن الرجال وقرارها في البيوت، فكان الذي طُرِحَ ليس من السُّنَّةِ في وِرد ولا صَدْر، وما ذاك إلا لغياب مفهوم خطورة الفتوى، وتدخل الغير في غير فنّه، ولقد صدق الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ حين قال: «ومن تكلم في غير فنّه، أتى بهذه العجائب».

فالواجب إذن جعل تقرير الشريعة، في العلاقات الفردية والدولية، وشؤون الأسرة وتداول المال الخاصّ والعام، وأساليب

الحكم والتحاكم وغير ذلك من شؤون أهل الذكر، أما العمال والفلاحون والصحفيون والمتفهبون فما لهم ولهذه الشؤون؟! إلا إنَّ قلة البضاعة من العلم محنة، فإذا انطم إليها حبُّ التناول على النصوص وتلمس المتشابه، زادت المصيبة وتفاقم الداء، فلا يزال الورم في نفوخ، فلا غزوَ إذاً ألا يصل العطاش إلى ارتواء إذا استقت البحار من الركايا، وألا يثني الأصاغر عن مراد إذا جلس أكابره في الزوايا.

عباد الله، لمستفهم أن يسأل فيقول: قد علمنا خطورة الناعقين في وجه السنة النبوية، وما يتبع ذلك من سوء المغبة، وهوة الحال، ولكن لماذا يفعل هؤلاء هذه الأفاعيل؟ وما هي الأسباب الداعية إلى ذلك؟ فالجواب أن نقول: يصعب بدهة سرد أسباب ذلك في هذه العجالة، غير أننا نؤكد أن من أهمها هو الجهل بالعلم الشرعي، إضافة إلى الخوض في غير التخصص، كما أن من أهم الأسباب ما يلي:

السبب الأول: الهوى وحبُّ الرياسة والشهرة، من باب ما يقال: «خالف تذكر»، وأصحاب الهوى كثر، فلو خُلِّي لهم السبيل لأفسدوا في الأرض؛ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [القصر: ٥٠]، والهوى قتالُ عباد الله، ولربما صار لصاحبه أتباع يُنعقون له ويهرفون بما لا يعرفون، وقد أشار ابن قتيبة رحمته الله إلى

مثل هذا بقوله: «والناسُ أسرابٌ طير يتبع بعضها بعضاً، ولو ظهر لهم مَنْ يدَّعي النبوةَ مع معرفتهم بأن رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء، أو مَنْ يدَّعي الربوبية، لوجدَ على ذلك أتباعاً وأشباعاً». اهـ.

وإشارةً إلى حب هؤلاء للشهرة والرياسة يقول ابن قتيبة أيضاً: «ولكن يمنع من الحق طلبُ الرياسة، وحبُّ الأتباع، واعتقادُ الإخوان بالمقالات». اهـ.

وذكر ابن القيم عن يحيى بن أكثم أنه قال: «قال هارون الرشيد: ما أنبلُ المراتب؟ قلت: ما أنت فيه يا أمير المؤمنين، قال: فتعرف أجلاً مني؟ قلت: لا، قال: لكن أعرفه رجلاً في حلقة يقول: حدثنا فلان، عن فلان، عن رسول الله ﷺ، قال: قلت: يا أمير المؤمنين، أهذا خيرٌ منك، وأنت ابنُ عم رسول الله ﷺ وأmir المؤمنين؟ قال: نعم، ويملك، هذا خيرٌ مني؛ لأن اسمه مقترن باسم رسول الله ﷺ لا يموت أبداً، ونحن نموت ونفنى، والعلماء باقون الدهر». اهـ.

وذكر ابن القيم أيضاً عن ابن العميد الوزير المشهور قوله: «فَوَدِدْتُ فِي مَكَانِي أَنْ الْوِزَارَةَ وَالرِّيَّاسَةَ لَيْتَهَا لَمْ تَكُنْ لِي وَكُنْتُ الطَّبْرَانِي، وَفَرِحْتُ مِثْلَ الْفَرَحِ الَّذِي فَرِحَ بِهِ الطَّبْرَانِيُّ لِأَجْلِ الْحَدِيثِ». إذا عباد الله هذه هي الشهرة الشريفة، وإنما تكون في الأخذ بالنصوص لا في تركها، وفي تحكيمها لا في مخاصمتها...

السبب الثاني: أن بعض المخاصمين في السُّنَّة، يحتجُّون بأنها قد تعارض القرآن، وفي ذلك يقول أبو القاسم الأصبهاني رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «وقول مَنْ قال: تعرض السُّنَّة على القرآن، فإن وافقت ظاهره، وإلا استعملنا ظاهر القرآن، وتركنا الحديث، فهذا جهل؛ لأن سُنَّة رسول الله ﷺ مع كتاب الله تقام مقام البيان عن الله عز وجل، ليس شيء من سُنن رسول الله ﷺ يخالف كتاب الله؛ لأن الله عز وجل أعلم خلقه أن رسول الله ﷺ يهدي إلى صراطٍ مستقيم؛ فقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]». اهـ.

صحَّ عن أحمد وأبي داود والحاكم من حديث عبيد الله بن أبي رافع؛ أن النبي ﷺ قال: «لا أعرفنَّ ما بلغ أحدكم عني حديثٌ من حديثي، قد أمرتُ فيه أو نهيتُ وهو متكى على أريكته فيقول: لا حاجة لي به، هذا القرآن ما وجدنا فيه اتبعناه، وما لم نجد فيه لم نتبعه».

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، مشيراً إلى هذه المسألة: «سيأتي ناسٌ يجادلونكم بشبهات القرآن، فخذوهم بالسُّنن؛ فإن أصحاب السُّنن أعلم بكتاب الله».

اللهمَّ أرنا الحقَّ حقًّا وارزقنا اتِّباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، ولا تجعل الحقَّ مشتبهاً علينا فنضلَّ يا أرحم الراحمين، ونستغفرك اللهمَّ إنك كنت غفَّاراً.

الخطبة الثانية

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه،
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تعظيماً لشانه، وأشهد أن
محمداً عبده ورسوله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله صحبه
وإخوانه.

أما بعد:

فإن ثالث الأسباب عباد الله في مخاصمة السنة يكمنُ في ميل
بعض المخاصمين إلى أهل الغرب والإعجابِ بهم، والحرصِ على
مسايرة ركبهم؛ رغبةً في اللحاقِ بهم، ونزعِ معرّةِ التخلفِ التي
وصموا بها على حد زعمهم، من خلال التقيّد الكامل بما دلّت
عليه النصوصُ الشرعيةُ زعموا؛ مما لا يمكن - بسبب العمل بها -
أن يلتقي هؤلاء وأولئك، مما سبّب تلك المواقف الصارخة، والتي
ولّدتها بعد ذلك العداوةُ للنصوص، فنظروا بعينِ عداوةٍ، لو أنها
عين الرضا لاستحسنوا ما استقبحوه. وهذا الميل الجارفُ لأهل
الغرب، ولّد لدى من يحبهم، شيئاً من المحاكاة في الطبع
والمنهج، وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية إلى أصل هذه المسألة
فقال: «إن الله تعالى جبّل بني آدم - بل سائر المخلوقات - على

التفاعل بين الشيئين المتشابهين، وكلّما كانت المشابهة أكثر، كان التفاعل في الأخلاق والصفات أتم، حتى يؤول الأمر إلى ألا يُميز أحدهما عن الآخر إلا بالعين فقط». ثم يستطرد رَحِمَهُ اللهُ مُؤَكِّدًا على ما نزعمه في هذا الإطار فيقول: «وقد رأينا اليهود والنصارى الذين عاشروا المسلمين، هم أقلّ كفرًا من غيرهم، كما رأينا المسلمين الذين أكثروا من معاشرة اليهود والنصارى هم أقلّ إيمانًا من غيرهم ممن جرّد الإسلام».

ولله دَرُّ الحافظ ابن حجر، ولقد أحسن حيث قال: «وقد توسّع من تأخّر عن القرون الثلاثة الفاضلة، في غالب الأمور التي أنكرها أئمة التابعين وأتباعهم. ولم يقتنعوا بذلك حتى مزجوا مسائل الديانة بكلام اليونان، وجعلوا كلام الفلاسفة أصلًا، يردون إليه ما خالفه من الآثار بالتأويل ولو كان مستكرهاً، ثم لم يكتفوا بذلك حتى زعموا أن الذي ربّوه هو أشرف العلوم وأولاها بالتحصيل، وأن مَنْ لم يستعمل ما اصطَلحوا عليه فهو عامي جاهل، فالسعيد مَنْ تمسّك بما كان عليه السلف واجتنب ما أحدثه الخلف». اهـ.

ونقتم برابع الأسباب عباد الله: وهو تعظيم العقل وإكباره، حتى يكون هو الحكم على نصوص السُنَّة لا العكس، وهذه لوثة نعوذ بالله من تبعات قسامتها، وشمالة كفانا الله شرّ غوائلها، وفي

مثل هؤلاء يقول الفاروق رضي الله عنه: «إياكم وأصحاب الرأي؛ فإنهم أعداء السنن، أعتبهم الأحاديث أن يحفظوها، وتفلفت منهم فلم يعوها؛ فقالوا بالرأي فضلوا وأضلوا». ويقول ابن تيمية رحمته الله: «والداعون إلى تمجيد العقل إنما هم في الحقيقة يدعون إلى تمجيد صنم سمّوه عقلاً، وما كان العقل وحده كافياً في الهداية والإرشاد، وإلا لَمَا أرسل الله الرُّسُلَ». اهـ.

ويقول القرطبي رحمته الله: «إن الله سبحانه وتعالى لم يبين أمور الدين على عقول العباد، ولم يعد ولم يُوعِدْ على ما تحتمله عقولهم ويدركونه بأفهامهم، بل وعد وعداً بمشيئته وإرادته، وأمر ونهى بحكمته، ولو كان ما لا تدركه العقول مردوداً لكان أكثر الشرائع مستحيلاً على عقول العباد». اهـ.

وقد روى أبو داود وغيره أن علياً رضي الله عنه قال: «لو كان الدين بالرأي، لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه، وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسخ على ظاهر خفيه».

إذاً العقل وحده غير كافٍ في معرفة الحق والنور، بل لابد من إخضاع العقل للشرع، على وجه التسليم به والإيمان بمراده؛ كما قال تعالى: ﴿ءَأَمَّنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧].

يقول ابن القيم رحمته الله: «إِنَّ عَقْلَ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَكْمَلُ عَقُولِ

أهل الأرض على الإطلاق، فلو وزن عقله بعقولهم لرجح بها كلها، وقد أخبر سبحانه أنه ﷺ قبل الوحي لم يكن يدري الإيمان كما لم يكن يدري الكتاب؛ فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

اللهم صلِّ على محمد...

* * *

العدل بين مفهوم الإسلام ومفهوم أدعياء الحضارة المعاصرة

الخطبة الأولى:

الحمد لله الكبير المتعال، غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول، لا إله إلا هو إليه المصير، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى أصحابه والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فأوصيكم أيها الناس بتقوى الله سبحانه، ومحاسبة أنفسكم قبل أن تحاسبوا، فالיום عمل، يتلوه موت ليس بعده عمل؛ ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١].

أيها الناس، في عام الفتح، سنة ثمان من هجرة المصطفى ﷺ، دخل رسول الله ﷺ مكة، تعلقه السكينة عزيزاً منتصراً، وهو يردد قول الله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، دخل صلوات الله وسلامه عليه المسجد الحرام، ثم

أخذ مفتاح الكعبة من عثمان بن طلحة، ثم جلس في المسجد، فقام إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومفتاحُ الكعبة في يده، فقال: يا رسول الله، اجْمَعْ لَنَا الْحِجَابَةَ مَعَ السَّقَايَةِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْكَ، فقال رسول الله ﷺ: «أين عثمانُ بنُ طلحة؟» فدعي له، فقال له: «هاك مفتاحك يا عثمان؛ فإنَّ اليومَ يومُ وفاءٍ وبرٍ؛ فخرج رسول الله ﷺ وهو يتلو: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨]، لا إله إلا الله، والله أكبر، انتصارٌ ورفعةٌ واقتدار، على كفر وبغي ومعاندين، كل ذلك لم يكن ليُجْعَلَ النبي ﷺ ينسى أنه إنما بعث بالعدل والقسط حتى في حال النصر والغلبة، إنه العدل الذي ميَّز الله به أهل الإسلام، حيث جعلهم عدولاً خياراً بين سائر الأمم؛ ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، أي: عدولاً خياراً.

لقد أمرَ الله بالعدل ومدحَ أهله، ونهى عن الظلم وذمَ أهله ومواقعيه، فيما يزيد على ثلاثمائة وخمسين آية من كتاب الله.

العدل أيها المسلمون هو ميزانُ الأرض، والظلمُ والجورُ ما هما إلا معولاً هدم وخراب لكل دابة تدب عليها، وأعظم المظاهر العملية للظلم: هو العدوان والقهر، وأشنع صور العدوان وأغلظها: ما كان فيه سفك الدماء، والإفساد في الأرض، والعلوُّ فيها، وجعلُ أهلها شيعاً، وضعيفهمُ نهياً لقويهم، على صورة صراع أهل الغاب.

والعدل في الحضارة المعاصرة ذات البريق اللامع، كغيره من القيم الأخلاقية، تحدده النسبية، مع القابلية لأن يوزن بميزانين، أو يُكالم بمكيالين، عند مَنْ لم يؤمنوا بالله ربّاً وبالإسلام ديناً ومحمد ﷺ نبياً ورسولاً.

أما في الإسلام: فالعدل قيمة مطلقة، لا مجال للنسبية فيها، له ميزان واحد يعد هو الأدنى في معاملة المسلم مع غيره، حبيباً كان أو بغيضاً، صديقاً أو عدواً، مسالماً أو محارباً؛ كلُّ ذلك إعمالاً لقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلٰٓىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوْا أَعْدِلُوْا هُوَ اَقْرَبُ لِلتَّقْوٰى﴾ [المائدة: ٨]، وإعمالاً لقوله جلَّ شأنه: ﴿يٰۤاَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوْا كُوْنُوْا قَوّٰمِيْنَ بِالْقِسْطِ شٰهَدٰٓءَ لِلّٰهِ وَلَوْ عَلٰٓىٰٓ اَنْفُسِكُمْ اَوْ اَوْلَادِيْنَ وَالْاَقْرَبِيْنَ﴾ [النساء: ١٣٥]، فلا معيار إذاً إلا للعدل؛ فهو كما يقول ابن كثير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «العدل مطلوبٌ من كل أحد في كل حال»؛ ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ اَنْ صَدُّوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ اَنْ تَعْتَدُوْا﴾ [المائدة: ٥]، فهى الله المسلمين أن يعاملوا حتى قتل هؤلاء بغير العدل.

ومن هنا بدا ظاهراً جليّاً، أثر هذه التربية الإسلامية على عموم الأمة المسلمة عبر التاريخ في سلمهم وحرهم؛ ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: المؤمن إن قَدَرَ، عدلٌ وأحسن، وإن قُهِرَ وغُلبَ، صبر واحتسب؛ كما قال كعب بن زهير أمام النبي ﷺ منشداً:

ليسوا مفاريحَ إن نالتَ رماحُهُمْ يوماً وليسوا مجازيعاً إذا نيلُوا
 وسُئِلَ بعضُ العربِ عن شيءٍ من أمرِ النبي ﷺ؟ فقال: رأيتُه
 يَغْلِبُ ولا يبطرُ، ويُغْلَبُ فلا يضجرُ. وما سمي من سمي من كفار
 قريش بالطلاق إلا حينما قال لهم في أوجِ غلبته، وذكرياتُ طردهم
 له وإيذائهم لعصبته تجولُ في خاطره، ومع ذلك لم يتفوهَ إلا قائلاً:
 «اذهبوا؛ فأنتم الطلقاء».

أيها المسلمون، إنه من أجل إيضاح قضية العدل، وتجلية
 الممارسة الحقيقية لها في هذا الزمن، فلا بد أن نورد مقارنةً بين
 سلوكين، هما مَحَطُّ حديث الساعة؛ إنها المقارنةُ بين السلوك
 الحربي لجيوش المسلمين وغازاتهم، وبين سلوكِ جيوش غير
 المسلمين، ومنهم بعضُ جيوش الحضارة المعاصرة. وذلك من
 خلال منطقة واحدة، تعرّضت في خلال ألفي سنة تقريباً لمرات
 ست من الغزو الخارجي، تلكم المنطقة هي أرض مسرى رسول الله
 ﷺ، إنها فلسطين، وبيت المقدس. فلقد تعرّضت لهجوم الفرس،
 الذين أثمروا إحراق المدينة ونهبها وقتل السلطان فيها، وإهانة
 المقدسات، وبعد أقلّ من عشر سنين، هاجم البيزنطيون هذه
 المنطقة وانتصروا على الفرس المحتلين، فانتقموا منهم ومن اليهود
 الذين كانوا ساعدتهم الأيمن شر انتقام، ولم يكن سلوك البيزنطيين
 آنذاك أقلّ وحشية من سابقهم!!! ثم بعد ما يقارب العشر سنين،

انتصر المسلمون ودخلوا المدينة فاتحين، فلم يسفكوا فيها دمًا، ولم ينهبوا مالاً، ولم يقتلوا شيخاً ولا طفلاً ولا امرأة، ثم صدرت إبان ذلك الوثيقة العُمريّة المشهورة في زمن الفاروق رضي الله عنه، بحيث إن مَنْ يقرؤها ويرى ما فيها من الإنصاف والعدل والسماحة، لَنَ يظن أنها بين جيش منتصر وآخر مهزوم شر هزيمة.

وبعد عدة قرون من الزمن اجتاحت حملة صليبية أرض المقدس، فانتصرت على أهلها وكان معظمهم من المسلمين، ولكن ماذا كان السلوك الحربي لأولئك الغزاة؟ إنها كلمات قالها قائد تلك الحملة الصليبية، واصفاً بأن خيولهم كانت تخوض في دماء المسلمين. ويصفها مؤرِّخ أوربي آخر فيقول: لقد انحدرت جموع الصليبيين في طرقات بيت المقدس، تحصد الأرواح حصداً رجلاً ونساءً، شيوخاً وأطفالاً حتى بلغوا عشرة آلاف قتيل، وبعد أقلّ من قرن من الزمن ينتصر جيش صلاح الدين على الصليبيين في موقعة حطين الحاسمة، وتفتح أمامه أبواب بيت المقدس، ويدخلها المسلمون منتصرين غانمين، مظهرين من ضروب السماحة والعدل والرحمة في حال الحرب، ما أجبر مؤرِّخي الغرب على الاعتراف بذلك والإشادة بها.

ثم تأتي الطامة الأخرى والوحشية العمياء، في العقد الثاني من القرن الماضي ليدخل جيش الانتداب الأوربي أرض فلسطين مع

الغزاة اليهود، فيوقع اليهود فيها مجازر وحشية، وألوان عدوان، كان من أشعها جرماً وأعظمها فتكاً مذبحه دير ياسين المشهورة، والتي وصفها أحد جزّاريها القادة بقوله: كان لهذه العملية نتائج كبيرة، فقد أصيب الفلسطينيون بعد انتشار أخبار دير ياسين بالهلع، فأخذوا يفرّون مذعورين، فلم يبق على أرض فلسطين إلا ما يقارب مائة وستين ألفاً بعد أن كانوا يزيدون على ثمانمائة ألف. ثم يقول هذا الجزار: لولا مذبحه دير ياسين، ما يمكن لإسرائيل أن تظهر إلى الوجود.

ولم يكن هذا السلوك عباد الله، منافياً لتصور الحضارة المعاصرة للعدل، ولأجل هذا منحته جائزة (نوبل للسلام).

إذاً: هذه المقارنة عباد الله بين سلوك الجيوش المسلمة والجيوش الكافرة، تدل على ما شهد به أحد كبار مؤرخي الحضارة المعاصرة: بأن التاريخ لم يشهد فاتحاً أرحم من المسلمين.

ألا إن المسلمين دائماً هم الضحية ضد أي عدوان غاشم، ولم يعرف يوماً ما، أنهم كانوا هم المعتدين على أحد، بل حتى في هذا القرن المعاصر، فهذه هي فلسطين، والجزائر، وليبيا، وتونس، ومصر، والسودان، وغيرها، لم يكن أهلها قطّ هم المعتدين، بل كان المستعمر من أرباب الحضارة المعاصرة هو الصائل المعتدي.

ومن باب الأسف الشديد، أن ينجح أرباب الحضارة المعاصرة في اعتماد إعلامهم على غفلة المجتمعات المسلمة، وضعف ذاكرتها في استيعاب الأحداث الماضية، والسجلات المشينة، في النظرة الواقعية لمفهوم العدل عند الحضارة المعاصرة، من خلال سلسلة من الغزو والاعتداءات والبطش، ولو كانت أحداثاً لم تجفّ دماؤها بعد؛ وإلا فلماذا توصف المقاومات المسلحة في بعض الدول الإسلامية بادي الرأي من قبل رواد الحضارة المعاصرة، على أنها حركات مقاومة ضد المعتدي، أو جيوب انفصالية في وجه الظالم، ثم بين غمضة عين وانتباهتها تنقلب نظرة الحضارة المعاصرة، فتسميها قوى إرهابية مبرزة يجب أن تتأصل شأفتها، وتوآد في مهدها.

الحضارة المعاصرة عباد الله، رسمت لنفسها صورة صناعية تقنية، فاقدة للتقوى، أو لمفهوم التراحم والعدل الإنساني على أقل تقدير، فتحولت إلى حضارة استكبارية بطشية، تركت الجدل بالحسنى، وجادلت الناس على متن المقاتلات ورؤوس المدرعات، حتى جعلوا من ذواتهم أشباحاً مرهوبة، وجعلوا حقوق من سواهم من الناس لبانات ممضوغة، يلفظونها بعد العلك بين مخالبي القوى الباطشة، وهي لا تريد من هذه المستعمرات الشاسعة إلا أن تجعلها حقول استغلال، ومن ثمّ اتخاذ أهلها خدماً

يعملون ويكدحون، لِيَشْقُوا هم ويسعد الغازي المعتدي. ولأجل هذا نجحت ثورة البركان العسكري في الحضارة المعاصرة في أن تجعل معظم العالم الإسلامي اليوم يألف ألواناً من الاعتداءات السياسية والاقتصادية، حتى لقد أصبح الأمان لديهم شبه سراب بقية لا يبلغه أحد.

ومما لا شك فيه: أنه كلما قلت صحوة المسلمين، ازداد الوكْهُ إلى هذا السراب، والتشبُّثُ به، ولقد صدق الله: ﴿إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدَأَ﴾ [الكهف: ٢٠]، ولأجل هذا، احمرَّت جوانب تاريخ هذه الحضارة بدماء الضحايا المسفوكة؛ فقاتلت الشعوب المتطلّعة إلى حريتها، وحرَمَتها من أسباب العلم والقوة والنهوض.

ولا يفرنِّكم عباد الله: ما تبثُّه الحضارة المعاصرة بين الحين والآخر، من شعارات الإخاء والعدل والحرية في التدثُّين، نعم لقد فصلوا هذا الشعار للعالم، إلا للمسلمين، وإن كان ولا بد، فلا أكثر من أن يكون مقطوع الصلة بكرامة الإنسان، التي أراها الله له، من خلافة الأرض وعبادة الله فيها، وإقامة العدل في أرجائها، وإن كان ثمَّ زيادةً على ذلك، فعلى أن يكون الإسلام محايداً بإزائهم، مسايساً لهم، أما أن يؤيِّد الدين حقوق الإنسان، ويأمر الناس أن يدخلوا في السلم كافة فلا!! لأن الإسلام عندهم هو وحده الذي

يجب إبعاده عن الحياة العامة، أما ما عداه من الديانات والنحل، فليقم باسمها دول، ولترسم على خطاها سياسات، ولأجل هذا لاطفوا عبدة الأوثان بروح أطيب ونفس أهدأ. فأى حضارة هذه بربكم؟! وبهذه الصورة لم يبعد النجعة، أولئك المتخصصون في العلاقات الدولية حينما قالوا: إن مثل هذه التصرفات مؤسس على مبدأ «المصلحة الوطنية والقوة» فهو كمبدأ العلاقة مع الآخر، لدى قطاع الطريق، أو لدى أي تجمع مفترس في الغابة.

وما الضمانات التي تمثلها موثيق العدل العالمية المزعومة، للمحافظة على أمن جميع الشعوب، إلا فيما لم يكن المسلمون أو العرب فيه طرفاً في صراع ما، أما إذا كان الحيف واقعاً على شعب مسلم، أو قطر عربي، فقد أمسى للقضية لون آخر؛ فهل يهزؤ بالمنكوب حينئذٍ إذا أساء بالحضارة ظنه؟!

إن مثل هذه الممارسات، هي التي جعلت عدداً ليس بالقليل، من عقلاء الحضارة المعاصرة، لا يزالون يطلقون صيحات النذارة لأقوامهم، ويحذرونهم سوء المصير، فهل يعي المسلمون ذلك؟! ألا إن من سنن الله تعالى أن يدع هذه الحضارة تحصد ما تزرع، وتعرف طعم الجذاذ عند الحصاد؛ فما طار طيرٌ وارتفع إلا كما طار وقع ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [الرعد: ٣١].

الخطبة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.
أما بعد:

فإن المشاهد لواقع الحضارة المعاصرة اليوم، ليرى أن لانحرافها في تصورهما للعدل نتيجةً بدهية لا مناص منها، ألا وهي تشبُّعُ روحها بالأنانية والعدوانية، وإرادة العلو في الأرض، وإهلاك الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد.

ولا أدل على هذه النزعة الشاذة، مما يعد ثمرة هذا الواقع، وذلك من خلال إنتاج هذه الحضارة، من أسلحة الدمار الشامل، ما بلغ - كمية وكيفية - مبلغاً يجاوز سلع الاحتياجات البشرية للطعام والشراب بأضعاف مضاعفة، ولقد عُلِمَ أن دولة من دول هذه الحضارة، قد بلغ إنتاجها من أسلحة الدمار الشامل، ما يكفي لإفناء العالم ثلاثة وثلاثين مرة.

وقبل عقود من الزمن، شيعت دولة كبرى موكباً من التواييت الخرسانية، لتلقى في قاع المحيط، حيث تضم وسطها شحنات مروعة، من الغازات السامة بعد أن رأت هذه الدولة أن لديها فائضاً من هذا السلاح، يكفي لإفناء العالم ست مرات.

وإن تعجبوا عباد الله فعجبٌ تلك النزعةُ الشريرة في هذه الحضارة؛ إذ كان يكفيها شرًا أن تنتج ما هو كفيل بإفناء العالم مرة واحدة، وهنا مكنم الجبروت والعدوانية في الحضارة المعاصرة، فما ذنب العالم في أن يدمر أكثر من ثلاثين مرة، ألا يكفي بالحريين العالميتين مثالاً لهذا التصور المنحرف خلال ربع قرن، أثمرتا من خلاله ما يعد بالملايين من القتلى؟!!

عباد الله، إنَّ كلامنا هنا، ليس المقصود منه الهجاء والتشفي في كشف عورة الحضارة المعاصرة؛ إذ الأمر أبعد من ذلك وأهم، وهو أن صيحاتٍ تعالت، ورجعَ صدى يسمع في الأقطار الإسلامية، أثمر التأثير بهذه الحضارة المعاصرة وزخرفها، فرأينا وسمعنا من بين ظهرانينا تبريرَ الظلم والعدوان من قبل تلكم الحضارة، وكذا تبرير ازدواجية معايير العدل عندها، في حين أنه كان المرجو في مقابل ذلك أن ينكشف للمسلمين هذا الزيف في تصوير العدل، وأن تتضح لديهم المعاني الرئيسة لمفهوم العدل عند تلك الحضارة، وأنه ليس هو العدل الذي بمعنى الإنصاف، ولكنه العدل الذي هو الميل والانحراف، وهذا ما يضع على كل عاتق نصيبه من المسؤولية أمام الله من شعوب وحكومات، وذلك بتدارك الأمر من خلال الرجوع إلى الله، ثم بالطرح الإسلامي الصحيح للتربية الواعية عبر المجالات التربوية، ومناهج التعليم وتوعية الأجيال بحسنات الإعلام لا بسيئاته؛ ليقف المسلمون موقف

العاقل أمام طوفان الحضارة المعاصرة الجارف، وأن يعلموا: أن الحق لا يُزري به أن تمرَّ عليه سنون عجاف، ولا يضيع جوهره لأن عللاً عارضة اجتاحت أهله، ويعلموا: أن الباطل لا يسمى حقاً لأن دورة من أدوار الزمن منحته القوة، وأقامت له دولة في الأرض؛ إذ لم تتحوّل جرائم فرعون إلى فضائل؛ لأنه ملك سلطة الأمر والنهي، واستطاع قتل الأبناء واستحياء النساء، فلا ميزان للجميع إلا بمدى قربهم من الله أو بعدهم عنه؛ كما يجب علينا جميعاً أن نتجرع الواقع المرير ولو لم نستسغه؛ حتى نواجه الغارة الشعواء، ونستبين أغراضها الكامنة في جعلنا قصة تروى وخبراً كان، قبل أن يجتمع علينا الثالوث الخانق، وهو الهدم الروحي، والهدم التاريخي، والهدم العسكري، والذي غايته أن يتلاقى على أنقاضنا.

فيا ترى هل يضيع الحق في حومة هذه الدائرة العمياء؟! كلا!! فلقد مرَّ أباًؤنا الأولون بمثل هذه المحن، ثم خرجوا منها موفورين، بعد أن أصلحوا أنفسهم، وأصلحوا ما بينهم وبين الله بالنصح الجاد، والتصحيح الواعي؛ ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١]؛ وليأتين زمن تملأ فيه الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً؛ وذلك بلسان الصادق المصدوق ﷺ؛ ﴿لَا يَغْرُنَّكَ تَلَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٦﴾ مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦، ١٩٧].

اللهم، صلِّ على محمد...

مشوّشات العطل

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له ومن يضلّل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد:

فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وعليكم بالجماعة؛ فإن يد الله على الجماعة، ومن شذَّ عنهم شذَّ في النار، من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعص الله ورسوله فقد غوى، ولن يضر الله شيئاً، بل لا يضرُّ إلا نفسه.

فيا أيها المسلمون، في مثل هذه الأيام البازغة، يتجاذب فقام

من الناس أطراف الحديث، عن أمر مهم يشترك في مطارحته معظم المجتمعات بمجموعها، كما أنّ الألسنة تلوك الحديث عنه، على اختلاف في مشاربيها، إيجاباً وسلباً، خلافاً وضدّاً؛ لأنه في الحقيقة أهل للحديث عنه، وكثرة المطارحات فيه، عبر مجالات متنوعة، كالمنابر مثلاً، والأندية والإعلام في بعض صورته، ذلكم عباد الله، هو الحديث عمّا يسمّى بالعطل الصيفية، أو الإجازات السنوية، والتي أصبحت حقبةً من الدهر لا يمكن الاستغناء عنها بوجه من الوجوه، بل لقد أجمعت الأقطار بأسرها على أن هذه المرحلة جزء من الصبغة الواقعية على مضمار الحياة السنوية، والتي لا يمكن تجاهلها على أرض الواقع، حتى إنها قد فرضت نفسها، على أن تكون مصنّفة ضمن البرامج المنظمة، في الحياة السنوية العامة، وهي غالباً ما تكون غوغائية تلقائية ارتجالية، أي: أنها مع الإحساس بها على أنها واقع لا بد منه، إلا أنها ينقصها الهدف السليم، وتفتقر إلى الضوابط الزمانية والمكانية، فضلاً عن الضوابط الشرعية، وما يحسن إبانها وما يقبح.

إن حاجة الإنسان إلى الراحة بعد الكد، وإلى الهدوء بعد الضجيج، لهو من الأمور المسلّمة، والتي لا ينكرها إلا غرّاً مكابراً؛ فالإسلام في حقيقته لم يفرض على الناس أن يكون كل كلامهم

ذِكْرًا، ولا كل شرودهم فكراً، ولا كل أوقاتهم عبادة، بل جعل للنفس شيئاً من الإراحة والترويح، المنضبطين بشرعة الإسلام، بل إن حنظلة بن عامر رضي الله عنه، قد شكّا إلى النبي ﷺ تخلل بعض أوقاته بشيء من الملاطفة للصبيان والنساء؛ فقال له ﷺ: «ساعة وساعة» [رواه البخاري ومسلم].

وقد ذكر ابن عبد البر؛ أن عليّاً رضي الله عنه قال: «أجمّوا هذه القلوب، والتمسوا لها طرائف الحكمة؛ فإنها تملُّ كما تمل الأبدان».

ويقول ابن الجوزي: «لقد رأيت الإنسان، قد حمل من التكاليف أموراً صعبة، ومن أثقل ما حمل مداراة نفسه، وتكليفها الصبر عما تحبُّ، وعلى ما تكره، فرأيتُ الصوابَ قَطَعَ طريق الصبر بالتسلية والتلطف للنفس».

بهذا عباد الله يؤخذ مفهومٌ عامٌّ، حول تخلل جد المرء واجتهاده، شيءٌ من الراحة وسكون الحركة الهائجة.

ولكن السؤال الذي يطرح نفسه حول واقع كثير من المسلمين اليوم هو: إلى أي مستوى يصل إليه معاشرو العُطلِ الصيفية، وما هي الآلية الإيجابية التي تستثمر فيها الأوقات، وتراعى فيها قائمة الأولويات، وما هو المفهوم الحقيقي للعطلة؟ أيكون في النوم؟ أم هو في اللهو؟ أيكون في الأفراح؟ أم هو في السياحة؟ أم هو في

الإخلال بالنواميس الكونية من حيث انقلاب الليل نهاراً والنهار ليلاً؟ أم في المطالعات الحثيثة لما تبثه وسائل الإعلام الفضائية، أو شبكات ما يسمى بالإنترنت الغازية؟ إنها أسئلة متعددة، مصدرها فؤاد كل مؤمن ومؤمنة، ينازعهم فيها الضمير الحي المتيقظ، والغيرة على الفراغ والصحة والشباب.

إن مثل هذه العطل برمتها، لهي أحوج ما تكون إلى دراسات موسّعة تقتنص الهدف الواعي، وتستثمر الفرص السانحة، إلى طريقة مثلى، للإفادة منها في الإطار المشروع، من خلال دراسة الأنشطة الترويجية، الإيجابية منها والسلبية، والربط بينها وبين الخلفية الشرعية والاجتماعية، للطبقة الممارسة لهذه الأنشطة المتنوعة، ومدى الإفادة من الترويج والإبداع، في الوصول إلى ما يقرب المصالح ولا يبعدها، وما يرضي الله ولا يسخطه، وتحليل الأفعال وردود الأفعال، بين معطيات المتطلبات الشرعية والاجتماعية، وبين متطلبات الرغبات الشخصية المشبوهة، وأثر تلك المشاركات في إذكاء الطاقات والكفاءات الإنتاجية العائدة للأسر والمجتمعات بالنفع العام في الدارين.

أيها المسلمون، إنه لأجل أن تعرف المجتمعات الواعية، مدى اهتمامها بأفرادها، وإعمالها للطاقات المهدرة، في صفوف شبابها وفتياتها، فليُنظر إلى مواقفها مع العطل، وأوقات الإجازات وما

توليه من الدراسات الجادة، لعلاج الكم الهائل من السليات عبر هذا العطل، ولو أردنا أن نستطرد في حصر الممارسات الصيفية في كثير من المجتمعات، لطال بنا المقام، غير أن ما لا يدرك كله لا يترك كله، والجزء قد يدل على الكل من باب اللزوم.

ولأجل هذا: فإن من المستحسن أن نلقي شيئاً من الوضوح والمصارحة، حول ما تمتاز به هذه العطل من الممارسات، التي تفتقر إلى الصحة، وتتسلل عن الضوابط الشرعية لوأذاً.

فمن هذه الممارسات الخاطئة في العطل: تلکم العادات المقيتة، وذلك الانقلاب المشين، في النظرة إلى الناموس الكوني بالنسبة لليل والنهار؛ إذ إننا نرى ممارسات جماهير الناس، تكمن بداهة بادي العطلة في انقلاب الليل نهراً والنهار ليلاً، فنجد نهارهم في دجنة، وليلهم جهورياً، وألذ ما عندهم سمر العشاق، أو شغل المشغولين بالفراغ؛ تجد عبادتهم نزرأ، وغوايتهم غمرأ، يقضون الليل في القيل والقال، والضجيج والطنين، والعزف والطرب، فيصعقون الأسماع، ويخطفون الأبصار، حتى تمتد ألوان لهوهم إلى أوقات متأخرة من الليل، ولسان حالهم يقول: يا ليل هل لك من صباح، أم هل لنجمك من برآخ، ضلّ الصباح طريقه والليل ضلّ الصبأخ، فلا يرخي الليل سدوله، إلا وقد جرّ اللهو ذبوله.

وبذلك كله تفتقد النعمة العظمى التي جعل الله بها ﴿أَيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٧]، وبذلك أيضاً تفتقد القشعريرة في استشعار نعمة الله تعالى علينا في تعاقب الأجدئين وهما الليل والنهار؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ آيَاتٍ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَوْ لَاسَمْعُونَ﴾ (٧١) ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ آيَاتٍ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص: ٧١ - ٧٣].

عباد الله، ومن الممارسات الخاطئة في العُطل: تلکم العادات الممقوتة، والرتابة المتكررة، والتي تشرئب لها نفوس الكثيرين لاسيما في الأوساط النسائية، ألا وهي مناسبات الأفراح، وما أدراكم ما هي، والتي يجلب عليها بالخييل والرجل والأموال والأولاد، إعدادات مكثفة، وتشبث بكل أنواع التهيؤ لتلك الأفراح، إسرافٌ وتبذير، يكتنف جملةً من الأفراح إلا ما رحم الله، إسرافٌ في أماكن الأفراح، مغالاةٌ في أجرتها، وتباهٍ في جودتها، تسوُّقٌ وتسوُّقٌ وتسوُّقٌ، مشوبٌ بتبرجٍ وسفور، كل ذلك سابق لجميع هذه المناسبات، تفاخرٌ في الملبس، وتكاثرٌ في المأكل والمشرب، ناهيك عن غلاء المهور، الذي أودى بكثير من الناس

إلى الازدواجية في الحياة، فثلة من الناس يعيشون وكأنهم في عصر مضى، وثلة أخرى منهم كأنها تعيش في عصر لم يأت بعد، فكيف إذا يلتقي الزوجان وبينهما عصر مديد، الشاب يعيش كفافاً، وأهل بعض الفتيات يعيشون إسرافاً، الشاب يريد الزواج، وبعض أرباب الفتيات يريدون الفخر والمباهاة.

جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني تزوجت امرأة من الأنصار، فقال له النبي ﷺ: «على كم تزوجتها؟» قال: على أربع أواق - يعني مائة وستين درهماً - فقال له النبي ﷺ: «على أربع أواق؟! كأنما نتحتون الفضة من عرض هذا الجبل، ما عندنا ما نعطيك...» الحديث [رواه مسلم].

وثمة ممارسات أخرى خاطئة، تفتح مصراعيها إبان تلکم العطل الصيفية، والإجازات السنوية، فها هي جملة من القنوات الفضائية، تعد للعطل عدتها، وتتأهب تأهب الجند لمنازلة العدو، تنافس في العروض، بذلٌ لصور الإغراء والافتتان، مشاهدٌ تند الحياة وتبرز القحة، بثٌ مكثف لما ينقض عُرى تلك الأخلاق والسماوات الحميدة التي قد يتلقاها الدارسون طوال العام الدراسي، فتكون تلکم القنوات معاول هدم ماضية، تُفتت ما بقي من الصخر الصلد في النفوس، برامجٌ مطلقة، لا تحكمها رقابة الواعين، ولا ضمائر ذوي الغيرة والإدراك للزئین والشين، تجتث آثارها جذور

المجتمع من أصولها، شعرنا جميعاً بذلك أو لم نشعر، بل يبث من خلالها ما يكون من دواعي الإخلال بالأمن، سواء أكان أمناً حسيّاً، أو أمناً فكريّاً؛ إذ تتحكم اللصوصية على أرض الواقع.

والذي ينبغي علينا هنا أن نعلمه جميعاً: هو أن لصوص الفكر والعقول ليسوا أقل خطورة من لصوص الأموال والأعراض، وكلاهما مدعاة للسهل والفضى، المفزّين للممارسات الشاذة، والإخلال الأمني المرفوض بداهة، والمهدّد لسفينة الأمان الماخرة!!! الفكر الإعلامي هو مقبض رحى المجتمعات المعاصرة، ولب توجيهها الفعّال، به يبصر الناس، وبه يغربّون، به تخدم قضايا المسلمين وتنصر، وبه تطمس حقائقها وتهدر، إذا أردت أن تعرف الأمة الجادة من المستهترّة، فانظر إلى إعلامها، فما يكون فيه من كمال واعتدال، فإنه يكون كمالاً واعتدالاً في بنية أمنها الإعلامي، وقُرّة عين لمجموع أفرادها، وما يطرأ عليه من ثقب وأوخاز، فإنه يكون مرضاً للأمة واعتلالاً، يوردانها موارد الهلكة والتهيه.

ألا فاتقوا الله معاشر المسلمين، وحادار حذار من أن تكون هذه العطل الصيفية مآدبات شيطانية، أو صفحات سوداء في سجل العام، الحافل بالعمل والنشاط والحركة، والبعد عن أجواء الضياع والتهوّر، والإلقاء بالنفس إلى التهلكة؛ ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ

غَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا ۖ [النحل: ٩٢]، واستعيذوا بالله من الحور
 بعد الكور؛ كما كان النبي ﷺ يستعيذ بالله من ذلك.
 قد قلت ما قلت إن صواباً فمن الله، وإن خطأً فمن نفسي
 والشيطان.

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله العلي القدير، اللطيف الخبير، يعلم خائنة الأعين
وما تُخفي الصدور، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى
آله وأصحابه ومن سار على طريقهم وأتبع هداهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإن هناك أمراً، هو من الأهمية بمكان؛ إذ لا يقل عن
سابقه، من الممارسات الخاطئة، والمفاهيم المغلوطة في ثنايا هذه
العطل الصيفية، ألا وهو ذلكم التجوال والتطواف، في أنحاء العالم
المترامي الأطراف، من خلال السفر إلى بلاد غير المسلمين، أو
إلى بلاد تشبهها، وإن تسمت بالإسلام أو بما يسمى في العرف
المعاصر: (بلاد السياحة الحرة).

ومن المعلوم بداهة أن المرء الجاد الخائف من ربه ووليِّ
نعمته ليس لديه متسع من الوقت أو الجهد لينفقه فيما يعود عليه
بالوبال والخسران، وعلى العكس من ذلك، فإنَّ فتاماً من الناس
حرَّضوا على تضخيم الترويح على النفس والبدن، فظنوا بسبب
ذلك أنهم مسجونون في بيوتهم وبلدانهم، استصغروا ما كانوا

يكبرون من قبل، واستنزروا ما كانوا يستغزرون، حتى ألقوا مبادئ السياحة، بقطع النظر عما يعترئها من الاطلاع على السخف والوقاحة، ومشاهدة ما حرم الله ورسوله من كفر وفسق، وعري وسكر، على ضفاف الأنهار، وشواطئ البحار، في بلاد الكفار.

والعاقل من السياح والذي يعرف أن عليه واجبات وفرائض، فإنه قد يضعف في أدائها، أو يؤديها في تخوف على وجه المسارقة والاستحياء، أو يقيم صلواته وسط أماكن الصخب والعطب، فيفقد لذة العبادة والسكينة والطمأنينة، التي لا وجود لها وسط تلك الأماكن الملتهبة، والله كم أحسن أبو حامد الغزالي في وصفه لأمثال بعض السياح بقوله: «وأما السياحة في الأرض على الدوام، فمن مشوشات القلب، والبعض قد استخفوا عقولهم وأديانهم، من حيث لم يكن قصدهم إلا الرياء والسمعة وانتشار الصيت، فلم يكن لهم حكم نافذ، ولا تأديب نافع، فاتخذوا المتنزّهات، وربما تلقفوا ألفاظاً مزخرفة من أهل الطامات، فينظرون إلى أنفسهم وقد تشبهوا بالقوم في لفظهم وعاداتهم، ومن آداب ظاهرة في سيرتهم، فيظنون بأنفسهم خيراً وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، ويعتقدون أن كل سوداء تمرّة، فما أغزر حماقة من لا يميّز بين الشحم والورم؟! فهؤلاء بُغضاء الله؛ فإن الله يبغض الشاب الفارغ، ولم يحملهم على السياحة إلا الشباب والفراغ». انتهى كلامه ﷺ.

وقد نقل ابن مفلح عن ابن الجوزي رحمهما الله قوله: «السياحة في الأرض لا لمقصود كعلم أو دعوة أو نحو ذلك: منهياً عنه. وقال الإمام أحمد: ما السياحة من الإسلام في شيء، ولا هي من فعل النبيين ولا الصالحين؛ ولأن السفر يشتم القلب. وقد سئل مرة: ما تقول في السياحة؟ قال: لا، الترويح ولزوم المسجد». ألا فاتقوا الله معاشر المسلمين، وانظروا في واقعكم اليوم، تجاه هذه العطل والإجازات، وليكن لكم مواقف جادة، في إيجاد الكيفية المناسبة للإفادة منها، وحفظ الأوقات فيها، وجعل الحديث عنها لا يقل أهمية عن أي أحاديث أخرى في برامج الناس العامة، وظواهرهم المستشرية؛ لأن البيت والمجتمع والإعلام، كلهم خاضعون لحدود الله، ومتى تجاوزت الأمة في بيتها وإعلامها هذه الحدود يوماً ما، فما قدرت الله حق قدره.

ولأجل أن ندرك أهمية هذه المسألة، فإنه يجب علينا أن نعلم أن مواعي هذه العطل على اختلاف مشاربهم، لن يخرج أحد منهم عن سؤال من خمسة أسئلة، إن لم يُسأل عنها كلها، ألا وهي قول النبي ﷺ: «لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يُسأل عن خمس: عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وماذا عمل فيما علم» [رواه الترمذي].

اللهم صَلِّ على محمد...

بين عبودية البشر، وعبودية الكائنات

الخطبة الأولى:

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عِوَجًا ﴿١﴾ فِيمَا يُنذِرَ
بِأَسَاسٍ شَدِيدًا مِنَ لَدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا
حَسَنًا ﴾ [الكهف: ١، ٢]، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك
له، كَرَّمَ بني آدم، وحملهم في البر والبحر، ورزقهم من الطيبات،
وفضَّلهم على كثيرٍ ممَّن خلق تفضيلاً، وأشهد أن محمداً عبده
ورسوله، وصفيُّه وخليله، وخيرته من خلقه، تركنا على المحبَّة
البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، فصلوات الله
وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ومَن سار على طريقهم وأتبع هُداهم
إلى يوم الدين.

أما بعد:

فاتقوا الله أيها المسلمون، وراقبوه في السرِّ والنجوى،
والخَلوة والجلوة، ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾
هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾
[آل عمران: ٥، ٦].

عباد الله، إن الباري سبحانه وتعالى بحكمته وعلمه خلق هذا

الكون علويّه وسفليّه، ظاهره وباطنه، وأودعه من الموجودات، الملائكة والإنس والجن، والحيوان والنبات والجمادات، وغيرها من الموجودات التي لا يعلمها إلا هو؛ كل ذلك لأجل أمر واحد لا ثاني له، ولأجل حقيقة كبرى لا حقيقة وراءها، إنه لأجل أن تكون العبودية له وحده دون سواه، ولأجل أن تعترف هذه الموجودات بربوبيته، وتحقق ألوهيته، وتقر بفقرها واحتياجها وخضوعها له جل شأنه، ومن ثمّ فإن تحقيق العبودية، لا يمكن أن يبلغ مكانه الصحيح، إلا بتحقيق الطاعة والاستقامة ولزوم الصراط المستقيم؛ ليكون الدين لله، والحكم لله، والدعوة إلى الله، كل ذلك يقوم به من جعلهم الله مستخلفين في الأرض مستعمرين فيها.

ومثل هذا لا يتم لبني الإنسان بين سائر المخلوقات، إلا من خلال قول اللسان والقلب وعمل القلب والجوارح على حدّ سواء، كما أنه لا يمكن إتمام العبودية على أكمل وجه إلا بتكميل مقام غاية الدّلّ والانقياد، مع غاية المحبة لله سبحانه؛ فأكمل الخلق عبودية الله هو أكملهم له ذلّاً وانقياداً وطاعة؛ إذ هذه هي الذلة لله ولعزته وقهره وربوبيته وإحسانه وإنعامه على ابن آدم. وجماع العبودية عباد الله: أنها هي الدين؛ فالدين عند الله الإسلام، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وهذا هو سر خلق الله للخلق، وغاية إيجاده لهم على هذه البسيطة،

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦].

أيها المسلمون، يقول الله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ يَنْظُرُونَ فِي مَلَائِكَةِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، ويقول عائباً فئة من البشر، غافلة ساهية، لم تأخذ العبرة والعظة، مما تشاهده ليلاً ونهاراً في أنحاء هذا الكون المعمور: ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ [يوسف: ١٠٥، ١٠٦]، فيا سبحان الله، أفلا يرون الكواكب الزاهرات، والأفلاك الدائرات، والجميع بأمره مسخرات، وكم في الأرض من قطع متجاورات، وحدائق وجنات، وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وأمواج متلاطمت، وقفار شاسعات، ثم هم يجعلون لله البنات، ويعبدون من دونه من هو كالعزى واللات، فسبحان الواحد الأحد خالق جميع المخلوقات.

وتمَّ أمرٌ لذي اللب المتأمل، يجعل العجب يأخذ من نفسه كل مأخذ، حينما يرى أمر هذا الكائن البشري، وهو ينكص على عقبه ويولي الدبر، منصرفاً عن عبودية خالقه ومولاه، منشغلاً بالأولى عن الأخرى، والفاني عن الباقي، يتقلَّب بين الملذات والشهوات، ملتخفاً بأكنافها، بعد أن أكرمه الله وكرَّمه، وحمَّله في

البر والبحر، وفضَّله على كثير ممن خلق تفضيلاً، وبعد أن أسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وبعد أن خلقه وصوَّره وشقَّ سمعه وبصره، ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ومع ذلك يستكبر الإنسان، ويكفر الإنسان، ويجهل الإنسان، ويقتُر الإنسان، ويجادل الإنسان، فيقول الله عنه: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، ﴿قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُ﴾ [عبس: ١٧]، ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ فَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠]، ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرُ شَقْوٍ وَجَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٤]، ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَفُورٌ ﴿٦﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَعْتَفَ﴾ [العلق: ٦، ٧]، ﴿بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ﴾ [القيامة: ٥]، ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾ [العصر: ٢].

وقد كان الأجر بهذا الإنسان وقد أكرمه الله ونعمه، أن يكون عابداً لا غافلاً، طائعاً لا عاصياً، مقبلاً إلى ربه لا مُدْبِراً، شكوراً لا كفوراً، محسناً لا ظالماً.

إن المتأمل في كثير من المخلوقات في هذا العالم المشهود، ليرى أنها لم تحظ من العناية والرعاية والعمارة والاستخلاف، كما أُعْطِيَ الإنسان، ولا كلفت كتكليف ابن آدم، بل جعلها الله خادمة مسخرة له؛ ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩]، بل حتى الملائكة سخرها لابن آدم؛ فجعل منهم الكتبة عليهم، والدفاعيين عنهم من معقبات من بين أيديهم ومن خلفهم يحفظونهم

من أمر الله، وجعلَ منهم المسحَّرين لإرسال الريح والمطر؛ كما جعل الله من أكبر وظائفهم الاستغفار لبني آدم؛ ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الشورى: ٥، ٦].

ومع ذلك عباد الله؛ فإن هذه المخلوقات عدا ابن آدم، قد كملت في عبوديتها لله جل شأنه، وخضوعها له وذلكها لقهره وربوبيته وألوهيته، إلا بعض المخلوقات العاصية؛ كالشياطين وعصاة الجن، وبعض الدواب؛ كالوزغ والذي قال عنه النبي ﷺ: «اقتلوا الوزغ؛ فإنه كان ينفخ النار على أبينا إبراهيم» [رواه أحمد]، غير أن أولئك مع عصيانهم إلا أنهم لا يبلغون مبلغ عصيان بعض بني آدم، وما ذاك إلا لأنه قد وجد في بني آدم من يقول: ﴿ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ﴾ [النازعات: ٢٤]، ووجد منهم من يقول: ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: ١٧]، و﴿ إِنَّا نَالِكُ ثَلَاثَةٌ ﴾ [المائدة: ٧٣]، ووجد منهم من يقول: ﴿ أَنَا أُخِيءُ وَأُمِيَّتٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، ووجد منهم من يقول: ﴿ أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، ووجد منهم من يقول عن القرآن: ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ [المدثر: ٢٥]، ومن يقول: ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٥]، ناهيكم عباد الله عن من يقول: ﴿ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلِغُنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ

كَيْفَ يَشَاءُ وَلِيزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمْ
 الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَسَعُونَ فِي
 الْأَرْضِ فُسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿المائدة: ٦٤﴾، وَمَنْ يَجْعَلِ
 ﴿الْمَلَكَةَ الَّذِينَ هُمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ إِنشَاءً﴾ [الزخرف: ١٩]، فكيف إذن بمن
 يقول: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]؟!

وهكذا عباد الله، تمتد جبال الطغيان والجبروت في بني
 الإنسان إلى أن يخرج مَنْ يقول: إن الشريعة الإسلامية غير صالحة
 لكل زمان ومكان، أو مَنْ يقول بفصل الدين عن الدولة؛ فلا
 سياسة في الدين ولا دين في السياسة، أو مَنْ يقول: الدين لله
 والوطن للجميع، أو: دَعُ ما لله الله، وما لقيصر لقيصر، أو مَنْ
 يصف الدين بالرجعية، والحدود والتعزيرات بالهمجية والغلظة، أو
 أن يصفه بالمقيّد للمرأة، والظالم لها، والمحجر على هويتها، أو
 مَنْ يرى حريتها وفكاكها من أسرها إنما يتمثل في خروجها من
 حدود ربها وإعلان عصيانها لشريعة خالقها، وجعلها نهياً لكل
 سارق، وإناء لكل والغ، ولقيطاً لكل لاقط، جسداً للإغراء
 والمتاجرة، وحب شيوع الفاحشة في الذين آمنوا.

هذه هي بعض مقولات بني الإنسان، فهل من التفاتة
 ناضجة، إلى مواقف إبليس اللعين في كتاب ربنا لأجل أن تَرَوْا،
 هل تجدونه قال شيئاً من ذلك غير أنه وعد بالغواية؛ بل إن غاية

أمره أنه فضل جنسه على جنس آدم؛ فاستكبر عن السجود لمن خلق طيناً؛ بل إنه قد قال لبعض البشر: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٤٨]، فله ما أعظم عصيان بني آدم، وما أشد استكباره، ومكره السيئ؛ ﴿أَسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

ويؤكد الباري جلَّ شأنه، حقيقة عصيان بعض بني آدم من بين سائر المخلوقات، واستنكافهم أن يكونوا عبيداً لله الذي خلقهم وفطرهم، فقال سبحانه: ﴿الَّذِينَ تَرَأَتْ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُمْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨]؛ فدلَّ على أن أكثر بني آدم عُصاة مستكبرون ضالون، ﴿وإِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]، ﴿يَعْمَلُونَ لَهُمْ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَحِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقِيلَ مِنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ [سبا: ١٣]، ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

أيها المسلمون، من أجل أن نصل وإياكم إلى غاية واحدة، وهي استشعار عبوديتنا لله سبحانه وتعالى، وأن منا مفرطين ومستنكفين، وأن من أطاع الله بشيء من العمل أخذه الإعجابُ

بنفسه كلَّ مأخذ، وأقنع نفسه ومجتمعه بأنه يعيش أجواء الأمان والأمان والاستقامة والهداية، وأنه أدَّى ما عليه؛ فليس هناك دواعٍ معقولة للتصحيح والارتقاء بالنفس إلى البلغة المرجوة.

إنه لأجل أن نعلم ذلك، ولأجل أن نزدري عملنا مهما كان صالحاً في مقابل أعمال المخلوقات الأخرى من جماد ونبات وحيوان: فإن من المستحسن هنا أن نسلط الحديث على أمثلة متنوعة لمخلوقات الله سبحانه؛ لنبرهن من خلالها الهوة السحيقة بيننا وبينهم في كمال العبودية لله والطاعة المطلقة له.

فمن ذلك: ما ألهم الله به بعض مخلوقاته من استشعار عقيدة التوحيد ودم الشرك في ألوهيته جل وعلا، وذلك من خلال ما ذكره الله جلَّ وعلا عن هدهد سليمان عليه السلام حينما أنكر ما عليه أهل سبأ من الكفر بالله والشرك به، إضافةً إلى دعوته لتوحيد الله سبحانه؛ فقد قال الله تعالى عن الهدهد الذي جاء من سبأ نبأ يقين: ﴿وَجَدْتُنَّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾ [النمل: ٢٤ - ٢٦].

ومن ذلك عباد الله: ما أودعه الباري سبحانه بعض الجمادات من الغيرة على دينه، والتأذي من انتهاك ابن آدم لحرمات الله

سبحانه؛ ففي الحديث أن النبي ﷺ مرَّ عليه بجنابة، فقال: «مستريحٌ ومستراحٌ منه»، فقالوا: يا رسول الله، ما المستريحُ وما المستراحُ منه؟ قال: «إنَّ العبد المؤمن يستريحُ من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله تعالى، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب» [رواه البخاري]، فانظروا يا رعاكم الله، كيف يتأذى الشجر والدواب من الرجل الفاجر، وما يحدثه في الأرض من فساد وتخريب، وإعلان المعصية لله تعالى والتي لا يقتصر شؤمها على ابن آدم فحسب؟! وفي مقابل ذلك: فإن بعض الدواب تفرح بالتدين، وتشعر بأثره في ابن آدم وبركته على وجه الأرض؛ فلذلك هي تدعو له وتصلِّي عليه وتستغفر له؛ فقد روى الترمذي في «جامعه» أن النبي ﷺ قال: «إنَّ الله وملائكته وأهل السموات والأرض، حتى النملة في جحرها وحتى الحوت، ليصلُّونَ على مُعلِّم الناس الخير».

بل إن الدواب جميعاً لتشفق من يوم القيامة وتفرِّق من قيام الساعة خوفاً من هولها وعرصاتها؛ فقد قال النبي ﷺ: «ما من دابة إلا وهي مُصْغِيَةٌ يوم الجمعة خشيةً أن تقوم الساعة» [رواه أحمد]، والمصغية هي المنصتة.

ولقد ورد أيضاً ما يدل على عبودية الدِّيك لله، ودعوته

للفلاح والخير؛ فقد قال النبي ﷺ: «لا تسبوا الديك؛ فإنه يدعو إلى الصلاة» [رواه أحمد وأبوداود].

وقد روى الإمام أحمد عن النبي ﷺ أنه قال: «إنه ليس من فرس عربي إلا يؤذَنُ له مع كل فجر يدعو بدعوة يقول: اللهم إنك خولتني من خولتني من بني آدم؛ فاجعلي من أحب أهله وماله إليه، فيقول ﷺ: إن هذا الفرس قد استجيب له دعوته» [رواه أحمد].

وأما النمل يا رعاكم، فتلك أمة من الأمم المسبحة لله سبحانه، مع صغر خلقتها، وهوان حالها، وازدراء البشر لها، وهي التي قال الله عنها: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨]، هذه النملة يقول النبي ﷺ عنها: «قرصت نملة نبيًا من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه أفي أن قرصتكم نملةً أحرقت أمةً من الأمم تسبِّح الله» [رواه البخاري].

وأما الشجر وهو من النبات عباد الله، فقد قال الله عنه: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ [الرحمن: ٦]، وروى ابن ماجه عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من مُلَبِّ يُلَبِّي إِلَّا لَبَّى ما عن يمينه وشماله من حجر أو شجر أو مدَر حتى تنقطع الأرض من هاهنا وهاهنا».

وأما ولاء الحجر والشجر للمؤمنين ونصرته لدين الله، حينما يستنطقه خالقه، فينبئ عن عمق عبوديته لربه، وغيرته على دينه؛

فإن رسول الله ﷺ قد قال عنه: «لا تقوم الساعة حتى يُقاتل المسلمون اليهود، فيقتلهم المسلمون حتى يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر، فيقول الحجر أو الشجر: يا مسلم، يا عبدالله، هذا يهودي خلفي تعال فاقتله» [رواه البخاري].

فانظروا يا رعاكم الله إلى هذه المخلوقات الآنفة، إضافة إلى الجبال الراسيات، والأوتاد الشامخات؛ كيف تُسَبِّح بحمد الله وتخضع له، وتُسْفِق وتُهبط من خشية الله وهي التي خافت من ربها وخالقتها، إذ عرض عليها الأمانة فأشفقت من حملها؟! وكيف أنه تدكدك الجبلُ لما تجلَّى ربنا لموسى ﷺ؟! فهذه حال الجبال وهي الحجارة الصلبة، وهذه رقتها وخشيتها وتدكدكها من جلال ربها وعظمتها، وقد أخبر الله أنه لو أنزل عليها القرآن لتصدعت من خشية الله، فيا عجباً من مضغة لحم أقسى من صخر صلد، تسمع آيات الله تتلى عليها ثم تصر مستكبرة كأن لم تسمعها، كأن في أذنيها قرأ فهي لا تلين ولا تخضع!! ولكن صدق الله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه،
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تعظيماً لشانه، وأشهد أن
محمداً عبده ورسوله الداعي إلى رضوانه.

أما بعد:

فيا أيها الناس، تكلم ذئب كلاماً عجباً، إبان حياة النبي ﷺ،
كلاماً يفيد بأن الذئب يؤمن بأن الرزق من عند الله، بل قد أمر هذا
الذئب راعي الغنم بتقوى الله سبحانه، إضافة إلى علم الذئب بنبوّة
محمد ﷺ ورسالته؛ فلقد أخرج أحمد في «مسنده» من حديث أبي
سعيد الخدري رضي الله عنه قال: عدا الذئبُ على شاة فأخذها،
فطلبه الراعي فانتزعها منه، فأقعى الذئب على ذنبه، قال: ألا تتقي
الله، تنزعُ مني رزقاً ساقه الله إليّ، فقال: يا عجبي، ذئبٌ مُقَع على
ذنبه يكلمني كلام الناس؟ فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من
ذلك؟ محمدٌ ﷺ يثرب يُخبرُ الناس بأنباء ما قد سبق...»
الحديث، وفي رواية للبخاري: «فقال الناس: سبحان الله!! ذئب
يتكلم، فقال النبي ﷺ: فإني أومنُ بذلك أنا وأبو بكر وعمر».

فاتقوا الله أيها المسلمون، واقدروه حق قدره، واستشعروا أثر

عبودية الجماد والنبات والحيوان وكمالها لله تعالى، وهي أقل منكم فضلاً وتكريماً، واعلموا أنكم مقصرون مهما بلغتكم، وظالمون لأنفسكم مهما ادّعيتم القصد أو الكمال؛ فَإِنَّ بُعْدَ الْبَشَرِ عَنِ الْحَقِيقَةِ، وضعف يقينهم بالأمر الناهي، وغلبة شهواتهم مع الغفلة، تلك كلها تحتاج إلى جهاد أعظم من جهاد غيرهم من المخلوقات الطائعة المسبّحة لله.

يصبح أحدنا، وخطاب الشرع يقول له: استقم في عبادتك، واحذر من معصيتك، وتنبّه في كسبك، وقد قيل قبل للخليل عليه السلام: اذبح ولدك بيدك، واقطع ثمرة فؤادك بكفك، ثم قم إلى المنجنيق لترمى في النار، ويُقال للغضبان: اكظم، وللبصير: اغضض، ولذي المقول: اصمت، ولمستلذ النوم: تهجد، ولمن مات حبيبه: اصبر، وللواقف في الجهاد بين الغمرات: لا يحلّ لك أن تفرّ، وإذا وقع بك مرض، فلا تشك لغير الله.

فاعرفوا أيها المسلمون شرف أقدار بني آدم بهذا الاستخلاف، ووصونوا هذا الجوهر بالعبودية الحقّة، عن تديسها بشؤم الذنوب، ولؤم التفريط في الطاعة، واحذروا أن تحطكم الذنوب إلى حضيض أوهد، فتخطفكم الطير أو تهوي بكم الريح في مكان سحيق؛ ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمَ شَعْبِيرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]، والعجب عباد الله ليس من بعض المخلوقات، ذلّل لها

الطريق فلا تعرف إلا الله، ولا العجب من الماء إذا جرى، أو من متحدر يسرع، ولكن العجب من مُصَاعِد يشق الطريق شقاً، ويغالب العقبات معالجة، ويتكفأ الريح إقبالاً، ولا عجب فيمن هلك كيف هلك، ولكن العجب فيمن نجا كيف نجا؟! ﴿ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٥]، والعبء كلما ذلَّ لله، وعظم افتقاراً إليه، وخضوعاً له، كان أقرب له وأعز وأعظم لقدره، فأسعدُ الخلق أعظمهم عبودية لله.

يقول النبي ﷺ: «قال الله سبحانه وتعالى: يا ابن آدم، تفرغْ لعبادتي أملأ صدرك غنى، وأسدِّ فقرك، وإن لم تفعلْ ملأتُ صدرك شغلاً ولم أسدِّ فقرك» [رواه ابن ماجه].
اللهم صلِّ على محمد...

* * *

آفة العصر الحزن والاكتئاب

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي خَلَقَ فسوَى، وقَدَّرَ فهدي، الذي أخرج المرعى، فجعله غثاءً أحوى، سبحانه هو أمات وأحيا، وأضحك وأبكى، أنزل علينا الكتاب والفرقان؛ ليهلك مَنْ هلكَ عن بيّنة، ويحيا مَنْ حَيَّ عن بيّنة، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، الداعي إلى الله على بصيرة هو وَمَنْ اتَّبَعَهُ، بَلَغَ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونَصَحَ الأُمَّةَ، وجاهدَ في الله حقَّ جهادِهِ حتى أتاه اليقين، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه وَمَنْ سارَ على طريقهم واقتفى.

أما بعد:

فأوصيكم أيها الناس ونفسي بتقوى الله سبحانه؛ فإن فيها العزَّ بعد الدُّل، وبها الأمن بعد الخوف، والنجاة يوم الورود؛ ﴿وَلِإِنْ مَنَعَكُمْ إِلَّا وَاَرِدْهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ (٧١) ثُمَّ تَنَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُوا الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًا ﴿[مريم: ٧١، ٧٢].

عباد الله، إن مَنْ يتَحَسَّسَ واقع الناس بعامته، وواقع المسلمين على وجه الخصوص، في زمن كثرت فيه المعارف، وقلَّ فيه العارف، زمنٌ بلغت فيه آلياته أوجَ تقدمها، ونالت الحضارة المادية فيه شأواً

بالغاً، زمنٌ هو غاية في السرعة المهولة، سرعةٌ اقتصادية، وأخرى طبية، وثالثةٌ عسكرية ومعرفية، إن مَنْ يتحسَّس هذا الواقع على وجه الإنصاف والوضوح، فسيمثُلُ أمامه أن هذه المسارعة بقضها وقضيضها، لم تكن كفيلاً في إيجاد الإنسان الواعي، الإنسان المُدرك لحقيقة وجوده على هذه البسيطة.

نعم عباد الله، هذه هي الحقيقة مهما امتدَّت حبال هذا التقدم العصري؛ وإلا فمَنْ يخبرنا عن سر انتشار الجهل، وتضلعه في عصر المعلومات؟! وما هو سر شيوع الفقر والمسكنة في عصر الكنوز والغنى؟! وما سر سيطرة البطالة في عصر الإنتاج والصناعة؟! وقولوا مثل ذلك متسائلين: ما هو سرُّ وصف بعض الباحثين في الشؤون الاجتماعية على المستوى العالمي هذا العصر، بعصر الحزن والاكتئاب؟! بعد أن أطلق على فترة قريبة منه سابقة عصر القلق؟! إننا في الحقيقة، لسنا بحاجة إلى مزيد أدلة تؤكِّد ما يكابده هذا العصر من تغلغل هذه الظاهرة واستشرائها.

الحزن والاكتئاب عباد الله، هما آفة العصر المدمِّرة، وهي أوسع الآفات النفسية انتشاراً في العالم، وأكثرها لدى الناس شكاية إلا ما شاء الله، وهي لا تزال في ازدياد ملحوظ كلما ازدادت الإصابة بها. ثم إن المترقب لآخر الإحصائيات الصحية العالمية، ليجد أن ما يقارب عشرة بالمائة من سكان العالم، يعانون من آفة الحزن والاكتئاب بما في ذلكم بلاد المسلمين، وهذا يعني بدهاة، وجود مئات الملايين

من البشر في معاناة مع هذا الواقع المرير، وقد أسفرت هذه الإحصاءات أيضاً عن أن الأجيال التي ولدت في هذه العقود الأخيرة، يبدأ عندها هذا الحزن والاكتئاب في سن أصغر وبمعدلات أكبر، نظراً للعوامل الاجتماعية التي تخللت تلك الجسوم بسبب تهلهلها وضياع الأثر البيئي الناضج فيها، كما وجد أن هذا الداء، ينتشر بشكل عام بين الإناث أكثر من انتشاره بين الذكور بنسبة تصل إلى الضعف تقريباً، وذلك بسبب فقدان الوظيفة الحقيقية للمرأة، وتحميلها ما لا تطيقه، من أعباء حياتية، أودت بها إلى ترك بيتها، والزجّ بطفلها بين أحضان الخادومات، وعقول المربيات الأجنبية.

بل لقد بلغت حالات الانتحار بسبب الحزن والاكتئاب الشديد، ما يزيد على ثمانمائة ألف شخص في العالم كل عام، ناهيك عن كون ثمانين بالمائة من المصابين به، لا يذهبون إلى الأطباء، ولا يكشفون عن حقيقة حالهم، وهنا مكمن العجب.

إن هذه الظاهرة عباد الله، ليست وليدة هذا العصر، ولا هي من الأدواء التي لا يعرف لها ما يقاومها، أو يزيلُ عمق وجودها في المجتمعات، كلا، بل هي ظاهرة مرهونة بمدى انغماس الكثرة الكاثرة في متاع الحياة الدنيا، وسيطرة النظرة المادية الصرفة، ثم إن تفاوت المجتمعات في درجات هذه الظاهرة ليكمنُ في مدى إيمانها بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدرِ خيره وشره، ثم في استقامة السلوك الاجتماعي بأمنه وإعلامه وتعليمه، واستقرار العدل

والمساواة والمحبة، والبعد عن الأثرة وحبّ الذات، وهلمَّ جَرًّا.
لقد سيطرت هذه الظاهرة سيطرة مزدوجة، على اهتمامات
وأبحاث الكاتبين عنها، من بُحَاثٍ شرعيين، وأطباء نفسيين، وآخرين
من صحفيين نقلة، ولربما تناولتها الأقلام باللت والعجن بين الحين
والآخر، غير أن هذه المطارحات، على تنوعها واختلاف منطلقاتها،
لم توفق في أن تجتمع تحت مظلة واحدة، تجمع في علاج هذه الظاهرة
بين الأصالة والمعاصرة، بين الطب الشرعي الروحاني، وبين الطب
النفسي الإكلينيكي الموثق، والذي يقوم عليه متخصصون من ذوي
الأمانة والغيّرة، ممن يُخضعون دراساتهم في الطب النفسي للشريعة
الغراء، بعيداً عن النظريات المادية البحتة المتجرّدة عن معاني الروح
والسمو.

عباد الله، الحُزْنُ في لغة العرب: مأخوذ من الحَزَن، وهو
الاجتمام، يُقال: حزن الرجل: إذا اغتم. وهذا الحزن يعد أحد صور
العاطفة والمشاعر الإنسانية الفطرية، التي تسيطر على الإنسان، فإذا ما
اشتدت عليه اشتداداً تتغيّر به نفسه وتتكسر، فإنه حينئذٍ يسمى اكتئاباً،
وهو أيضاً إحساس عاطفي، يعد قمة الحزن وغايته؛ حيث يجعل الفرد
نهياً لشعوره الداخلي، الذي يورث الفشل وخيبة الأمل، واختفاء
الهشاشة والبشاشة، والحبور والانشراح، مع انفعالات ممزوجة
بالآهات والزفرات، حتى تعزف النفس بسبب ذلك عن بذل أي نشاط
حيوي، بل ولربما عزفت عن الحياة بالكلية؛ ليكون الانتحار هو الحلّ

الوحيد للمصاب بهذه الأزمة والعياذ بالله . في حين إنه لو سَلِمَ مِنْ قتل نفسه والقضاء عليها، فلا أقلّ من أن تصيبه لوثة بعض الأمراض المصاحبة لها؛ كأمثال القُرْحَةِ وآلام المفاصل والأرق والصداع وغير ذلك .

وقد قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ : أربعةٌ تهدم البدن: الهمّ، والحزن، والجوع، والسهر .

إن أهمية التطب النفسي، من خلال عرض الفرص العلاجية، عبر جوانب إيمانية من كتاب الله وسُنَّة نبيه ﷺ لعله الحزن والاكتئاب لتكمنُ في كونهما البديل الأفضل والأكمل والأسلم، لمئات من أنواع الأدوية والعقاقير المهدئة، والكيوفات المؤقتة التي قد يتعوّد عليها الجسم فتتحول مرضاً أفتك من الحزن والاكتئاب ذاته .

ثم إن العلاج الشرعي الروحاني على وجه العموم، قد يفوق العلاج السريري لهذه الظاهرة الفتاكة بمرات كثيرة، وإذا كان هناك برامج في الطب النفسي تشير إلى أن في السباحة المائية، ومزاولة الأعمال المنزلية بصفة متكررة، علاجاً لهذه الأزمة، فإننا معاشر المسلمين، لا يمكن أن نتصور كون الفرد سابحاً عاملاً في منزله ليلاً ونهاراً، ولكن يمكننا أن نتصور هذا الفرد متعبداً مسبّحاً مستغفراً ليله ونهاره، قيامه وقعوده وعلى جنبه، ولا جرم فقد وصفَ الله أولي الألباب بقوله: ﴿ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٩١]؛ ومن هنا يأتي تفاضل الأدوية الشرعية الروحانية،

على المادّية السريرية، رغم أهميتها وعدم إغفال دورها الفعّال في بعض الأحيان.

وبعد يا رعاكم الله، فلسائل أن يسأل ويقول: قد عرفنا صورة هذه الأزمة، ولكن ما أسبابها الظاهرة، وما علاجها المرجو؟ فنقول: إن هناك أسباباً طبية بحتة، لا يمكن تجاهلها إزاء المصابين بالحزن والاكتئاب:

ومن أشهر هذه الأسباب: كثرة تعاطي الأدوية والعقاقير التي تؤدي بدورها إلى تغيرات كيميائية في الدماغ، الناتج عنها الإصابة بالاكتئاب نفسه.

ومن ذلك أيضاً: تعاطي المخدرات والمسكرات، المؤدّية إلى الإدمان المروع، والإحساس بأن الحياة لا شيء بدون معاقرتها. ومن ذلك: العوامل الوراثية، وبعض الأمراض العضوية!! لكن الذي يعيننا هنا من على هذا المنبر، هي تلكم الأسباب، التي تناولتها الشريعة الغرّاء، من خلال ذمها والتحذير منها في غير ما آية أو حديث، لكافة شؤون الدين والدنيا:

فقد جاء في القرآن ما يدلُّ على أن خواء القلب من ذكر الله، ويبس اللسان منه، أمارَةٌ من أمارات الضيق والنكد، والحزن وكسف البال؛ فقد قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ [طه: ١٢٤].

وقد جاء في السنّة ما يدل على أن مواقعة المعاصي والاستهانة

بها، سبب رئيس من أسباب حلول هذا البلاء؛ فقد قال ﷺ: «إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له ما يكفرها من العمل، ابتلاه الله عز وجل بالحزن ليكفرها عنه» [رواه أحمد].

ومن أسباب ذلك أيضاً: قلق كثير من الناس، وخواء أفئدتهم من الإيمان بالله، وبقضائه وقدره، وفرعهم من المستقبل المجهول، والشعور بالوهن عن حمل المصائب وتحمل المشاق، فتجدون أمثال هؤلاء قوماً يفرقون؛ ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مَدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ [التوبة: ٥٧].

ومن أسباب ذلك عباد الله: إجلاب الشيطان بخيله ورجله على ابن آدم، فيوسوس إليه ليخنس، ويقذف في قلبه الحزن والكآبة، من خلال تشويشه بكم هائل من الأحلام الشيطانية في المنام حتى تصبح في حياة الفرد هاجساً مقلقاً عند كل غمضة عين؛ ولذلك يصاب المكتئب بالأرق المزمن وقلة النوم؛ وقد صح عند مسلم أن النبي ﷺ ذكّر نوعاً من الرؤى وهي التي تكون تحزيناً من الشيطان يحزن بها ابن آدم.

وسبب آخر من أسباب هذه الأزمة، يبرز من خلال كثرة الديون والحملات المالية، مع العجز والكسل عن إيفائها، أو الجبن والبخل، الذي يصيب المرء حينما يتلى بالفرق وسعار الكانز؛ ومما يدل على أن هذا الأمر يعد أساساً في حدوث مثل هذه الظاهرة: ما رواه أبو داود في سننه: «أن النبي ﷺ دخل المسجد ذات يوم، فإذا هو برجل

من الأنصار يُقالُ له: أبو أمامة، فقال: يا أبا أمامة، مالي أراك جالساً في المسجد في غير وقت الصلاة؟ قال: هموم لزممتني وديون يا رسول الله، قال: أفلا أعلمك كلاماً إذا قلته أذهب الله همَّك وقضى عنك دينك؟ قال: بلى يا رسول الله، قال: قل إذا أصبحت وإذا أمسيت: اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال. قال أبو أمامة: ففعلتُ ذلك فأذهبَ اللهُ همِّي وقضى عني ديني».

هذه بعض الأسباب لا كلها، وقد رأينا صلتها الوثيقة بما جاء التحذير عنه في ملتنا السمحة، ومنهاجنا الأغر، في حين أن جماع هذه الأسباب هو البُعد عن هداية الله والاستقامة على طريقه، والتعلُّق بالأسباب الدنيوية بعيداً عن مسبِّها سبحانه، ومن تعلق شيئاً فقد وُكِّلَ إليه، ومن وُكِّلَ إلى غير الله، فقد وُكِّلَ إلى ضيعة وخراب؛ ﴿فَمَنْ يُرِدْ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.
أما بعد:

فيا أيها الناس، من باب أن نوجد شيئاً من التكامل ولو كان مقتضياً، حول الحديث عن ظاهرة الحزن والاكتئاب، فإنه من اللازم لنا أن نشير بلمحة سريعة إلى أنجع الأدوية الشرعية الروحانية، والتي لها أثر فعّال من خلال نصوص الشارع، والواقع المجرب، حتى من أخصائيي الطب النفسي أنفسهم؛ ناهيك عمّا بسطه أطباء القلوب وصيارفته، من علماء إسلاميين، هم قطب الرحي والقدح المعلى في هذا المضمار.

فأول هذه الأدوية مكانة: هو قيام الأمة في مجموعها بما فرض الله عليها من الجهاد والدعوة إلى الله، والحذر من متاع الدنيا وزينتها؛ إذ بمثل ذلك يكون الانسراح والطمأنينة، ويزول الضعف والضعف؛ يقول الرسول ﷺ: «إذا ضنَّ الناس بالدينار والدرهم، وتبايعوا بالعينة، وتبعوا أذناب البقر، وتركوا الجهاد في سبيل الله، أنزل الله بهم ذلاً فلم يرفعه عنهم حتى يراجعوا دينهم» [رواه أحمد].

وأخرج الطبراني مرفوعاً إلى النبي ﷺ أنه قال: «عليكم

بالجهاد؛ فإنه بابٌ من أبواب الجنة، يدفع الله به عن النفوس الهم والغم»، ولقد صدق الله إذ يقول: ﴿فَتَلَوْتُمُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِرُهُمْ وَيَبْصُرَكُمُ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤].

ودواء آخر للحُزْنِ والاكْتئاب عباد الله: يكْمُنُ في الموقف الصحيح مع القضاء والقدر، وبلوغ منزلة إيمان العبد بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن الأمور بيد الله مقاديرها؛ فليس يأتيه منهيتها، ولا قاصر عنه مأمورها، وأن الأرزاق مقسومة، والآجال محتومة، وأن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها؛ فالمرء يتوكل على ربه دون توتر ولا ريبة ولا قلق؛ إذ بمثل هذا يستقبل الدنيا بشجاعة ويقين، ولسان حاله يقول كما قال علي بن أبي طالب: أي يومي من الموت أفر، يوم لا يقدر أو يوم قدر، يوم لا يقدر لا أحذره، ومن المقدور لا ينجو الحذر.

ومن الأدوية عباد الله: تحقيق الرضا عن الله سبحانه؛ إذ هو المحكُّ أمام العبد؛ فمن قلَّ رضاه عن الله، صار مرتعاً للأوهام والأحزان والأدواء، وقد سُئِلَ الحسن البصري رضي الله عنه: من أين أتيت هذا الخلق؟ فقال: من قلة الرضا عن الله، ونقل أبو حاتم البستي عن بعض السلف قوله: لا أعلم درجة أشرف ولا أرفع من الرضا، وهو رأس المحبة؛ ولذلك دعا به زكريا لولده فقال: ﴿وَأَجْعَلُهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مریم: ٦]، والرضا عن الله: لا يكون إلا باستحضار العبد لحكمة الله في الأقدار، وأنه لا يعطي ولا يمنع إلا لحكمة بالغة، ممّا يهون على

المرء ما يلاقيه من المصائب والأقدار المؤلمة، بل حتى في حال الفرح؛ كما قال سليمان عليه السلام: ﴿ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ﴾ [النمل: ٤٠]، ويدل لذلك قول النبي ﷺ حين وفاة ابنه إبراهيم: «تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول ما يسخط الرب، ولولا أنه وعد صادق، وموعود جامع، وأن الآخر منا يتبع الأول، لوجدنا عليك يا إبراهيم وجداً، وإننا بك يا إبراهيم لمحزونون» [رواه البيهقي وابن ماجه]، فهو ﷺ يعني بذلك: لولا أنه يعلم أن الله حكمة في قبضه لحزن حزناً شديداً.

ومن الأدوية أيضاً: كثرة التسبيح والسجود والعبادة، عملاً بقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعَلْنَاكَ يَصِيْقُ صَدْرُكَ يَمَا يَقُولُونَ ﴿٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١٨﴾ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِيْنُ ﴾ [الحجر: ٩٧ - ٩٩]، وقد كان ﷺ إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة وكان يقول: «من لزم الاستغفار جعل الله له من كل فرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب» [رواه النسائي وغيره].

ومن الأدوية كذلك: ما يسمى بـ«التليينة»: وهي طعام يصنع من حساء من دقيق أو نخالة، ويجعل فيه عسل أو لبن، أو كلاهما؛ لما رواه الشيخان من حديث عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ قال: «إن التليينة تجم فؤاد المريض، وتذهب ببعض الحزن»، وقوله: «تجم فؤاد المريض» أي: تريحه.

ثم نختم أيها المسلمون هذه الأدوية بوصية النبي ﷺ فيما رواه أحمد في «مسنده»: أن النبي ﷺ قال: «ما قال عبد قط إذا أصابه هم

وحزن: اللهم، إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علّمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهب همّي، إلا أذهب الله عز وجل همّه، وأبدله مكان حزنه فرحاً، قالوا: يا رسول الله، ينبغي لنا أن نتعلّم هؤلاء الكلمات؟ قال: أجل، ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن».

هذه بعض الأدوية الناجعة، وهي شذرات وقطرات، مفادها تشخيص هذه الظاهرة والتذكير بها؛ فالجزء دليلٌ على الكل، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

اللهم صلِّ على محمد...



(الرؤى) سلطان المناجات

الخطبة الأولى:

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، خير من ركب الله وسجد، وأفضل من دعا إلى طريق الحق والرشد، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، وعلى من سار على طريقهم وأتبع هداهم إلى يوم الدين.

أما بعد:

فاتقوا الله معاشر المسلمين، واعلموا أن هذه الدنيا دار ممر،

وأن الآخرة هي دار القرار؛ ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

أيها الناس، إن لبني آدم ولعاً بالغاً، وشغفاً ثائراً، فيما يتعلق بالأمور الغيبية، الماضي منها واللاحق، ثم إن إنكار هذه الظاهرة لهو ضرب من ضروب تجاهل الواقع والنأي عنه، غير أن تراوح هذه الظاهرة صعوداً وهبوطاً يعد مرهوناً بمدى قرب الناس من مشكاة النبوة، والسرعة الحقة، التي أحكمت هذا الباب، وأخبر الله من خلالها بقوله: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ [الأنعام: ٢٦، ٢٧].

ولا غرو حينئذٍ إذا وجدنا هذه العصور المتأخرة مظنة للخلط واللغظ، بالحديث عن الغيبات، وتوقان النفوس الضعيفة إلى مكاشفتها، ما بين مؤمن بالخرافة، وراضٍ بالكهانة، وآخرين سادرين بالسمع والتخمين، يقذفون بالغيب في كل حين، مع أن آيات الله تُتلى عليهم بكرة وعشيًا، ومنها قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥]، وتقرأ عليهم سنة المصطفى ﷺ وفيها قوله: «خمسٌ لا يعلمهنَّ إلا الله عز وجل: إن الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً، وما تدري نفس بأي أرض تموت إن الله عليم خبير» [رواه الترمذي].

إذاً لا مجال للحديث عن المغيبات إلا من خلال ما ذكره لنا ربنا جل وعلا، أو ما أوحاه إلى رسوله ﷺ، وما عدا ذلك فما هو إلا مجرد تكهنات إن لم تكن محور أساطير وأوهام، وخليط كلام يقذف به مسترقو السمع من الجن.

والإسلام في حقيقته دين يزيل الخرافة من الفكر، والرذيلة من القلب، والشروء من المسيرة؛ فالإيمان بالغيب ليس إيماناً بالأوهام، ولا هو إيذاناً لأنواع الفوضى، ثم إن الناجين من هذه الظاهرة، قد لا يسلمون من تطلع آخر، يحملهم عليه الشغف وروم معرفة الحال اللاحقة والتي يظنون أن لها ارتباطاً وثيقاً باستقرار

مستقبلهم من عدمه، فاشرأبت نفوسهم إلى الوقوف على ذلك في مناماتهم، من خلال ما يعترهم من رؤى وأحلام؛ ولذا فإن أحدنا قد يلاقي أحاً له أو صديقاً، فيراه عبوساً متجهماً، أو فرحاً مسروراً؛ فيزول عنه العجب حينما يعلم أن سبب هذا الفرح أو الحزن رؤيا مؤنسة أو أخرى مقلقة.

وهذا الأمر عباد الله ليس قاصراً على أفراد الناس وعامتهم فحسب، بل يشركهم فيه العظماء والكبراء، فكم أقضت الرؤيا عظيماً من مضجعه، وكم بشرت الرؤيا أفراداً بمستقبلهم، وكم شغلت شعباً كبيراً برمته، وما رؤيا يوسف عليه السلام بنائية عتاً، ولا رؤيا ملك مصر بخافية علينا، فقد اجتمع فيها تبشير وتحذير في آن واحد؛ إذ بشارتها هي السعة عليهم في الرزق سبع سنين، ونذارتها هي في الجذب والقحط سبعاً مثلها.

الرؤى عباد الله: لها أهميتها الكبرى في واقع الناس قبل الإسلام وبعد الإسلام، لكنها من خلال نظرات المتعلمين والمثقفين لها تفاوتات تفاوتاً كثيراً؛ لاختلاف المرجعية من قبل كل طائفة:

فقد أنكرها الفلاسفة، ونسبوا جميع الرؤى إلى الأخلاط التي في الجسد، فأوا أنها هي التي تحدث انعكاساً مباشراً على نفس الرائي بقدر هيجان الأخلاط التي في جسده.

ولبعض علماء النفس موقفٌ سلبيٌّ تجاه هذه الرؤى أيضاً، قاربوا فيه قولَ الفلاسفة، فجعلوها خليطاً من الأمزجة والرواسب التي تكمن في ذاكرة الإنسان، فيهيِّجها المنام، حتى قصرُوا أمرها في قالب مادي بيولوجي صرف كما زعموا.

وأما شريعة الإسلام: فإن علماءها وأئمتها قد ساروا على منهاج النبوة، ووقفوا من الرؤى بما نص عليه الكتاب والسنة، فذهبوا إلى أن الرؤيا المنامية الصالحة الصادقة إنما هي حق من عند الله، فمنها المبشِّرة ومنها المنذرة؛ لما روى مالك في الموطأ وغيره، عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ذهبت النبوءة، وبقيت المبشِّرات»، قيل: وما المبشِّرات؟ قال: «الرؤيا الصالحة، يراها الرجلُ أو تُرى له».

وأصل هذا الحديث في البخاري، والتبشيرُ هنا عباد الله: يحتمل التبشير بالخير والتبشير بالشر؛ كما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِكَذَابِ آيَاتِهِ﴾ [آل عمران: ٢١]، وهذه الرؤيا عباد الله هي التي قال عنها الصادق المصدوق ﷺ: «إذا اقتربَ الزمان، لم تكدر رؤيا المؤمن تكذب، وأصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً، ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة...» الحديث [رواه البخاري ومسلم].

وبعد يا رعاكم الله: فلقد تكالبت همم كثير من الناس في هذا العصر، بسبب الخواء الروحي، الذي يتبعه الجزع والفرق ونأي

النفس عن تعلقها بالله، وإيمانها بقضائه وقدره، وبما كان ويكون، وأن شيئاً لن يحدث إلا بأمر الله ومشيئته، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، حتى لقد تعلقت نفوسهم بالرؤى والمنامات تعلقاً خالفوا فيه مَنْ تقدّمهم في الزمن الأول، ثم توسّعوا فيها وفي الحديث عنها والاعتماد عليها، إلى أن أصبحت شغلهم الشاغل، عبر المجالس والمنتديات، والمجامع بل والقنوات الفضائية، إلى أن طغت على الفتاوى الشرعية، فأصبح السؤال عن الرؤى أكثر بأضعاف عن السؤال في أمور الدين، وما يجب على العبد وما لا يجب، كل ذلك إبان غفلة وَسِنَةٍ عَمَّا ينبغي أن يفقهه المؤمن تجاه هذه الرؤى، وأن هناك هدياً نبوياً للتعامل معها، ينبغي ألا يتجاوز المرء فيطغى، ويتجاهله فيعيا؛ لأن النبي ﷺ تركنا على المحجة البيضاء، فأغنانا في الحديث عنها عن إتعاب النفس في التعلُّق بها، والسعي الدؤوب في معرفة تأويلها، بله التعلق بها والاعتماد عليها.

وما تهافت الناس في السؤال عنها بهذه الصورة المفرطة، إلا لون من ألوان الخروج عن الإطار المرسوم والتوازن المتكامل، فتجد أحداً يرى الرؤيا أيّاً كانت، فتضطرب لها حواسه، وترتعد منها فرائصه، وتحبس أنفاسه، فلا يطفئ ذلك إلا البحث بنهم عن عابر لها ليعبرها حتى يظهر له أثر هي أم خير، ولو وقف كل واحد منّا عند الهدى النبوي مع الرؤيا، لما رأينا مثل هذه الجلبة، ولا

مثل هذا التعلق الشاغل الذي استثمرته بعض المجامع والمنتديات، فضلاً عن الفضائيات التي جعلته وسيلة جذب واستقطاب لمشاهديها من خلال هذا الطعم.

ولأجل أن نقف جميعاً على صورة مثلى للتعامل مع الرؤى المتكاثرة، فلنستمع إلى جملة من الآداب المرعية تجاه هذه الظاهرة الناخرة في المجتمع:

فقد روى مسلم في «صحيحه»؛ أن أباسلمة قال: كنت أرى الرؤيا أعرى منها - أي: أمرض منها - غير أنني لا أزل، حتى لقيت أبا قتادة، فذكرتُ ذلك له؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الرؤيا من الله، والحلمُ من الشيطان، فإذا حلم أحدكم حلماً فلينفث عن يساره ثلاثاً، وليتعوذ بالله من شرها؛ فإنها لن تضره». وفي رواية عند مسلم أيضاً، قال أبوسلمة: إن كنت لأرى الرؤيا أثقل عليّ من جبل؛ فما هو إلا أن سمعتُ بهذا الحديث فما أباليها.

ومن هنا عباد الله، فما كل ما يراه النائم يعد من الرؤيا التي لها معنى تفسر به؛ إذ إن ما يراه النائم في منامه يتنوع إلى ثلاثة أنواع لا رابع لها؛ كما عند ابن ماجه من حديث عوف بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن الرؤيا ثلاث: منها أهوئيلُ من الشيطان ليحزنَ بها ابن آدم، ومنها ما يهْمُ به الرجلُ في يقظته فيراه في منامه، ومنها جزءٌ من ستة وأربعين جزءاً من النبوة».

يقول البغوي رحمه الله : في هذا الحديث: بيان أنه ليس كل ما يراه الإنسان في منامه يكون صحيحاً، ويجوز تعبيره، إنما الصحيح منها ما كان من الله عز وجل، وما سوى ذلك أضغاث أحلام لا تأويل لها.

ومثال هذه الأضغاث عباد الله: ما رواه مسلم في «صحيحه» أن أعرابياً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، رأيت في المنام كأن رأسي ضرب فتدحرج فاشتددت على أثره؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للأعرابي: «لا تحدّث الناس بتلعب الشيطان بك في منامك».

وأما موقف المرء من هذا النوع من الرؤى، وهو الغالب على حال الكثيرين: فإنه قد جاء في السنة آدابٌ خاصّة به في أحاديث صحيحة في الصحيحين وغيرهما وهي: التعوذ بالله من شر هذه الرؤيا، ومن شر الشيطان، وأن يتفل الرائي - حين يهب من نومه - ثلاثاً عن يساره، وألاً يذكرها لأحد أصلاً، وأن يصلي ما كتب له، وأن يتحول من جنبه الذي كان عليه، وزاد بعض أهل العلم قراءة آية الكرسي؛ لما صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أن من قرأها لا يقربه شيطان، وهذا النوع من الرؤى إنما هو من الشيطان.

قال النووي رحمه الله : وينبغي أن يجمع الرائي بين هذه الآداب كلها، ويعمل بجميع ما تضمنته الروايات، فإن اقتصر على بعضها، أجزأه في دفع ضررها بإذن الله؛ كما صرّحت بذلك الأحاديث.

وأما النوع الثاني من الرؤى: فهو ما يحدث المرء به نفسه في يقظته، كمن يكون مشغولاً بسفر أو تجارة أو نحو ذلك، فينام فيرى في منامه ما كان يفكر فيه في يقظته، وهذا من أضغاث الأحلام التي لا تعبير لها.

فلا يبقى إلا النوع الثالث: وهو الرؤيا الصادقة الصالحة التي تكون من الله، وهي التي تكون بشارة أو نذارة، وقد تكون واضحة ظاهرة لا تحتاج إلى تأويل؛ كما رأى إبراهيم أنه يذبح ابنه في المنام، وقد تكون خافية برموز تحتاج فيها إلى عابر يعبرها، كرؤيا صاحب السجن مع يوسف عليه السلام؛ وهذا النوع هو الذي نهى رسول الله ﷺ أن يقص إلا على عالم أو ناصح؛ فقد قال ﷺ: «لا تُقصَّ الرؤيا إلا على عالم أو ناصح» [رواه الترمذي].

وما عدا ذلك من الرؤى، والتي تتعلق بإثبات شيء من أحكام الشريعة، في حلال أو حرام، أو فعل عبادة أو تحديد ليلة القدر مثلاً، وهي التي أريها النبي ﷺ ثم أنسيها، أو تلك الرؤى التي يبنني عليها آثار متعدية تتعلق بحقوق الناس وحرمتهم وإساءة الظنون بهم، من خلال بعض الرؤى مثلاً، أو الحكم على عدالتهم ونواياهم من خلالها:- فإن ذلك كله من أضغاث الأحلام، ومن الظنون التي لا يجوز الاعتماد عليها في قول جمهور أهل العلم؛ كالشاطبي، والنووي، وابن تيمية، وابن القيم، وابن حجر، وغيرهم.

وقد ذكر الشاطبي في «الاعتصام» أن الخليفة المهدي أراد قتل شريك بن عبدالله القاضي، فقال له شريك: ولم ذلك يا أمير المؤمنين، ودمي حرام عليك؟ قال: لأنني رأيتُ في المنام كأنني مقبلٌ عليك أكلّمك، وأنت تكلمني من قفاك، فأرسلت إلى المعبر فسألته عنها؟ فقال: هذا رجلٌ يَطأُ بساطك وهو يسر خلافاً، فقال شريك: يا أمير المؤمنين، إنَّ رؤياك ليست رؤيا يوسف بن يعقوب، وإنَّ دماء المسلمين لا تسفك بالأحلام، فنكس المهدي رأسه، وأشار إليه بيده أن اخرج فانصرف.

وقد ذكر ابن عساكر في «تاريخ دمشق» أن بعضهم رأى في المنام الشافعي رحمته الله فقال له: «كذب عليّ يونس بن عبد الأعلى في حديث... ما هذا من حديثي ولا حدثت به»، فقال الحافظ ابن كثير معلقاً على هذا الكلام: يونس بن عبد الأعلى من الثقات، لا يطعن فيه بمجرد منام.

وقد نقل الذهبي عن المروزي قال: أدخلت إبراهيم الحصري على أبي عبدالله أحمد بن حنبل وكان رجلاً صالحاً فقال: «إن أُمِّي رأت لك مناماً هو كذا وكذا، وذكرت الجنة، فقال: يا أخي، إن سهل بن سلامة كان الناسُ يخبرونه بمثل هذا، وخرج إلى سفك الدماء، وقال: الرؤيا تسرُّ المؤمنَ ولا تغرُّه».

ألا فاتقوا الله معاشر المسلمين واستغفروه؛ إنه كان غفّاراً.

الخطبة الثانية

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله
وصحبه ومن اهتدى بهداه.

أما بعد:

فيا أيها الناس، إن من باب الإنصاف والمصارحة والتّضح،
ألا نُلقِيَّ باللائمة كلها في موضوع الرؤيا والإفراط فيها على آحاد
الناس فحسب، بل لا بد من تعدية الأمر إلى العابرين الذين يعبرون
الرؤى؛ إذ عليهم مسؤولية عظمى تجاه الرائيين، فلا بد للعابر أن
يكون عالماً بهذا العلم، وأن يدرك المصالح والمفاسد في هذا
الميدان، وألا يُنصَّب نفسه للفتيا في الرؤى ويتطلع إليها، لاسيما
عبر الشاشات وفي المجامع الكبيرة، فتعبير الرؤى قرين الفتيا، وقد
قال الملك: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ﴾
[يوسف: ٤٣]، يقول ابن القيم: «المفتي والمعبر والطبيب، يطلعون
من أسرار الناس وعوراتهم على ما لا يطلع عليه غيرهم، فعليهم
استعمال الستر فيما لا يحسن إظهاره».

ثم إن على العابرين ألا يتسارعوا في التعبير، وألا يجزموا بما
يعبرون، وأن يعلموا خطورة هذا الجانب، وما يوصله إليهم من

الافتتان والإعجاب بالنفس، وتعظيم شأنهم فوق شأن المفتين وأهل العلم، وقد نقل ابن عبدالبر عن الإمام مالك؛ أنه سُئِلَ: أيعبر الرؤيا كل أحد؟ فقال مالك: أبالنبوة يُلَعَبُ؟!

وقد نقل ابن عبدالبر أيضاً عن هشام بن حسان أنه قال: كان ابن سيرين يُسأل عن مائة رؤيا، فلا يجيب فيها بشيء، إلا أنه يقول: اتق الله، وأحسن في اليقظة؛ فإنه لا يضرك ما رأيت في النوم، وكان يجيب في خلال ذلك ويقول: إنما أجيب بالظن والظن يُخطئ ويصيب.

فإذا كان هذا هو قول إمام المعبرين في زمانه وما بعده من الأزمان، فما الظن بمن جاء بعده؟! إننا نسمع بالمعبر يسأل عن ألف رؤيا لا تسمع مرة يقول: لا أدري، أو يقول: هذه أضغاث أحلام، أو يقول: هذه حديث نفس، إلا من رحم ربك.

كما أن على العابرين: أن يدركوا خطورة تعبير الرؤى من خلال الشاشات التي يراها الملايين من الناس، وكذا المجامع الممتلئة بالحشود، وذلك للأمور التالية:

أولها: أن الانفتاح المطلق في التعبير فيه نوع فتنة من أجل حديثه في أمور الغيب، لاسيما أن أحداً لا يستطيع أن يجزم بصحة ما يقوله العابر من عدمه إلا مَنْ رأى ذلك في واقعه؛ وهذا شبه متعسر عبر الشاشات.

وثانيها: تعذر معرفة حال الرائي عبر الشاشات والمجامع من حيث الاستقامة من عدمها، وهذا له صلة وثيقة بتعبير الرؤيا؛ فابن سيرين سأله رجلان كلُّ منهما رأى أنه يؤذَن؛ فعبرها للصالح منهما بالحج؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ [الحج: ٢٧]، وعبرها للآخر بأنه يسرق؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَدْنَىٰ أُذُنَ الْمُؤَذِّنِ أَيْتَهَا الْغَيْرُ إِنَّكُمْ لَسَّرُونَ﴾ [يوسف: ٧٠].

وثالثها: عدم إدراك عقول الناس لطريقة بعض العابرين للرؤيا لاسيما عبر الشاشات والمجامع؛ بحيث يكون تعبيرهم بصورة تجعل المستمع الجاهل لأول وهلة يقول: هذا تكهن أو تخمين أو عرافة؛ ونحن قد أمرنا بمخاطبة الناس على قدر عقولهم؛ فقد أخرج البخاري قول علي رضي الله عنه: «حدّثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يكذب الله ورسوله؟!»، وعند مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «ما أنت محدّثاً قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة».

ورابعها: أن درء المفسد مقدّم على جلب المصالح؛ فالمفسدة من خلال التعبير عبر الشاشات أشدّ من مصلحته؛ لأمر لا تخفى على متتبعها، لاسيما أنها في أمور غيبية، وأنها كالفنوى، والسلف الصالح كانوا يتدافعون الفنوى ما استطاعوا، ناهيك عن بعض الفساد المتحقّق من خلال ما يشاهد ويُسمع من تعبير رؤيا

لفتاة مثلاً بأنها ستفشل في نكاحها، أو لامرأة تعبر لها بأن زوجها تزوج عليها سرًا بامرأة أخرى؛ فما ظنكم بحال الأولى والأخرى؟! فهذه تترقب الفشل في كل حين، مع ضيق نفسها، وانشغال بالها، وتلك باهتزاز كيانها، والشك في زوجها المرة تلو الأخرى؛ ناهيكم عن يَرَيْنَ مثل هذه الرؤى، فيكتفين بما سمعنه من تعبير لغيرهنَّ، فَيَقْسِنَ عليه دون الرجوع إلى عابر عالم؛ اكتفاءً بما سمعنه أو شاهدنه؛ فتكون الطامة حينئذٍ، وقولوا مثل ذلك فيما يراه الرجال والشباب.

وأما ما يحتج به بعض الناس؛ من أن مسلماً روى في صحيحه: «أن رسول الله ﷺ كان كثيراً ما يسأل أصحابه بعد الفجر فيقول: من رأى منكم رؤيا». فيقول: من هذا من وجوه:

الوجه الأول: أن هذا رسول الله ﷺ، وتعبيره حق لا يشوبه شائبة.

الوجه الثاني: أن تعبيره كان في مسجد يحضره عدد ليس كالأعداد التي تعد بالملايين حينما يشاهد التعبير عبر الشاشات، وما ظنكم بحضور عند رسول الله ﷺ من الصحابة العقلاء الفضلاء مقارنةً بحضور عند غيره ﷺ؛ فأين الثرى من الثريا؟! مقارنةً بحضور عند غيره ﷺ؛ فأين الثرى من الثريا؟! مقارنةً بحضور عند غيره ﷺ؛ فأين الثرى من الثريا؟!

الوجه الثالث: أنه لم يثبت عن أحد من الصحابة كالخلفاء

الأربعة ولا مَنْ بعدهم من التابعين أنه كان يفعل في المسجد كما كان النبي ﷺ يفعل، لاسيما أبوبكر رضي الله عنه، وقد شهد له النبي ﷺ بأنه عارفٌ بتعبير الرؤى، وهو معدودٌ من المُعَبَّرِينَ عند كثير من أهل العلم.

ألا فاتقوا الله معاشر المسلمين، وراقبوه في السرِّ والعلَن،
والقصدَ القصدَ تفلحُوا.

اللهم صَلِّ على محمد...



بعد رمضان

الخطبة الأولى:

الحمد لله الحي القيوم، الدائم الذي لا يزول، هو الأول فليس قبله شيء، والآخر فليس بعده شيء، والباطن فليس دونه شيء، والظاهر فليس فوقه شيء، يُقَلَّبُ الليل والنهار عِبْرَةً لأولي الأبصار، ويداول الأيام بين الناس، وليعلم الذين آمنوا ويتخذ منهم شهداء والله لا يحب الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أفضل من خاف ربه، وصلّى فرضه، وصام شهره، وحجّ بيته، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ومن سار على طريقهم واتبع هُداهم إلى يوم الدين.

أما بعد:


فاتقوا الله معاش المسلمين، وراقبوه في السرّ والعَلَن، واعبدوه كأنكم ترونه، فإن لم تكونوا ترونه، فإنه يراكم، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ﴾ (٢١٧) الَّذِي يَرِنَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلِّبُكَ فِي السَّجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿الشعراء: ٢١٧ - ٢٢٠﴾.

عباد الله، إن في كَرِّ الأيام والليالي لعبرة، والأيام تمرُّ مرّاً السحاب، عشية تمضي، وتأتي بكرة، وحساب يأتي على مثقال الذرّة، والناس برمتهم منذ خُلِقُوا لم يزلوا مسافرين، وليس لهم

حَطُّ عن رِحَالِهِمْ إِلَّا فِي الْجَنَّةِ أَوْ فِي السَّعِيرِ، أَلَا وَإِنْ سُرْعَةَ حَرَكَةِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَتَتَوَكَّدُ تَقَارُبَ الزَّمَانِ الَّذِي هُوَ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ؛ كَمَا صَحَّ بِذَلِكَ الْخَبْرُ عَنِ الصَّادِقِ الْمَصْدُوقِ صَلَوَاتِ اللَّهِ وَسَلَامِهِ عَلَيْهِ، وَهَذَا كُلُّهُ - عِبَادَ اللَّهِ - يُعَدُّ فُرْصَةً عَظْمَى لِإِيقَاطِ ذَوِي الْفِطَنِ وَأَصْحَابِ الْحِجَى، لِفِعْلِ الْخَيْرِ وَالتَّوْبَةِ النَّصُوحِ، وَإِسْدَاءِ الْمَعْرُوفِ، وَتَرْكِ مَا يَشِينُ؛ ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾ [الفرقان: ٦٢]، لَقَدْ ظَلَّ الْمُسْلِمُونَ جَمِيعًا شَهْرًا كَامِلًا يَنَالُونَ مِنْ نَفَحَاتِ رَبِّهِمْ، وَيُرُونَ اللَّهَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ، مُتَقَلِّبِينَ فِي ذَلِكَ بَيْنَ دَعَاءٍ وَصَلَاةٍ وَذِكْرٍ وَصَدَقَةٍ وَتِلَاوَةِ الْقُرْآنِ، وَلَكِنْ سُرْعَانَ مَا انْقَضَتِ الْأَيَّامُ، وَتَلَاشَتِ الذِّكْرِيَّاتُ، وَكَأَنَّهَا أَوْرَاقُ الْخَرِيفِ عَصَفَتْ بِهَا الرِّيحُ عَلَى أَمْرٍ قَدِ قَدِرَ، أَوْ بِلَابِلُ دَوْحٍ قَدْ هَدَأَ تَغْرِيدَهَا، وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ.

أيها المسلمون، إِنْ مَن يِقَارِنِ أَحْوَالِ النَّاسِ فِي رَمَضَانَ وَبَعْدَ رَمَضَانَ لِيَأْخُذَ الْعَجَبُ مِنْ لُبِّهِ كُلِّ مَأْخُذٍ، حِينَمَا يَرَى مَظَاهِرَ الْكَسْلِ وَالْفُتُورِ وَالتَّرَاجُعِ عَنِ الطَّاعَةِ فِي صُورَةٍ وَاضِحَةٍ لِلْعِيَانِ، وَكَأَنَّ لِسَانَ حَالِهِمْ يَحْكِي أَنَّ الْعِبَادَةَ وَالتَّوْبَةَ وَسَائِرَ الطَّاعَاتِ لَا تَكُونُ إِلَّا فِي رَمَضَانَ، وَمَا عَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ هُوَ رَبُّ الشُّهُورِ كُلِّهَا، وَمَا شَهَرَ رَمَضَانَ بِالنِّسْبَةِ لِغَيْرِهِ مِنَ الشُّهُورِ إِلَّا مَحَطُّ تَزَوُّدٍ وَتَرْوِيضٍ عَلَى الطَّاعَةِ وَالمَصَابِرَةِ عَلَيْهَا، إِلَى حِينِ بُلُوغِ رَمَضَانَ الْآخِرِ، وَلَا غَرْوَ

في ذلك عباد الله؛ فالله جلّ وعلا أتبع فرض الصيام على عباده بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

ومن هنا - عباد الله - كان لزاماً علينا أن ننظر إلى حقائق العبادات وآثارها، لا إلى صورها ورسومها؛ إذ كم من مجهد نفسه كان حظه من صيامه الجوع والعطش!! وكم من مواصل للعبادة فيه، فكان حظه فيه التعب والسهر!! وأكد ما يدل على ذلك حينما يسائل الناس أنفسهم: كم مرة قرأوا القرآن في رمضان؟ وكم سمعوا فيه من حِكْم ومواعظ وعِبَر؟ ألم يسمعوا كيف فعل ربُّهم بعباد، ﴿إِرمَ ذَاتَ الْعِمَادِ﴾  أَلَّتِي لَمْ يَخْلُقْ مِثْلَهَا فِي الْبَلَدِ ﴿ [الفجر: ٧، ٨]؟! ألم يقرأوا صيحة عاد، وصاعقة ثمود، وخسف قوم لوط؟! ألم يقرأوا الحاقة، والزلزلة، والقارعة، وإذا الشمس كورت؟! فسبحان الله، ما هذا الرّانُ الذي على القلوب؟! ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

أَفَقَدَّتْ قلوبنا بعد ذلك من حجر؟! أم خُلِقَتْ من صخر صلد؟! ألا فليت شعري أين القلب الذي يخشع والعين التي تدمع؟! فله كم صار بعضها للغفلة مرتعاً، وللأنس والقربة خراباً بلقعا!! وحينئذٍ لا الشاب منا ينتهي عن الصبوة، ولا الكبير فينا يلتحق بالصفوة، بل قد فرطنا في كتاب ربنا في الخلوة والجلوة!! وصار بيننا وبين الصفاء أبعد ما بين الصفا والمروءة؛ فلا حول ولا

قوة إلا بالله؛ ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ [٢١] إِنَّ الَّذِينَ
 أَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ ﴿
 [محمد: ٢٤، ٢٥].

ألا فاعلموا - يا رعاكم الله - أن من قارب الفتور والكسل،
 بَعْدَ عنه النصب والاجتهاد، ومن ادَّعى الترويح والتسلية، وُكِّلَ إلى
 نفسه، ومن وُكِّلَ إلى نفسه، فقد وُكِّلَ إلى ضيعة، فإياك إياك - أيها
 المسلم - أن تغترَّ بعزمك على ترك الهوى في رمضان بمقاربة الفتنة
 بعده؛ فإن الهوى مكائد، وكم من صنيديد شجاع في غبار الحرب
 اغتيل، فأتاه ما لم يحتسب ممن يأنف النظر إليه، واذكروا -
 رحمكم الله - حمزة مع وحشي، رضي الله عنهما.

إن من وقع في التقصير بعد التمام، أو تمكَّنت منه الذنوب
 بعد الإقلاع عنها، لهو أبعد ما يكون عن الفوز بالطاعة، ولو غشَّ
 نفسه بعبادات موسمية ذات خداج، إلا أنها لا تبرح مكانها، بل
 لربما وجد معها خفي العقوبة الرئيس، وهو سلبُ لذة المناجاة
 وحلاوة التعبد، إلا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات من عباد رب
 الشهور كلها بواطنُهُمْ كظواهرهم، شوالهم كرمضانهم، الناسُ في
 غفلاتهم، وهو في قطع فلاتهم، وحينئذٍ أَخْلَقَ بذي الصَّبْرِ أن
 يَحْظَىٰ بِحاجتِهِ، ومُذْمِنِ القَرَعِ للأبوابِ أن يَلْجَأَ، ولأجل هذا لم
 يكن العجب في أن يَغْلِبَ الطَّبَعُ، وإنما العجب في أن يُغْلَبَ

الطبع، وأمثال هؤلاء هم - ولا شك - ممن يسرون على هدي المصطفى ﷺ في المداومة على الطاعة.

نعم! لرمضان ميزةٌ وخصوصية في العبادة ليست في غيره من الشهور، بيد أنه ليس هو محل الطاعة فحسب؛ ولذلك كان النبي ﷺ جواداً في كل حياته، غير أنه يزداد جودُهُ إذا حلَّ رمضان، ناهيكم عن أن الرجوع والنكوص عن العمل الصالح هو مما استعاذ منه النبي ﷺ بقوله فيما صحَّ عنه: «وأعوذُ بك من الحَوْر بعد الكور»، والله جل وعلا يقول: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَّضَتْ غَزَلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَا﴾ [النحل: ٩٢]؛ إذ لم يقصر الخير على شهر رمضان فحسب، بل إن هذا كله إنما هو استجابة لأمر ربه جل وعلا بقوله: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]، فلا منتهى للعبادة والتقربِ إلى الله إلا بالموت.

وإنَّ مما لا شك فيه أن هناك ضعفاً في البشر لا يملكون أن يتخلَّصوا منه، وليس مطلوباً منهم أن يتجاوزوا حدود بشريتهم، غير أن المطلوب أن يستمسكوا بالعروة الوثقى التي تشدهم إلى الله في كل حين، وتجعل من التدبُّن في جميع جوانب الحياة عندهم ثقافة وأسرة وإعلاماً من الثوابت التي لا تتغير، ولا تخدع بها النفس في موسم ما دون غيره؛ كما أنها تمنعهم في الوقت نفسه - بإذن الله - من التساقط والتهالك، وتحرسهم من الفترة بعد الشِّرة

مهما قلت، ما كانت هي على الدوام؛ فرسول الله ﷺ يقول: «يا أيها الناس، خذوا من الأعمال ما تطيقون؛ فإن الله لا يملُ حتى تملوا، وإن أحب الأعمال إلى الله ما دام وإن قلَّ» [رواه البخاري ومسلم].

ولأجل هذا أيها المسلمون، فإن هناك عبادات هي من الثوابت التي لا تتغير بعد رمضان؛ كالصلاة، والزكاة، والصدقة، وكذا الدعاء لنفسك ولمن أوصاك به ولإخوانك في الملة والدين من المعوزين والمستضعفين والمجاهدين، ناهيك عن ثابت التوبة المطلوبة في كل حين وأن، والتي أمرنا الله بها في قوله: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١]، وكان يتأولها النبي ﷺ بقوله: «إني لأستغفرُ الله وأتوبُ إليه في اليوم مائة مرة».

إذن عرفت أيها المرء هذه الأمور كلها، ولقد أحسن من انتهى إلى ما سمع أو علم، ولقد ذُقت طعم العبادة في رمضان ولذة القرب من الله؛ فلا تعكّرَنَّ هذا الصفو بالكدر، والهناء بالشقاء، والقرب بالبعد.

إن البقاء على الطاعة في كل حين، أو التهاون عنها كراتٍ ومراتٍ، ليعودان في المرء - بإذن الله - إلى القلب، وهو أكثر الجوارح تقلباً في الأحوال حتى قال فيه المصطفى ﷺ: «إنما سمِّي

القلب من تقلبه، إنما مثلُ القلب كمثل ريشةٍ في أصل شجرة يقبلها
الريح ظهراً على بطن» [رواه أحمد]، ولأجل هذا كان من دعائه ﷺ:
«يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك» [رواه الإمام أحمد].

وبعدُ يا رعاكم الله، فإنَّ من حق نفسك عليك - أيها المرء -
أن تفرحَ بعيدها؛ فالله جلَّ وعلا جعل الفرح والروح في الرضا
واليقين، وجعل الغم والحزن في السخط والشك، وساخط العيش -
عباد الله - هو في الحقيقة كثير الطيش، وكأن الدنيا في عينه سمُّ
الخيَّاط، حتى يكون حَرَضاً أو يكون من الهالكين، والعيد - عباد
الله - مسرحٌ للاستئناس البريء، البعيد عن الصخب والعطب، بيتاً
ومجتمعاً وإعلاماً، ومتى تجاوز الناسُ حدودَ الله في أعيادهم من
لهو محرَّم، وإيذاء للآخرين بالضجيج والأهازيج، فما قدروا الله
حق قدره، وما شكروه على آلائه، ولقد رأى أحد السلف قوماً
يعبثون في يوم عيد بما لا يُرضي الله فقال: «إن كان هؤلاء تقبَّل
منهم صيامهم، فما هذا فعل الشاكرين، وإن كانوا لم يتقبَّل منهم
صيامهم، فما هذا فعل الخائفين»، ورحم الله ابن القيم حين قال
عن الفرح: إن الله عز وجل سيسوق هذه البضاعة إلى تُجَّارها،
ومن هو عارف بقدرها، وإن وقعت في الطريق بيد من ليس عارفاً؛
فَرُبَّ حامل فقه ليس بفقيه، ورُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه؛

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾

[الجمعة: ١١].

فعلى المسلم إذاً ألا يكون مفراحاً إلى درجة الإسراف؛ لأن الله لا يحب الفرحين من أمثال هؤلاء؛ إذ بمثل هذا الفرح يتولد الأشر والبطر؛ ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿ مِنْ شَرِّ أَلْوَسَايَ الْخَنَاسِ ﴾ [الناس: ٤]؛ فقد قال بعض المفسرين: إن الشيطان الوسواس ينفث في قلب ابن آدم عند الحزن وعند الفرح، فإذا ذكر الله خنس.

ألا فاتقوا الله معاشر المسلمين، والله الله في الانضباط حال الفرح والسرور والابتهاج؛ فالمؤمن الصادق لا يفرح إلا فرح الأقوياء الأتقياء، وهو في الوقت نفسه لا يبغي ولا يزيغ، ولا ينحرف عن الصواب، ولا يفعل فعل أصحاب النار الذين قال الله فيهم: ﴿ ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ [غافر: ٧٥]، وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «كل يوم لا يعصي فيه العبد ربه، فهو عيد».

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...



الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده،
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده
ورسوله.

أما بعد:

فاتقوا الله أيها المسلمون، واعلموا أن الشارع الحكيم قد سنَّ
لكم صيام الست من شوال، وجعل ذلك من متابعة الإحسان
بالإحسان؛ فقد قال النبي ﷺ: «مَنْ صَامَ رَمَضَانَ، وَأَتْبَعَهُ بَسْتٌ مِنْ
شَوَالٍ، كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ كُلِّهِ» [رواه مسلم].

ووجه كون صيام الست بعد رمضان كصيام الدهر هو أن الله
جل وعلا جعل الحسنه بعشر أمثالها؛ كما في قوله: ﴿مَنْ جَاءَ
بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، فصيام رمضان يعد مضاعفاً
بعشرة شهور، وصيام الست بستين يوماً؛ فيتحصل من ذلك أجر
صيام سنة كاملة.

والأفضل في صيام هذه الست: أن تكون على الفور بعد يوم
العيد، وأن تكون متتالية، ومن فرَّق بينها فلا بأس، ومن أخرها إلى
وسط الشهر أو آخره فلا بأس، وهي ليست واجبة، ولا صحة لما

يظنه بعض العوام من أن مَنْ صامها سنة وجبت عليه في السنين الأخرى، بل هي سُنَّةٌ؛ مَنْ فعلها أثيب عليها، ومَنْ تركها فلا شيء عليه، ومَنْ كان مواظباً عليها في كل عام ثم مرض أو سافر في عام آخر، فإنها تكتب له وإن لم يصمها؛ لقول النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «إِذَا مَرِضَ الْإِنْسَانُ أَوْ سَافَرَ، كَتَبَ لَهُ مَا كَانَ يَعْمَلُ صَاحِبًا مُقِيمًا».

كما أنه لا يجوز تقديم صيام الست على أيام القضاء من رمضان؛ لأن من شروط حصول أجر الست من شوال أن يكون المرء قد صام رمضان بأكمله، وبذلك يكون المرء كأنما صام عاماً بأكمله.

ثم إن من أراد الزيادة ومضاعفة الأجر فليحافظ على صيام أيام البيض من كل شهر، وهي يوم الثالث عشر، والرابع عشر، والخامس عشر من كل شهر؛ فلقد صحَّ في السُّنَنِ أن النبي ﷺ جعل صيامها كصيام الدهر، أي: كسنة كاملة، والسنة فيها اثنان وأربعون يوماً من الأيام البيض فقط، ويضاف إليها ستة وثلاثون يوماً لرمضان، وست من شوال، فيكون صيام ثمانية وسبعين يوماً في السنة يعدل صيام سنتين كاملتين، أي: أكثر من سبعمائة يوم، ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد: ٢١].

اللهم صلِّ على محمد...

خطبة عيد الأضحى

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي لا يبلغ مدْحَتَهُ القائلون، ولا يحصي نعماءه العادُّون، ولا يؤدِّي حقه المجتهدون، أحمدُه سبحانه استتماماً لنعمته، واستسلاماً لعزِّته، واستعصاماً من معصيته، وأستعينه فاقه إلى كفايته، إنه لا يضلُّ من هداه، ولا يئثل من أعاده، ولا يفتقر من كفاه، له الحمد، فرَضَ علينا حج بيته الحرام، الذي جعله قبلةً للأنام، يرِدُّونه رجالاً وركباناً كل عام، ويالهون إليه ولوه الحمام، جعله سبحانه علامة لتواضعهم لعظمته، وإذعانهم لعزته، فاختر من خلقه سُماعاً أجابوا إليه دعوته وصدقوا كلمته، ووقفوا موقف أنبيائه، يُحرِّزون الأرباح في متجر عبادته، ويتبادرون عند موعد مغفرته، جعله سبحانه وتعالى للإسلام علماً، وللقاصدين حرماً، فرَضَ حجه، وأوجب حقه، وكتب علينا وفادته.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة نتمسك بها أبداً ما أبقانا، ونندِّخرها لأهاويل ما يلقانا؛ فإنها عزيمة الإيمان، و فاتحةُ الإحسان، ومرضاة الرحمن، ومدحرة الشيطان، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالدين المشهور، والعلم المأثور، والكتاب المسطور، والنور الساطع، والضيء اللامع،

والأمر الصادع، إزاحةً للشبهات، واحتجاجاً بالبينات، وتحذيراً بالآيات، وتخويفاً بالمثَلات، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى أصحابه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

الله أكبر الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر الله أكبر والله الحمد، الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً.

الله أكبر عدد ما ذكره الحاجُّون وبكوا، والله أكبر عدد ما طافوا بالبيت الحرام وسَعَوْا، الله أكبر عدد ما زهرت النجوم، وتلاحمت الغيوم، والله أكبر عدد ما أمطرت السماء، وعدد ما غسق واقب أو لاح ضياء، الله أكبر عدد خلقه وزنه عرشه ومداد كلماته، الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر كبيراً.

أما بعد:

فيا أيها المسلمون، ويا حجاج بيت الله الحرام، أوصيكم ونفسي بتقوى الله سبحانه، فاتقوه في المنشط والمكروه، والغضب والرضا، والخُلوة والجلوة، واعلموا أنه قد اجتمع لكم في هذا اليوم عيدان: عيد الأضحى، وهو يوم الحج الأكبر، وعيد الأسبوع وهو يوم الجمعة؛ فأكثرُوا من الشكر لله جل وعلا، وبادروا بالأعمال قبل انقطاعها، واعلموا أن الله غفور رحيم.

أيها المسلمون، إن الناس مازالوا منذ أذن فيهم إبراهيم عليه السلام بالحجّ يفتدون إلى بيت الله الحرام في كل عام من أصقاع الأرض كلها، وأرجاء المعمورة جميعها، مختلفة ألوانهم، متميزة ألسنتهم، متباينة بلدانهم، يفتدون إليه وأفتدتهم ترف إلى رؤية البيت العتيق، والطواف به، ويستوي في ذلك الغني والفقير، والقادر والمعدم، كلهم يتقاطرون إليه تلبية لدعوة الله التي أذن بها إبراهيم عليه السلام؛ ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧].

إن الحجاج إذ يستبدلون بزيتهم الوطني زي الحج الموحد، ويصبحون جميعاً بمظهر واحد لا يتميز شرفيهم عن غربيهم، ولا عربيهم عن عجميهم، كلهم لبسوا لباساً واحداً، وتوجهوا إلى رب واحد، بدعاء واحد، وتلبية واحدة، «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك».

تراهم يلبون وقد نسوا كل الهتافات الوطنية، وخلفوا وراءهم كل الشعارات القومية، ونكسوا كل الرايات العصبية والعبيية، ورفعوا راية واحدة، هي راية «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، يطوفون حول بيت واحد، يؤذون سُكاً واحداً.

الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، الله أكبر الله أكبر والله الحمد.
إن الله عز وجل يوم شرع الحج للناس أراد فيما أراد من

الحِكم أن يكونوا أُمَّةً واحدةً، متعاونةً متناصرةً، متآلفةً متكاتفه
كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد
بالحمى والسهر.

إن الحج سلام حقيقي برمته، إنه سلام غير مزيف، يدخل
فيه المسلم مدة هذا التُّسك، فيتعلّم من خلاله احترام حق الحياة
لكل مسلم حيٍّ مهما كانت درجة حياته، فلا يتعدّى على أحد، ولا
يظلم أحداً، ولا يبغى على أحد.

إن كل عاقل ومنصف يشهد بالله أن السلام الحقيقي،
والتعاون القلبي والروحي، والتعاون على البرِّ والتقوى، لا ظل له
في الواقع إلا في الإسلام، ومن خلال الإسلام وتاريخ الإسلام،
وأما غير المسلمين من شتى الأمم ومختلف الديانات: فإن أقوالهم
معسولة، وأفعالهم مسمومة فيما يدعون إليه؛ إذ جعلوا مفهوم
حقوق الإنسان عندهم مبنياً على فتح باب الحريّات على مصراعيه،
حسب ما يقتضيه المفهومُ العُلْماني عندهم، والذي يرفض شرعة الله
وصبغته، بل يتم به تدميرُ الأخلاق، وإشاعةُ فوضى الغرائز، ثم هم
يزعمون أنها برمّتها تعني مبادئ الحضارة والتقدم والرُّقي، من
خالفها وكابر فيها، رموهُ بأنه مخالف لحقوق الإنسان، وهي ليست
من الحقوق في ورْدٍ ولا صَدْرٍ، ولا هي من بابتها، بل إن حلوها
مر، وسهلها صعب، ودمايتها دميمة.

ويا لله! لقد صدقوا ظنهم؛ فاتبعهم أعرار ولهازم من مفكرين وكتب في العلوم السياسية والاقتصادية والقانونية وعلم الاجتماع، وجملة من هؤلاء هم في الحقيقة أشياخٌ لدعوات الغرب ولدات، يتسللون لؤاداً عن أصول دينهم، فيشوشون في التشريع، ويهوشون في الحدود، وليس غريباً أن تتبدى خطوط مثل هذه القضية عبر هذه الفتن المتلاطمة، ولا يظن بالطبع أن ما بقي من ألوانها ورسومها بمعجزنا أن نتخيله، فمواقعوها هم صنف من الناس يتمددون بالحرية، وينكمشون بالإسلام، وكفاكم من شرِّ سماعه، وتلكم شمالةً نعيذكم بالله من غوائلها.

لقد طب أصحاب تلك الدعوات زكاماً، فما أحدثوا في الحقيقة إلا جذاماً، وحلُّوا بزعم منهم عقداً، وبالذي وضعوه زادت العقد، فكم يقتل من المسلمين! وكم تنزع من حريات! وكم يعتدى على حقوق! في حين أن دعاة حقوق الإنسان يخفضون جناح الذل من رحمتهم وعدلهم المزعوم، على دعم وتحسين منظمات عالمية لمحبي الكلاب وأصدقاء الحيوانات الأليفة، فتفتح الصوالين للكلاب ليقوم أخصائيون بقص شعرها وتزيينها وتعطيرها، وفي المقابل - عباد الله - تفتح الصوالين الدموية التي يقصون من خلالها شعور البشر المسلمين، ويحلقون أديانهم، ويغتصبون أرضهم وديارهم وأموالهم، فليت مخبراً يخبرنا: أتكون الكلابُ

المكلّبة أهمّ وأعظم من قُطِرِ إسلامي بأسره تعدو عليه حُثالة لئيمة من ذئاب البشر، وعبد الطاغوت، فيقتلون الشيوخ والأطفال، ويُرْمَلُونَ النساء في مسرى رسول الله ﷺ، وفي غيره من أراضي المسلمين، ولا حول ولا قوة إلا بالله؟!

إنهم بذلك هم قَتَلَةُ الإنسان، وهم حُماة حقوق الإنسان المجرم.

الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، الله أكبر الله أكبر والله الحمد،
الله أكبر الله أكبر كبيراً.

أيها المسلمون، حجاج بيت الله الحرام، ما أحوج البشرية في هذا العصر وهي تكتوي بلهب الصراعات الدموية والنزاعات الوحشية، ما أحوجها وهي تلتفت لبيت الله الحرام، إلى أن تُخَلِّصَ نفوس أبنائها من الأنانية والبغضاء، والكرهية والشحناء، وترتقي إلى أفق الإسلام السامي، فتتعلم الحياة بسلام ووثام؛ كما أراد الله لعباده المؤمنين؛ ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَ تَكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾

إنه بهذه الصفة وتلك الجموع يُقَرَّرُ الإسلام أنه ليست هناك دواعٍ معقولةٌ تحمل الناس على أن يعيشوا متناكرين، بل إن الدواعي القائمة على الطريق الحق تمهد للمسلمين مجتمعاً

متكافلاً، تسوده المحبة، ويمتد به الأمان على ظهر الأرض كلها،
 والله عز وجل ردَّ أنساب الناس وأجناسهم إلى أبوين اثنين؛ ليجعل
 من هذه الرحم ملتقى تتشابك عنده الصلات، وتستوثق العرى؛
 ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾
 [الحجرات: ١٣]، إنه التعارف لا التنافر، والتعاون لا التخاذل،
 فالأرض أرض الله، والكل عباد الله، وليس هناك إلا ميزان واحد
 تتحدَّد به القيم، ويُعرف به فضل الناس؛ ألا وهو التقوى؛ ﴿إِنَّ
 أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، ألا إن الكريم حقاً هو
 الكريم عند الله، فهو يزنكم عن علم وخبرة؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾
 [الحجرات: ١٣].

الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، الله أكبر الله أكبر والله الحمد.
 حجاج بيت الله الحرام، بيتُ الله العتيق ما برح يطاول الزمان
 وهو شامخ البنيان، في مناعة من الله وأمان، بناه إبراهيم وابنه
 إسماعيل عليهما السلام، إعلاناً للتوحيد الخالص؛ إذ بناؤه مرهون بتوحيد
 الله؛ حيث قال جلَّ وعلا: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا
 تُشْرِكْ بِي شَيْئًا﴾ [الحج: ٢٦]، فمن أجل التوحيد بني بيت الله؛
 لئلا يُعبدَ إلا هو وحده، فقد حطَّم المصطفى صلى الله عليه وآله الأصنام من حول
 الكعبة، وعلى رأسها أعلاها وأعظمها هُبُل، وهو يُردِّد: ﴿وَقُلْ جَاءَ
 الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

لقد تمثل التوحيد في الحج من خلال التلبية، وفي قراءة سورة الكافرون، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ في ركعتي الطواف، وتمثل في خير الدعاء، وهو دعاء يوم عرفة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير.

إذاً فالتوحيد - عباد الله - هو لباب الرسالات السماوية كلها، وهو عمود الإسلام وشعاره الذي لا ينفك عنه، وهو الحقيقة التي ينبغي أن نغار عليها ونصونها من كل شائبة، فالتوحيد وسيلة كل نجاح، وشفيع كل فلاح، يصير الحقيق شريفاً، والوضيع غطريفاً، يطول القصير، ويقدم الأخير، ويعلي النازل، ويشهر الخامل، وما شيد ملك إلا على دعائه، ولا زال ملك إلا على طواسمه، ما عزت دولة إلا بانتشاره، ولا زالت وذلت إلا باندثاره.

ألا وإن معظم الشرور والنكبات التي أصابت أمة الإسلام، وأشد البلايا التي حلت بها إنما كانت بسبب ضعف التوحيد في النفوس، وما تسلط من تسلط من الأعداء، وتعجرف من تعجرف، وغار من غار على حياض المسلمين، واستأصل شأفتهم، إلا بسبب ضعف التوحيد، وما تأريخ التار عن المسلمين بغائب، حيث بلغ الضعف في نفوس كثير من المسلمين آنذاك مبلغاً عظيماً بسبب ضعف التوحيد، حتى ذكر بعض المؤرخين أن الجموع من المسلمين إبان الهجوم التتري لبلاد الإسلام كانوا يرددون: «يا خائفين من

التَّشْرُ، لَوذُوا بِقَبْرِ أَبِي عُمَرَ، عُوذُوا بِقَبْرِ أَبِي عُمَرَ، يَنْجِيكُمْ مِنْ الضَّرَرِ»، ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ [الكهف: ٥]، ﴿ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام: ١٧].

لقد ابتلي كثير من الناس بالجهل بالتوحيد حتى لم يعرفوا حق الله وحق العبد، ومزجوا بعض ما لله فجعلوه للعبد حتى انحاز بعضهم إلى أصحاب القبور، وتضرعوا أمام أعتابها وتمسحوا بها، واستغاثوا بأهلها في الشدائد والكروب، بل لقد كثر مرؤجوها والداعون إليها، من قبوريين ومخرفين، والذين يخترعون حكايات سمجة عن القبور وأصحابها، وكرامات مختلفة لا تمتُّ إلى الصِّحَّةِ بنصيب، بل لقد طاف بعضهم بالقبور كما يُطاف بالكعبة المعظمة، وأوقفوا الأموال الطائلة على تلك الأضرحة حتى إنه لتجتمع في خزائن بعض المقبورين أموالٌ يصعب حصرها، فيا لله كيف أن أحياءهم لا يكرمون بِدِرْهِمٍ واحد، وبألف ألف قد يكرم أمواتهم؟!!

لقد قَصَّرَ أناسٌ مع التوحيد فتقاذفتهم الأهواء، واستحوذت عليهم الفتن والأدواء، فمِنَ مفتون بالتمائم والحروز يعلِّقها عليه وعلى عياله، بدعوى أنها تدفع الشر، وتذهبُ بالعين، وتجلب الخير، والله تعالى يقول: ﴿ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام: ١٧].

لقد قَصَّرَ جَمْعٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مَعَ التَّوْحِيدِ، فَافْتَنُوا

بالمشعوذين والدجاجلة الأفاكين، من سحرة وعرّافين ونحوهم،
والذين يأكلون أموال الناس بالباطل بدعوة أنهم يكشفونهم بأمور
الغيب، فيما يسمّى بمجالس تحضير الأرواح، أو قراءة الكف
والفنجان، ليكاشفوا الناس على حدّ زعمهم عمّا سيحدث في
العالم خلال يوم جديد، أو أسبوع سيطلّ، أو شهر أو شكّ حلوله،
أو عام مرتقب؛ ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ
أَيَّانَ يَبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥]، ناهيكم - عباد الله - عن اللتّ والعجن
عبر الصُّحُف والمجلات ونحوها فيما يسمّى قراءة الأبراج
ومستقبلها، والذي يروج من خلاله بأنه: يا لسعادة كاملة لأصحاب
برج الجدي، ويا لغنى أصحاب برج العقرب، وأما أصحاب برج
الجوزاء فيا لتعاسة الحظّ وخيبة الأمل زعموا، إلى غير ذلك من
سيل الأوهام الجارف والخزّعبلات المقيّنة التي لا حدّ لها؛ ﴿أَمْ لَهُمْ
سُلْمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ [الطور: ٣٨].

الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، الله أكبر الله أكبر والله الحمد.

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...



الخطبة الثانية

الحمد لله ولي الصالحين، ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهَ الْمَصِيرِ ﴾ [غافر: ٢٣]، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فاتقوا الله أيها المسلمون، واجعلوا من عيدكم هذا صفحةً جديدة بيضاء، يصحح من خلالها الواقع المرير ويكشف الزيف عن كثير من الشعارات والنداءات التي لا تمتُّ للإسلام بصِلَّة، وأن يكون الحُكم لله في أرضه، وأن تكون الهيمنة في جميع شؤون الحياة لكتاب الله وسُنَّة نبيه ﷺ؛ ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة: ٥٠]، عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: مرَّ عليٌّ يهودي محمماً مجلوداً، فدعاهم النبي ﷺ فقال: «هكذا تجدون حدَّ الزاني في كتابكم؟!» قالوا: نعم. فدعا رجلاً من علمائهم، فقال: «أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حدَّ الزاني في كتابكم؟!» قال: لا، ولولا أنك نشدتنى

بهذا، لم أخبرك، نجده الرجم، ولكنه كثير في أشرافنا فقلنا: إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، قلنا: تعالوا فلنجتمع على شيء نقيمه على الشريف والوضيع، فجعلناه التحميم والجلد مكان الرجم، فقال رسول الله ﷺ: «اللهم، إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه»، فأمر به فرجم، فأنزل الله: ﴿يَتَأْتِيهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْكَرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة: ٤١].

فأي حكم - عباد الله - أهدى من حكم الله؟! وأي شريعة أصلح من شريعة الإسلام؟! ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايَزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَنَّاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: ٩].

الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، الله أكبر الله أكبر والله الحمد.

أمة الإسلام حجاج بيت الله الحرام، إن أردتم السعادة والفلاح، فأصلحوا نفوسكم من داخلها، ونقوا وسائل المجتمعات من شوائبها، لاسيما الإعلام؛ لأنه سلاح ذو حدين، فالله الله أن يرى فيه ما يحلق الدين، أو ما يضل الناس، أو يكون سببا في البعد عن الحقائق مع نشر الكذب والدجل والتضليل على الشعوب والمجتمعات، فإن مما لا شك فيه أن الإعلام قوام المجتمعات، وإذا أردت أن تحكم على مجتمع ما صعوداً أو هبوطاً، فانظر إلى

إعلامه، فحذار - أمة الإسلام - حذار من الإخلال بضوابطه، والخروج عن مقصده، من حيث النفع والتربية، والنشأة السوية، وخدمة المجتمعات فيما ينفعهم في أمور دينهم ودنياهم، وفق شريعة الله الخالدة، فاتقوا الله أيها الإعلاميون، واعلموا أنكم مسؤولون تجاه الأمن الفكري سلباً وإيجاباً.

كما أنه ينبغي علينا جميعاً أن نصحح أوضاعنا تجاه المرأة المسلمة، وأن نتفطن للأيدي العابثة، والقفزات الزائفة، والتي تربص بها ليل نهار، لتخرجها من نطاقها المرسوم لها، حتى تكون فريسة لذوي الشهوات المسعورة، والمطامع المشبوهة، وللذين كرهوا ما نزل الله.

ولنحرص جميعاً على تبين اهتمام الإسلام بالمرأة، وأنها لها شأن في المجتمع، بل هي نصف المجتمع:

وأن الإسلام رعى حقها بنتاً، ورتب الأجر الجزيل على من عال جاريتين.

ورعى حقها زوجة، فجعل لها من الحق مثل ما للرجل، وللرجل عليها درجة، ولم يجعل عقد الزوجية عقد استرقاق للمرأة، ولا عقد إهانة وارتفاق، إنما هو عقد إكرام واتصال بالحلال.

كما أحسنَ الإسلام في الوقت نفسه إلى المرأة أمًّا؛ فقدَّم حقَّها على الأب ثلاث مرات في البرِّ.

بل أكَّد النبي ﷺ حقَّ المرأة المسلمة في حجة الوداع بقوله: «فاتقوا الله في النساء؛ فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، وإنَّ لكم عليهن ألا يُوطئنَ فرشكم أحدًا تكرهونه، فإن فعلنَ ذلك فاضربوهنَّ ضرباً غير مبرِّح، ولهنَّ عليكم رزقهنَّ وكسوتهنَّ بالمعروف».

الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، الله أكبر الله أكبر والله الحمد.

حجاج بيت الله الحرام، يا مَنْ أدَّيتم مناسككم فوقتكم بعرفات، وانحدر بكم الشوق إلى المزدلفة فسكبتم عند المشعر الحرام العبرَات، هنيئاً لمنَ رزقوا الوقوف بعرفة، وجأروا إلى الله بقلوب محترقة، ودموع مستبقة، فله كم من خائف أزعجه الخوف من الله وأقلقه، ومحبُّ ألهبه الشوق وأحرقه، وراجٍ أحسنَ الظنَّ بوعد الله فصَدَّقَه، اطلع عليهم أرحمُ الرحماء، وياهى بجمعهم أهل السماء، فهل رأيتم عباد الله، هل رأيتم قط شبه عراة أحسن من المُحرِّمين؟! هل شاهدتم ماء صافياً أصفى من دموع المتأسفين؟! هل ارتفعت أكفُّ وانبسَطتْ أيْدُ فضاهت أكفُّ الراغبين؟! هل لصقت بالأرض جباه أفضل من جباه المصلين؟! فيا لها من غنيمة باردة، ويا له من

فوز خاب مضيّعوه!!

حُجَّاجُ بَيْتِ اللَّهِ الْحَرَامِ، أَخْلَصُوا لِلَّهِ حَجَّكُمْ، وَاتَّبِعُوا سُنَّةَ نَبِيِّكُمْ ﷺ تَفْلِحُوا، واشكروا الله شكراً كثيراً على أن هياً لكم سُبُلَ الراحة، وأداء الحج بيسر وسهولة، مع أمن مبذول، وتنظيم مشكور، ومعنيين بالدعوة والتوجيه، سخرهم الله في بلاد الحرمين خدمةً لحجاج بيته الحرام؛ فالحرمان الشريفان أهلٌ لأن يُخدَمَا، وبلاد الحرمين حرسها الله أهلٌ لأن تكون خادمةً للحرمين، فشكر الله الجهود، وبارك في الخطى، وتقبَّل من الحجاج حجَّهم، إنه هو السميع العليم.

الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، الله أكبر الله أكبر والله الحمد.

عباد الله، إن يومكم هذا هو يومُ الحجِّ الأكبر، وهو عيد الأضحى والنحر، وإن من أعظم ما يؤدي في هذا اليوم هو بقية مناسك الحج، إضافةً إلى الأضحية الشرعية، التي ما عمل ابن آدم يوم النحر عملاً أحبَّ إلى الله من إراقة دم، وإن للمضحّي بكل شعرة حسنة، وبكلِّ صُوفَة حسنة، وهي سُنَّةُ أبينا إبراهيم المؤكَّدة، ويكره تركها لمن قدر عليها؛ كما أن ذبحها أفضلُ من التصدُّق بثمانها، وتجزئ الشاة عن واحد، والبدنة والبقرة عن سبعة.

ثم اعلموا أن للأضحية شروطاً ثلاثة:

أولها: أن تبلغ السن المعتبر شرعاً، وهو خمس سنين في الإبل، وستان في البقر، وسنة كاملة في المعز، وستة أشهر في الضأن.

والشرط الثاني: أن تكون سالمة من العيوب التي نهى عنها الشارع، وهي أربعة عيوب: العرجاء التي لا تعانق الصحيحة في الممشى، والمريضة البيّن مرضها، والعوراء البيّن عورها، والعجفاء، وهي الهزيلة التي لا مخّ فيها، وكلّما كانت أكمل في ذاتها وصفاتها، فهي أفضل.

والشرط الثالث: أن تقع الأضحية في الوقت المحدد، وهو الفراغ من صلاة العيد، وينتهي بغروب الشمس من اليوم الثالث بعد العيد، فصارت الأيام أربعة.

وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُحْسِنُ الذَّبْحَ فَلْيَذْبَحْهَا بِنَفْسِهِ، وَمَنْ لَا يَحْسِنُهُ فَلْيُوَكِّلْ غَيْرَهُ مِمَّنْ يَحْسِنُهُ، وَلْيَرْفُقِ الْجَمِيعُ بِالْبَهِيمَةِ، وَلْيَرِحْ أَحَدَكُمْ ذَبِيحَتَهُ، وَلْيَحِدِّ شَفْرَتَهُ؛ فَإِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى فِي ذَبْحِ الْبَهِيمَةِ، ثُمَّ لِيُسَمِّ أَحَدَكُمْ عِنْدَ ذَبْحِهَا وَيَقُولُ: بِاسْمِ اللَّهِ وَاللَّهِ أَكْبَرُ، اللَّهُمَّ هَذَا مِنْكَ وَلَكَ، اللَّهُمَّ هَذِهِ عَنْ فُلَانٍ أَوْ فُلَانَةٍ، وَيُسَمِّي صَاحِبَهَا.

ثم اعلّموا - أيها المسلمون - أن الله سبحانه وتعالى قد جمع

لكم في هذا اليوم عيدين اثنين، وقد ثبت عند أبي داود وابن ماجه وغيرهما أن النبي ﷺ قال: «قد اجتمعَ في يومكم هذا عيدان، فمن شاء أجزأه من الجمعة؛ وإنا مجمعون»، وقد قال المحققون من أهل العلم: إن من شهد العيد سقطت عنه الجمعة، لكن على الإمام أن يقيم الجمعة ليشهدها من شاء شهودها، ومن لم يشهد العيد.

ثم اعلّموا - يا رعاكم الله - أن الله سبحانه لم يشرع لأمة الإسلام في السنّة إلا عيدين اثنين، هما عيد الفطر، وعيد الأضحى، وبهذا يُعلّم أن ما يفعله البعض من التقليد الأعمى لأهل الغرب من خلال التشبه بأعيادهم ومناسباتهم وإقامتها في بلاد المسلمين كالذي يسمى: عيد الحب، أو عيد الأم، أو ما شابه ذلك، فإن هذا من الأعياد المُحدّثة التي لم يأذن بها الشارع الحكيم، بل حرّمها من وجوه متعدّدة في كتابه وسنة نبيه ﷺ، ورأسُ أسبابِ التحريم هو أنه من الإحداث في الدين، والنبي ﷺ يقول في الحديث الصحيح: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه، فهو ردٌّ»، ناهيكم عن كونه تشبّهاً بالمشركين، وقد جاء النهي عن التشبه بهم، بل قال النبي ﷺ: «من تشبّه بقوم، فهو منهم»؛ إضافةً إلى كونها تسلب استقلالية المسلمين وعزّتهم وتمسّكهم بدينهم؛ على وجه المسارقة والتدرّج، وأمة الإسلام يجب أن تكون متبوعة

لا تابعة، وقائدة لا منقادة، ورضي الله عن ابن مسعود رضي الله عنه حيث يقول: «أنتم أشبه الأمم ببني إسرائيل سمياً وهدياً تتبعون عملهم حذو القذة بالقذة، غير أنني لا أدري أتعبدون العجل أم لا».

﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ
الْأَنْعَامِ فَإِنَّهُمْ كَرِهُوا اللَّهَ وَإِحْدَفَ لَهُمْ أَصْلُهُمْ وَسِرَّ الْمُخْتَبِينَ﴾ [الحج: ٣٤].

الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، الله أكبر الله أكبر والله الحمد.

اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد؛ كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم...

* * *

عسى الله أن يجعل في المحنة منحة

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مضلَّ له، وَمَنْ يَضِلِّ اللهُ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد:

فيا أيها الناس، إن شريعة الإسلام شريعة غراء، سمتها الجُلِّيُّ أن يُعْبَدَ اللهُ وحده في الأرض ولا يشرك به مُتَّبَعَةٌ بقواعد فرضها ربُّ البرية، هي خيرٌ كُلُّها، ونورٌ كُلُّها، وسلامٌ كُلُّها، وفرحٌ كُلُّها؛ ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ أَلْسِنَةٌ وَمَا اٰخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾

[آل عمران: ١٩]، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

الدين الإسلامي عباد الله، هو شريعة الله العادلة للعالم أجمع، وما إرساله لخاتم رُسُلِهِ ﷺ إلا للناس كافةً بشيراً ونذيراً من أجل أن يدخل الناس في دين الله وصِبْغَتِهِ؛ ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨].

الدين الإسلامي عباد الله، هو شريعة مبناها الاتباع لا الابتداع، وعلى الاقتداء والتأسي لا النكوص والتنسي، ودين المرء لن يكون ديناً حقاً إلا إذا كان الخضوع فيه للحق سبحانه دون سواه، وإن خير هدي ينتهجه الناهجون هو هدي رسول الله ﷺ، وهيئات هيئات أن يأتي الناس في أعقاب الزمن بأهدى منه حتى يلجّ الجمل في سمّ الخياط، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، ﴿قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبَعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [القصص: ٤٩].

إنه في أعقاب الزمن عباد الله، ووسط عصور الانتقال، تتعدد مسالك الحياة، وتتراحم تداعياتها هبوطاً وصعوداً، بمدى قرب الناس من دينهم أو بعدهم عنه، ومكان رسالة خاتم النبيين بين ذلك كله، أنها دعوة كمال وعدل، فكلما تردّد الإنسان عبر هذه العصور التي تسمى عصور الانفتاح بين طريقين، أو حارت نفسه

في اختيار أحد مسلكين، فإن السُّنَّة تدعوه ولا شك إلى خيرهما، وإذا تردد العقل في خِصْم هذه النوازل المدلهمة بين الحق والباطل، والزَّيْن والشَّيْن، دعت السُّنَّة إلى الحق والزَّيْن؛ لأن الحق أبلج والباطل لجلج، وبهذا يُعلم أن دعوة السُّنَّة وَسَطَ هذه الزواجِع، إنما تكون لأصعب الطريقتين، وأشقَّ الأمرين بالنسبة لأهواء البشر، المحاطة بعالم أصبح عبر وسائله المختلفة كالكتلة الواحدة، ولا غرو في ذلك؛ فإن النار حُفَّت بالشهوات، والجنة حُفَّت بالمكاره. ويبدو ذلك بوضوح في أن الانحدار مع الهوى سهلٌ يسير، ولكن الصعود إلى العلو من الصعوبة والمشقة بمكان؛ ألا ترون - حماكم الله - أن الماء ينزل وحده حتى يستقرَّ في عمق الوادي، ولكنه لا يصعد إلى العلو إلا بالجهد والمضحَّات؟!!

أيها المسلمون، إن البُعد عن زمن النبوة مَظِنَّةٌ ولا شك في البُعد عن تعاليمها وآدابها؛ فرسول الله ﷺ يقول: «خيرُ الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»، ويقول أيضاً: «إنه مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ، فسيرى اختلافاً كثيراً»، وقال أيضاً: «لا يأتي على الناسِ زمانٌ إلا والذي بعده شرُّ منه حتى تلقوا ربكم».

ولأجل هذا عباد الله، فإنَّ الثوابت الشرعية من: توحيد الله، والإيمان به، والدعوة إليه، والحبِّ والبغض فيه، قد يذوي أكثرها أو بعضها مع مرور الزمن، وغلبة الأهواء وشيوع الهزل، حتى إنها

لتحتاج إلى مَنْ يردُّ لها الحياة بعدما اعتراها ما اعتراها من ذبول؛ إذ لدينا كتابُ الله لا تخلق جدته، ولا تفتنى ثروته، ولدينا نور نبوة، ملهم السيرة، نقي السنن، وإذا كان الأمر كذلك، فكيف تسمى النفس المؤمنة مع هذا الإشعاع؟! بل كيف يستوحش المرء في هذا العالم الموار، ومصدر الأمن والطمأنينة فوق ظهره محمول، شريطة ألا يغفل عن قوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

إنه رغم الدمار البالغ الذي تصاب به المجتمعات حيناً بعد حين، والوكزات التي تتلقاها أمة الإسلام فجأة ثم تُصرعُ أمامها إثر تقويض الرابطة الإسلامية الجامعة الحقّة، وعلى الرغم من المكانة الملحوظة التي وفرها الإسلام للمجتمعات الإسلامية بأسرها من خلال تعاليمه المحكمة، وثوابته التي لا تتغيّر، بل يخضع لها كل عصر وليست تخضع هي لكل عصر، إنه رغم ذلك كله، إلا أن ثمة خللاً ما، يؤكّد أن تلك المجتمعات أحوج ما تكون إلى أن تلتمس لطف الله وعفوه، وترتقب رحمته وإحسانه، وتلذب اللجوء إليه والعياذ به عاملة بما دعا به المصطفى ﷺ؛ ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]، فلا إله إلا الله؛ ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ

وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ [آل عمران: ٨٣].

إنه ينبغي علينا - معاشر المسلمين - أن ندعو إلى دين الله جل وعلا، الذي هو مصدر عزتنا، وسر قوتنا، من خلال التحدث عنه، على حقيقته وصورته التي ارتضاها الله جل شأنه دون استحياء ولا خوف ولا استجداء، مُتَّبِعِينَ ذلك أنه دين العبودية لله وحده في كل شيء والاتباع لرسوله ﷺ. وحذار حذار من أن يخطئ أحدٌ حال التحدث عنه، فيعدل عن الوجه الصحيح.

ثم إن الدعوة إلى الإسلام برمتها أشبه ما تكون بالقضية العادلة، غير أنها وللأسف الشديد قد تقع بين أيدي محامين عنها يفسلون في عرض حقيقة الدفع وإيضاح البيِّنات، وما ذلك إلا من خلال التنازل عن ثوابتها وأسسها، بحثاً لغرض أو خوفاً من عرض.

ولا غرو في ذلك عباد الله، فلربما نستمع كثيراً لمتحدثين عن الإسلام يحامون عنه ويود المرء منا لو أنهم سكتوا فلم يَنبِسُوا بحرف واحد.

إن أمثال هؤلاء ولا ريب، لم يفهموا الإسلام بكماله كما تنزل من عند الله، والنزr اليسير ممن يتحدث عنه ويدعي فهمه قد لا يُحَسِنُونَ الإبانة عنه من خلال الخلط والمزج بين ما يصح وما لا يصح. ومن هنا يعظمُ الخطر؛ لأننا في أزمنة خداعة تحتاج إلى

المَهْرَة من ذوي الأفهام، عَبَّرَ عَصُورٌ يَتَزَيَّنُ فِيهَا الْقَبِيحَ مِنَ الْمَبَادِي، فَتَعَرَّضَ نَفْسُهَا عَلَى النَّاسِ فِي تَزَاوِيقِ خَادِعَةٍ، كَمَا تَتَوَارَى الشَّمْطَاءُ وَرَاءَ حُجُبٍ مِنَ الْأَصْبَاغِ وَالْحَلِيِّ.

إِنَّ الْإِسْلَامَ فِي حَدِّ ذَاتِهِ كَالدَّوَاءِ، لَا يَحْتَمَلُ أَنْ يَجْتَهِدَ فِيهِ كُلُّ مُحْتَسِبٍ لَهُ، كَمَا أَنَّ الدَّوَاءَ لَا يَكُونُ دَوَاءً؛ لِأَنَّ مَا دَّتَهُ تَحْوِي أَسْبَابِ الشُّفَاءِ فَحَسَبَ، كَلَّا بَلَّ لِأَبَدٍ مِنْ تَنَاوَلَهُ بِطَرِيقَتِهِ الَّتِي يَشِيرُ بِهَا الطَّيِّبُ، عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي وَضَعَ لَهُ الدَّوَاءَ، وَمَنْ تَكَلَّفَ طَرِيقَةً مِنْ عِنْدِهِ لَمْ يَقْلُ بِهَا الطَّيِّبُ، فَلَا يُؤَلِّوْنَ أَحَدًا حِينئذٍ إِذَا اسْتَفْحَلَ الدَّاءَ، وَوَلَاتِ سَاعَةَ اسْتِشْفَاءِ.

وَهِيَهَاتُ هِيَهَاتُ، أَنْ تَصْلِحَ الْمَجْتَمَعَاتُ، وَقَدْ وَهَتْ فِيهَا حِبَالُ مَقُومَاتِهِ الشَّرْعِيَّةِ الْحَقَّةِ، وَأُسِّسُ الْحَيَاةِ الْمَحْكُومَةِ بِصِبْغَةِ اللَّهِ وَشِرْعَتِهِ، دُونَ اكْتِرَاثِ بَمَا يُرْضِي اللَّهَ وَمَا يُسْخِطُهُ؛ فَكَيْفَ إِذَا كَانَتْ الْحَالُ فِي التَّشْكِيكِ فِي تِلْكَ الْمَقُومَاتِ أَوْ السَّعْيِ الدَّوُوبِ فِي إِمَاتَتِهَا، أَوْ بَثِّ مَا مِنْ شَأْنِهِ اتِّهَامُ الْمُسْلِمِينَ، أَوْ بَذْرِ الْفَرْقَةِ بَيْنَهُمْ، أَوْ التَّطَلُّعِ إِلَى إِرْسَاءِ قَوَاعِدِ التَّرَاجُعِ عَنِ الدِّينِ، أَوْ عَلَى أَقْلِ تَقْدِيرِ إِشْعَارِ الْغَيْرِ بِأَنَّ مَنْ يَتَجَرَّعُ الْإِسْلَامَ بِأَدَابِهِ وَكَمَالِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَكَادُ يَسِيغُهَا إِلَّا مَتَهَوِّعًا، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، مِنْ خِصَائِصِ رِسَالَةِ الْمُصْطَفَى ﷺ: أَنَّهُ مَا مِنْ خَيْرٍ إِلَّا وَدَلَّ الْأُمَّةَ عَلَيْهِ، وَمَا مِنْ شَرٍّ إِلَّا وَحَدَّرَ الْأُمَّةَ مِنْهُ، وَقَدْ كَانَ

مِمَّا حَذَّرَ الْأُمَّةَ مِنْهُ الْفِتْنُ الَّتِي تَكُونُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ وَتَكَاثُرُهَا،
وَالغَوَاسِقُ الَّتِي تَحِيطُ الْأُمَّةَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَتَمُوجُ بِهِمْ كَمُوجِ
الْبَحْرِ، حَتَّى إِنَّهَا لَتَدَعُ الْحَلِيمَ حِيرَانَ، بَلْ وَلرَبِّمَا تَسْتَمِرُّهَا النُّفُوسُ
الضَّعِيفَةُ، وَتَسْتَشْرِفُ لَهَا رَوِيداً رَوِيداً إِلَى أَنْ تَلْغَ مِنْ حَمِيئِهَا وَهِيَ لَا
تَشْعُرُ، فَإِذَا أَلْفَتْهَا لَمْ تَكُذُ تَتَحَوَّلُ عَنْهَا إِلَّا فِي صَعُوبَةٍ بِالْغَةِ، بَعْدَ أَنْ
تَفْقَدَ خَصَائِصَهَا، وَمِنْ ثَمَّ تَمُوجُ وَتَذُوبُ، وَثُمَّ مَا لَجِرِحَ بِمِيتِ
إِيلَامٍ، وَإِنْ لَمْ يُعْبَرْ حَائِطٌ فِي وَقُوعِهِ، فَلَيْسَ لَهُ بَعْدَ الْوُقُوعِ عُبَارٌ.

حَتَّى تَقَعَ النُّفْسُ فِي أَتُونِ الْفِتْنِ فَتَحْتَرِقُ بِلَا لَهَبٍ؛ فَفِي
«الصَّحِيحِينَ» أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «سَتَكُونُ فِتْنٌ الْقَاعِدُ فِيهَا خَيْرٌ مِنْ
الْقَائِمِ، وَالْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي فِيهَا خَيْرٌ مِنْ
السَّاعِي، مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا تَسْتَشْرِفُهُ...» الْحَدِيثُ. قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ
حَجْرٍ فِي مَعْنَى «مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا» أَي: تَطَّلَعَ لَهَا بِأَنْ يَتَصَدَّى وَيَتَعَرَّضُ
لَهَا، وَلَا يُعْرِضُ عَنْهَا.

وَفِي «الصَّحِيحِينَ» أَيْضاً أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ،
وَيَنْقُصُ الْعَمَلُ، وَيَلْقَى الشُّخُّ، وَتَظْهَرُ الْفِتْنُ، وَيَكْثُرُ الْهَرْجُ، قَالُوا:
يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْهَرْجُ؟ قَالَ: الْقَتْلُ الْقَتْلُ».

عباد الله، إِنَّا فِي زَمَنِ تَدَاعَتْ فِيهِ الْفِتْنُ كِدَاهِيَةَ دَهْيَاءٍ، فَقَلَّتْ
فِيهِ الْأَمَانَةُ، وَنَزِعَتْ فِيهِ الْخَشْيَةُ مِنَ اللَّهِ، وَتَنَافَسَ النَّاسُ فِيهِ عَلَى
الدُّنْيَا وَحُظُوظِ النُّفُوسِ، وَكَثُرَ فِيهِ الْقَتْلُ وَبَلَغَ أَوْجَ صُورِهِ، عَلَى

اختلاف تنوعه، حتى لربّما لا يدري القاتل فيم قتل، ولا المقتول فيم قتل، كما قال ذلك النبي ﷺ فيما صح عنه.

ولكن لمستفهم أن يقول: ما النجاة في خضم هذه الأحداث؟ وما موقف المؤمن من متغيرات زمانه، وفجاءة النعمة فيه؟

فالجواب على هذا بين بحمد الله؛ فإن لكل داء دواء علمه من علمه، وجهله من جهله، والدواء في مثل هذا كثير التنوع:

فمن ذلك أولاً: حمد الله على العافية مما ابتلى به كثيراً من الناس من الفتن والرزايا والحروب المدمرة، ثم الصبر على أقدار الله المؤلمة، والإيمان بأن ما يريد الله كائن لا محالة، وأن ما أصاب الناس لم يكن ليخطئهم، وما أخطأهم لم يكن ليصيبهم، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٤١]، عند مسلم في «صحيحه» أن النبي ﷺ قال: «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة»، ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، فلا إله إلا الله، ما أوسع علم الله، فانظروا إلى الأحداث والمستجدات عباد الله كيف تحل بنا فجأة على حين غرة دون أن تقع في ظن أحدنا أو يدور بخلدنا أن أحداثاً ما ستكون يوماً ما؛ مما يؤكد

الاعتصام بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، واللجوء إليه، وخشيته وحده بالتوبة والإنابة، وكثرة الدعاء والاستغفار والصدقة، وبذل الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فلا ملجأ من الله إلا إليه، ألا إنَّ مَنْ خَافَ الْبَشَرَ فَرَّ مِنْهُمْ، غَيْرَ أَنَّ مَنْ خَافَ اللَّهَ فَإِنَّهُ لَا يَفِرُّ إِلَّا إِلَيْهِ؛ ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكَرِّمَةٌ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الذاريات: ٥٠]، ولقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا يَرُدُّ الْقَدَرَ إِلَّا الدَّعَاءُ».

ألا وإن ما يحدث في هذه الأزمنة، من كوارث تحل بنا بغتة ليذكّرنا باليوم الذي تقوم فيه الساعة، والناس في غفلة مُعْرِضُونَ مع ما يتقدّمها من أمارات وأشراط تدلّ عليها؛ فقد جاء في «الصحيحين» أنّ النبي ﷺ قال: «لَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ نَشَرَ الرَّجُلَانِ ثَوْبَهُمَا، فَلَا يَتْبَاعَانَهُ وَلَا يَطْوِيَانَهُ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ انصَرَفَ الرَّجُلُ بِلَبَنِ لِقَحْتِهِ فَلَا يَطْعُمُهُ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَهُوَ يُلِيطُ حَوْضَهُ فَلَا يَسْقِي مِنْهُ، وَلَتَقُومَنَّ السَّاعَةُ وَقَدْ رَفَعَ أَكْلَتَهُ إِلَى فِيهِ فَلَا يَطْعَمُهَا»؛ كل ذلك عباد الله، دليل على فجاءة التّقامة وأنّ نفساً لا تدري ماذا تكسب غداً ولا تدري بأي أرض تموت.

ثم اعلّموا يا رعاكم الله: أنه ينبغي للمرء المسلم في خِصَمِّ الأحداث الرهيبة، والمتغيرات المتنوّعة، ألا يُصاب بشيء من الاسترسال مع مشاعر القنوط واليأس، وألا يحبس أنفاسه مع الجانب الذي قد يكلح في وجهه على حين غفلة من جوانب الخير

الأخرى في حياته، دون التفات إلى المشوشات من حوله،
 والتخوفات التي ليس لها ضريب، فليس بلازم عقلاً أن تكون تلك
 المخاوف صادقة كلها، فلربما كانت كاذبة إذ قد تصح الأجسام
 بالعلل، وقد يكون مع المحنة منحة، ومع الكرب فرج، ﴿فَإِنَّ مَعَ
 الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ [الشرح: ٥، ٦]، ولن يغلب عُسْرٌ يُسْرَيْنِ؛
 ﴿إِنَّهُ لَا يَأْتِسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْفَوْمُ الْكٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...



الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى،
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده
ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وسلم تسليماً كثيراً.
أما بعد:

فيا أيها الناس، إنَّ مما لا شكَّ فيه أن كثرة الفِتَنِ تُزَلِّزُ كِيَانَ
الناس، وأن فتيل الحروب إذا اشتعلَ عسر انطفأؤه، وأن التهويشَ
والتشويشَ والقيلَ والقَالَ والظنَّ والخرصَ، لَمَمًا يزيد الأمر سوءاً
وتعقيداً، والنارَ اشتعالاً واضطراباً، ولا جرم فإنَّ النار قد تذكى
بالعידان، كما أن في مبدأ الحرب كلام اللسان، ولقد كان السلف
الصالح أحرص الناس على اتقاء الفِتَنِ، والنأي بأنفسهم عن أن
يقعوا في شَرَكَهَا، بل يستعيذون بالله منها، وكلَّمَا لاحت لهم في
الأفق فتنة، تمثَّلوا بما رواه البخاري في «صحيحه» عن خلف بن
حَوْشَب؛ أن السلف كانوا يقولون عند الفتن:

الحربُ أوَّل ما تكون فتية	تسعى بزينتها لكلِّ جهولٍ
حتى إذا اشتعلتْ وشَبَّ ضرامها	ولَّتْ عجوزاً غيرَ ذاتِ حليلٍ
شمطاءً يُكرهُ لونها وتغيَّرتْ	مكروهةً للشَّمِّ والتقبيلِ

ثم اعلّموا أيها المسلمون: أنّ من أدب الإسلام في الفتن، كفّ اللسان وحبسَهُ وعدمَ الزجّ به فيما لا يعني، وزمَهُ عن الفحش والتفحّش أو الوقوع في الظن والخرص؛ فإن إطلاق اللسان، وسيلان الأقلام خائضَةً في المدلّهَمات، ولأثّة في المشتبهات، والقضايا المزعجات، دون زمام ولا خطام، لمن شأنه أن يُضعف إيمان المرء المسلم، ويوقعه مواقع الزلل غير آبه بوصية النبي ﷺ لعقبة بن عامر حينما سأله: ما النجاة؟ قال: «املكُ عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابك على خطيئتك» [رواه الترمذي في جامعه].

إن اللّهت وراء كلّ حدثٍ وخبر، باللسان تارةً وبالأقلام أضعافها، في البيت وفي السوق، والمجالس والمنتديات، وعبر شبكات تقنية، يكثرُ فيها اللغظ دون تروٍّ أو توثق، أو محصلة من العلم والفهم، لِمَمَّا يُقلّل العافية والسلامة من الخطأ، فضلاً عن أن يقدّم حلاً عاجلاً سوى الخلط والجهل والتضليل.

ولله درُّ أبي حاتم البُستيّ حين قال: إن العافية عشرة أجزاء، تسعةٌ منها في السكوت؛ لأن من الناس من لا يكرّم إلا بلسانه ولا يُهان إلا به، فالواجب على العاقل ألا يكون ممّن يُهان به.

ثم اعلّموا عباد الله: أن المحادثات الشفهية، والمطارحات الورقية، لا ينبغي أن تكون مركباً لكل راكب، ولا علّكاً يلوكه الكل، وأمورُ الناس بعامة لا ينبغي أن يتصدّى لها أي أحد كيفما

اتفق، دون تمييز بين الغثِّ والسمين، وبين ما يعقل وما لا يعقل، وإنه لمن المستكره أن يكون مقدارُ لسان الإنسان أو قلمه فاضلاً على مقدار علمه، ومقدارُ علمه فاضلاً على مقدار عقله، فلقد روى البخاري في صحيحه عن علي رضي الله عنه أنه قال: «حدّثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟!»؛ فمن هَرَفَ بما لا يعرف فهو ممن قال الله فيهم: ﴿قُلْ الْفَرَّصُونَ﴾ [الذاريات: ١٠]، قال قتادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: هم أهل الغرّة والظنون.

وروى الإمام أحمد وغيره، عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ أَمَامَ الدِّجَالِ سِنِينَ خَدَاعَاتٍ، يَكْذِبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُصَدِّقُ فِيهَا الْكَذُوبُ، وَيَخُونُ فِيهَا الْأَمِينُ، وَيُؤْتَمِنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيَتَكَلَّمُ الرُّوَيْبِضَةُ، قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ: الرَّجُلُ التَّافَهُ يَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ الْعَامَةِ».

فعلى حَمَلَةِ الأَقْلَامِ، وذوي اللسان: أن يتقوا الله سبحانه ولا يستخفوا بأحد، وألا ييغوا على أحد من المسلمين، يقول ابن عبد البر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أحقُّ الناس بالإجلال ثلاثة: العلماء، والإخوان، والسلطان؛ فَمَنْ استخفَّ بالعلماء، أفسد مروءته، ومَنْ استخفَّ بالسلطان، أفسد دنياه، والعاقِل لا يستخف بأحد.

ومما يزيد الأمر تأكيداً وتوثيقاً عباد الله: حينما يكون الخوض فيما قال الله، أو قال رسوله ﷺ، فليس لذلك إلا العلماء

الأتقياء الأتقياء، فهم وَرَثَةُ الأنبياء، ومصابيحُ الدُّجَى؛ فحذارِ حذارِ
لِمَنْ تجاوزَ طريقهم أن يقع في قول النبي ﷺ: «مَنْ أُفْتِيَ له بغير
علم، كان إثمُه على مَنْ أفتاه» [رواه أبوداود].

وقد قال عبدالله بن وهب: قال لي مالك بن أنس: يا
عبدالله، لا تحملنَّ الناسَ على ظهرك، وما كنت لاعبأ به من شيء،
فلا تلعبنَّ بدينك.

ولذلك قال سفيان الثوري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ما كُفِّتَ عن المسألة
والفتيا، فاغتنم ذلك ولا تنافس، وإياك أن تكونَ مَمَّنْ يحبُّ أن
يُعمَلَ بقوله، أو ينشر قوله، أو يسمع قوله، وإياك وحبَّ الشهرة،
فإن الرجل يكون حبُّ الشهرة أحبَّ إليه من الذهب والفضة، وهو
بابٌ غامض لا يبصره إلا العلماء السماسرة.

﴿ وَلَا نَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ
عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

اللهم صَلِّ على محمد...

الأمن بين الحقيقة والتلبس

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، ويحيط علماً بما يظهره العبد وما يُضْمِر، الكريم الذي يقبلُ التوبةَ عن عباده، فيمحو الزللَ ويغفر، أحمده سبحانه وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله إلى جميع الثَّقَلَيْنِ بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وتَرَكْنَا على المَحَجَّةِ البيضاء ليْلِهَا كنهَارِهَا لا يَزِيغُ عنها إلا هَالِكٌ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، وعلى أصحابه الغُرِّ الميامين، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فأوصيكم أيها الناس ونفسي بتقوى الله سبحانه؛ فإنها الأمان عند الخوف، والنجاة عند الهلاك، بها يشرف المرء وينبل، وبالنائب عنها يذل العبد ويسفل، هي وصية الله للأولين والآخرين، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأْوِيلِ الْأَلْبَابِ لِعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠].

في ظلِّ الأمن والأمان تحلو العبادة، ويصير النوم سباتاً،

والطعام هنيئاً، والشراب مريئاً، الأمن والأمان، هما عمادُ كلِّ جهد تنموي، وهدف مرتقب لكل المجتمعات على اختلاف مشاربها، بل هو مطلب الشعوب كافة بلا استثناء، ويشد الأمر بخاصة في المجتمعات المسلمة، التي إذا آمنت أمنت، وإذا أمنت نمت، فانبتت عنها أمن وإيمان ونماء؛ إذ لا أمن بلا إيمان، ولا نماء بلا ضمانات واقعية ضد ما يعكّر الصفو في أجواء الحياة اليومية، إنَّ إطرء الحياة اليانعة، هو ديدنُ كافة المنابر، لِمَا للأمن من وَقَع في حس الناس، من حيث تعلُّقه بحرصهم على أنفسهم فضلاً عن كونه هبة الله لعباده، ونعمة يُغبَطُ عليها كلُّ من وُهِبَهَا، ولا غرو في ذلك فقد صحَّ عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ أَصْبَحَ آمناً فِي سِرِّهِ، معافى في بدنه، عنده قوتُ يومِهِ، فكأنما حيزتْ له الدنيا بحذافيرها».

بضعف الأمن وانحلاله تظهر آثار خبث الشيطان وألعيه هو وجنده من الجن والإنس، وإقعادِهِمْ بكلِّ صراط يوعدون في الأغرار من البشر، ويستخفونهم فيطيعونهم؛ فيبين حذقهم وإغواؤهم؛ محققاً الشيطان توعده بقوله: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٦﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

إن المزايدة على الأمن والأمان في مجتمعات المسلمين

بعمامة، لهو مدعاةٌ للسخرية والفوضى، المفرزَيْنِ للممارسات الشاذة، والإخلالِ المرفوضِ بداهةً، والمهددِ لسفينَةِ الأمانِ الماخرة، كل ذلك غير مستساغ شرعاً ولا عقلاً، ولا قبول له تحت أي مبرر كان، بل كل مزايده في اختلال الأمن، إنما هو من نسيج الأعداء المتربصين بنا، وإن استعملوا في نفاذ اختلاله، اللهازم من أبناء أمتنا وأغرارهم، من أجل سلب أمن الأمة المسلمة ومقدّراتها بكل ما تعنيه الكلمة.

إن المرء المسلم، لفي فسحة من دينه عن أن يُزجَّ بنفسه في مهاوي الرذيلة ومَحَالِّ الريب، ومزعزُعِ الأمن ومخلخله إنما هو - بادي الرأي - يززع أمن نفسه ووالديهِ وبقية أسرته، قبل أن يززع أمن غيره من الناس، كل هذا يبدو جلياً في مثل كأس خمر، أو قتل نفس، أو جرعة مخدّر، أو هتك عرض، أو إحلال فساد بين الخلق، بمثل ذلك ينسلخُ مَوَاقِعُ هذه الأمور عن إنسانيته، ويتقمّص شخصية الإجرام والفتك والفاحشة والإخلال بالمسلمين؛ فيشل الحياة، ويهدم صرح الأمة، ويوقع مجتمعه وبني ملته في وهدة الذل والدمار، فيخِلُّ بالأمن، ويروِّع المجتمع، ويبدد أمنهم شذراً مذرّاً.

إنه متى امتدَّ شذوذ المرء ليشمل الآخرين، ويمس أمن أهله

ومجتمعه، فإنه لا محالة، يُعَرِّضُ نفسه لِحَتْفِهِ بالغاً ما بَلَغَ من العنفوان والشجاعة، وإلا فلو فَكَّرَ مززعزع الأمن مليّاً في مصير والده ووالدته، حينما تأخذهما الحشرات كل مأخذ، وهما اللذان ربياه صغيراً، يتساءلان في دهشة وذهول: أَمِنَ المعقولُ أن يكون مَنْ ولدناهُ تحت ناظرنا، مِعْوَلٌ هَدْمٌ لِأمن المجتمع وصرحه؟!!

أَمَّا يُفَكِّرُ مززعزع الأمن في زوجه وأولاده الذين يخشى عليهم الضياع من بعده، والأسى من فقده؟! ألا يشعر بأن زوجه أرملة ولو كان حياً؟! أمّا يشعر بأن أولاده أيتام ولو كان له عرق ينبض؟! ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكَوْا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ [النساء: ٩]!

أَوَلَا يُفَكِّرُ مززعزع الأمن، كيف يحل عليه الضعف محل القوة، والهَمُّ من نفسه محل الفرح، والكَدْرُ مكان الصفاء، حيث لم يعد يؤنسه جليس، ولا يريحه حديث، فَلَقَّ متوجِّسٌ كثيرُ الالتفات، فكيف يصل إلى منشوده، بعد أن يسأم الحياة بفعله الشاذ، والذي سيجعله قابعاً في غياهب السجون بسبب جرمه، فضلاً عمّا يُخالِجُ أنفاسه وأحاسيسه من ارتقَابِ العقوبة كامنَةً عند كل طريقة باب، ولاسيّما إن كان في هذه العقوبة حتفه وتغييبه من هذه الحياة، ولا غرو في ذلك فإنَّ في قَتْلِ مجرِمٍ واحدٍ حياةً هنيئة

لأُمَّة بِأَكْمَلِهَا؛ ﴿ وَلكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَتَأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾
[البقرة: ١٧٩]، وقديماً قيل: القتل أنفى للقتل.

أيها المسلمون، من أجل استتباب الأمن في المجتمعات، جاءت الشريعة الغراء بالعقوبات الصارمة، وحفظت للأمة في قضاياها ما يتعلّق بالحق العام والحق الخاص، بل إن من المُسَلِّم في الشريعة قَطَعَ أبواب التهاون في تطبيقها أيّاً كان هذا التهاون، سواءً كان في تنشيط الوسطاء في إلغائها، أو في الاستحياء من الوقوع في وصمة نقد المجتمعات المتحضّرة، فحفظاً للأمن والأمان، غضب النبي ﷺ على مَنْ شَفَعَ في حدٍّ من حدود الله بعد ما بَلَغَ السلطان، وأكّد على ذلك بقوله: «وايم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»، وما ذاك أيها الناس إلا من باب سدِّ الذريعة، المُفْضِية إلى التهاون بالحدود والتعزيرات، أو التقليل من شأنها.

وإنه حين يدب في الأُمَّة داءُ التسلُّل الأمني، فإن أفرادها بذلك يُهيلون التراب على تراث المسلمين، ويقطعون شرايين الحياة عن الأجيال الحاضرة، والآمال المرتقبة، وهم يخدمون بمثل هذا، عن وعي أو عن غباء، الغارة الاستعمارية على ديار الإسلام من خلال أعمال خرقاء تزيد السقم عِلَّةً، والطين بِلَّةً، فيطاح بالمسلمين

وتوصدُّ أبوابهم أمام الحياة الهائلة الآمنة، ومثل هذا ظاهر جلي، في طرح الدعوات الصارخة لِمَا يُسَمَّى بمبادئ حقوق الإنسان، والتي تجعل من فتح الحرِّيات، وعتق الرغبات، رفضاً باتاً للفِطْر السليمة، وسبباً مباشراً تدمَّر به الأخلاق المستقيمة، ومن ثمَّ يزعمون أنَّ مَنْ خالف ذلك فهو ضد الإنسان والإنسانية، وضد الحقوق الشخصية، والرغبات الفردية، وهي في الحقيقة ليست من الإنسانية في شيء، ولا هي من بابتها، فلا تَمُتْ لها بخيط رقيق ولا حبل متين.

بل إن ما يَنَمُّق حول ذلك ويزوِّق مُرُّ العاقبة وإن حلا ظاهره، وصعب المرتقى وإن سهل ترويجه، وديميمُ الطرح مهما بدت للاهتين دماثته.

لقد سَقَّهَتْ دعواتُ حقوق الإنسان أحكامَ الشريعة، فوصفت إقامة الحدود بالسفه والحطة والغلظة، دعا أهلها إلى حفظ حقوق الإنسان فقتلوه من حيث أرادوا حفظ حقه، أخرجوه من القيود الشرعية حرصاً عليه، فإذا بهم في نهاية المطاف يدركون أنهم إنما كانوا ينادون بحفظ حقوق الإنسان المجرم، فإلى الله المشتكى.

أيها المسلمون، القاعدة المقررة تقول: إن الحكم على الشيء فرع عن تصوُّره، ولأجل أن نعرف حقيقة الأمن وصورته، فلا بد أن

تكون هذه المعرفة متّصفة بالشمولية، وألا تكون ضيّقة العطن مستهجنة الطرح، من خلال قَصْرِ بعض الأفهام حقيقة الأمن على ناحية صيانة المجتمع من الجرائم فحسب، أو أن يقصر مفهوم حمايته على جناب الشرط والدوريات الأمنية في المجتمعات العامة؛ كلا، فالحديث عن الأمن ليس مقصوراً على هذا التصوّر البسيط؛ إذ الحقيقة أشدُّ، والخطبُ أعظم، بل إن المواطن نفسه، رجلاً كان أو امرأة، ينبغي أن يكون رجلاً أمن، ورجلاً الأمن ما هو إلا مواطن صرف.

فإذا استحضرنا هذا التصور بما فيه الكفاية، ووجب علينا بعد ذلك، أن نعلم شمولية مفهوم الأمن، وأنه ينطلق بادي الأمر، في عقيدة المجتمع وارتباطه الوثيق بربه، والبعد عن كل ما من شأنه أن يوقع أفرادَه في الخوف بدل الأمن، والزعزعة بدل الاستقرار.

فأول الواجبات الأمنية: البُعدُ عن الشرك بالله، في ربوبيته أو ألوهيته أو حكمه، أو الكفر بدينه، أو تنحية شرعه عن واقع الحياة، أو مزاحمة شرع غير شرعه معه، بالغة ما بلغت المبررات المغلوطة؛ ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]، الأمن بهذه الصورة هو المطلوب الأول، وهو الذي تتحقّق به الصلة بالله، والتي بسببها يعمُّ الأمن أرجاء

المجتمعات، ويتحقق وعد الله لها بقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾؛ فكان الجواب التالي لذلك: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥]، والشرك هنا غير مقصور على مجرد عبادة الأصنام، كما يتصوره البعض، فيُخرجون معنى هذه الآية عن صور شتى في هذه الأزمنة، فكلمة «شيئاً» نكرة في سياق النفي، فتعم جميع صور الشرك مهما قلت؛ ألا تسمعون قول الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، وقد ذَكَرَ الإمام أحمد أن الفتنة هنا هي الشرك.

ثم إن ما ينبغي علينا تجاه مفهوم الأمن، ألا ننحيه عن مراكز القوى في مجتمعاتنا، أو نتجاهل أثر هذه المراكز في تحقيق معنى الأمن بصورته الأساس، فهناك ما يسمّى بالأمن الغذائي، وما يسمى بالأمن الصحي الوقائي، وهناك ما يتعلّق بالضوابط الأمنية في مجالات التكافل الاجتماعي وتهيئة فرص العمل والإنتاج، والقضاء على البطالة، المثمرة للخلل والفوضى، إضافة إلى النواحي الأمنية المنبثقة من دراسة الظواهر الأسرية وما يعترها من ثقوب واهتزاز في بنيتها التحتية؛ لأن الأمن بين الجنسين وبالأنحص

بين الزوجين، هو سبب ولا شك من أسباب أمن العشيرة، وأمنُ العشيرة أمنٌ للأُمَّة المؤلَّفة من العشائر المؤلَّفة من الأزواج، فهذا الأمن المترابط، هو الذي يتكوّن منه مزاج الأُمَّة الأمني... .

كما يجب علينا ألا نغفلَ عمّا لا يقل أهمية عمّا مضى، بل إنه في هذه العصور، يعد هاجساً أمنياً لكل مجتمع، ألا وهو الأمن الفكري، إنه الأمن الفكري الذي يحمي عقول المجتمعات، ويحفظها من الوقوع في الفوضى، والعبث من الشهوات بنهم، أو الولوغ في أتون الانسلاخ الأخلاقي الممزق للحياء الفطري والشرعي، الأمنُ الفكري عباد الله: ينبغي أن يُنوّجَ بحفظ عنصرين عظيمين.

أولهما: عنصر الفكر التعليمي.

وثانيهما: عنصر الأمن الإعلامي.

إذ يجب على الأمة من خلال هذين العنصرين ألا تقع في مزالق الانحدار والتغريب، والتي هي بدورها تطمس هوية المسلم، وتُفقدّه توازنه الأمني، والاعتزاز بتمسّكه بدينه؛ إذ إن الأمن على العقول، لا يقل أهمية عن أمن الأرواح والأموال، فكما أن للبيوت لصوصاً ومختلسين وللأموال كذلك، فإن للعقول لصوصاً ومختلسين، بل إن لصوص العقول أشد خطراً، وأنكى جرحاً من

سائر اللصوص، فحمايةُ التعليم بين المسلمين من أن يتسلَّل لِوَأذًا عن هويته، وحماية التعليم في إيجاد الآلية الفعَّالة في توفير سُبل العِلْم النافع، الداعي إلى العمل الصالح، والبُعْد عن التبعية المقيتة، أو التقليل من شأن العلوم النافعة والتي لها مساس أساس في حياة الأمم، من الحيثية الشرعية الدينية التي يعرف بها المرءُ ربَّه وواجبه المفروض عليه، أو التهوين من شأن علوم الدين، أو استئثارها على النفوس، لمن شأن ذلك كله أن تضعف المجتمعات بسببه، وأن تدرس معالم الأمن الفكري إبَّان عصر التحكم المعرفي والاتصالات العلمية والثقافية، التي غلبت على أدوار الأسر والبيئات، التي تنشُد الصلاح العام.

أما الفكر الإعلامي عباد الله، فهو مقبض رَحَى المجتمعات المعاصرة، وأقنومها الأساس، به يُبَصِّرُ الناس وبه يُغَرَّبُونَ، به تخدم قضايا المسلمين وتنصر، وبه تطمس حقائقها وتهدر، بالفكر الإعلامي تُعَرَّفُ المجتمعاتُ الجادَّة من المجتمعات المستهترَّة، المجتمعات المثلى من المجتمعات الناكبة، فما يكون في الفكر الإعلامي من اعتدال وكمال، يكون كمالاً في بنية الأمن الإعلامي واعتدالاً، وقرّة عين لمجموع الأمة، وما يطرأ عليه من فساد واعتلال، فإنه يكون مرضاً للأُمَّة يُوردها موارد الهلكة والتهيه.

وحاصل الأمر عباد الله: أنه ينبغي علينا جميعاً، أن ننظر إلى الحقيقة الأمنية من أوسع أبوابها، وأقرب الطُرُقِ الموصلة إليها، بل لا نبعد النجعة إن قلنا: ينبغي على المسلمين جميعاً ألا يغفلوا جانب أسلمة الأمن الفكري؛ فالإسلام هو دين السلام، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، والله ما أعظمَ قولَ النبي ﷺ لعظيم الروم: «أدعوك بدعاية الإسلام: أَسْلِمُ تَسْلَمُ، أَسْلِمُ تَسْلَمُ».

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...



الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحبُّ ربنا ويرضى،
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده
ورسوله، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم
بإحسان إلى يوم الدين.
أما بعد:

فاتقوا الله أيها المسلمون، ثم اعلموا أن من أهم الوسائل
الموصلة إلى الراحة الأمنية من كافة جوانبها، دون كلفة أو تجنيد
أو إعداد، هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتُّصْح لله
ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم؛ فإن ذلك عماد الدين
الذي فضّلت به أمة الإسلام على سائر الأمم، والذي يسد من
خلاله خوخات كثيرة من مداخل الشر على العباد، بالتُّصْح والأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر تتكاتف الجهود، ويُلْمُ الشعث،
ويُرَبِّب الصّدع، وتتقوى أسباب الهلاك، وتُدْفَعُ البلايا عن البشر،
وفقد ذلك أو ترعزعه من نفوس الناس، يعني بدهاة حلول
الفوضى، وانتشار اللامبالاة، المولدة للأمن العكسي، وهو الأمن
من مكر الله، ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ

الْخَسِرُونَ ﴿ [الأعراف: ٩٩]، بالأمر والنهي عباد الله يصلح المجتمع، ويقوم الفرض الكفائي الذي يُسْقَطُ التبعية والإثم عن بقية المجتمع، وإلا تحقق فينا قول الباري جلَّ شأنه: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [هود: ١١٧]، ولم يقل: وأهلها صالحون؛ فإنَّ مجرد الصلاح ليس كفيلاً في النجاة من العقوبة الإلهية الرادعة، والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر بين المسلمين إنما هم في الحقيقة يقومون بمهام الرُّسُلِ في أقوامهم وذويهم، فبقدر الاستجابة لِنُصَحِهِمْ تكون الحُجَّةُ والنجاة، والعكس بالعكس، ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ؕ أَيْنَتْنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ ۖ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ [القصص: ٥٩].

إن انعدام التُّصْحِحِ بين المسلمين سِمَةٌ من سمات اليهود، ومعرَّةٌ من معرَّاتهم الخالدة؛ فقد كانت مواقفهم في الصيد يوم السبت عن طريق الحيلة مشهورة، حتى أعلن الفسقة منهم بصيده، فنهضت فرقة منهم ونهت عن ذلك وجاهرت بالنهي واعتزلت، وفرقة أخرى لم تعص ولم تنه بل قالوا للناهين: ﴿ لِمَ تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ [الأعراف: ١٦٤]، فلما لم يستجب العاصون، أخذهم الله بعذاب بئس بما كانوا يفسقون، فنصَّ الله على نجاة الناهين بقوله: ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ

عَنِ السُّوِّ ﴿ [الأعراف: ١٦٥]، وسكت عن الساكتين؛ روى ابن جرير بسنده عن عكرمة قال: دخلتُ على ابن عباس رضي الله عنهما والمصحف في حجره وهو يبكي، فقلت: ما يبكيك يا ابن عباس، جعلني الله فداءك؟ فقال: هؤلاء الورقات، وإذا هو في سورة الأعراف، فقال: ويلك، تعرف القرية التي كانت حاضرة البحر؟ فقلت: تلك أيلة، فقال ابن عباس: لا أسمعُ الفرقة الثالثة ذُكرت، نخاف أن نكون مثلهم، نرى فلا نُنكر، فقلت: أما تسمعُ الله يقول: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَآئِهِمْ وَانفَجَرَتِ﴾ [الأعراف: ١٦٦] فسرتي عنه وكساني حلة.

إذا ينبغي لأفراد الناس عموماً، وأهل العلم بخاصة: أن يقوموا بواجب التُّصَحِّح لمجمعاتهم وأسْرِهِم ومنتدياتهم، على الوجوه التي جاءت بها الشريعة الإسلامية، حكمةً وموعظةً حسنة ومجادلةً بالتي هي أحسن، وإنَّ الله لَيَزَعُ بالسلطان ما لا يَزَعُ بالقرآن، ثم إنه لا يمنع من التماذي في الوعظ والتُّصَحِّح والإصرار عليه، عدمُ قبول الحق من الناصح؛ لأنه فَرَضُ فَرَضِهِ اللهُ علينا جميعاً قَبْلَ أو لَمْ يُقْبَلْ، فإن هذا هو الذي يحفظُ للأُمَّة كيانها بأمر الله، وبه تكونُ المعذرةُ إلى الله، ويكونُ الخروجُ من التبعة وسوء المغبَّة، واللهُ الهادي إلى سواء السبيل.

اللهم صَلِّ على محمد وعلى آل محمد...

العقل بين مفهوميين

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له ومن يُضِلِّ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٧﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد:

فإنَّ أصدقَ الحديثِ كلامُ الله، وخيرَ الهدي هديُّ محمد ﷺ، وشرُّ الأمور محدثاتها، وكلُّ محدثة بدعة، وكلُّ بدعة ضلالة، وكلُّ ضلالة في النار.

أيها الناس، جميلٌ جدًّا أن يتحدَّث المرءُ بنعمة الله عليه، وبآلائه التي أسبغها على عباده ظاهرة وباطنة، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، ومما لا شكَّ فيه أن

نِعْمَ اللَّهُ عَلَيْنَا تَتْرَأ، بل كل النعم هي منه وحده لا يشركه معه غيره، ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

عباد الله، قد لا تختلف أفهامنا جميعاً، على أن من أعظم النعم التي أكرمنا الله بها، هي نعمة العقل، العقل الذي وهبنا الله إياه ليمتاز به عن الحيوان الأعجم والصحير الصلد، فبالعقل يشرف الإنسان، وبالعقل يكلف المرء المسلم، وبه يعرف خالقه جل شأنه، ذلكم العقل الذي يميّز به بين الخير والشر، والهدى والضلالة، إذا استعمله الإنسان كان سبباً في سلوك طريق الهدى، والبعد عن موارد الردى، العقل الذي يُعدُّ من أكبر الطاقات البشرية طراً؛ إنه نعمة عظمى، وسمة جلي امتنَّ الله بها علينا، ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣].

إنه لا يعلم قدر العقل إلا من وهبه، وإلا كان هو وغيره في الفلاة سواء. ومن تأمل حكمة الله جل وعلا في أن يكون الطفل الوليد بلا عقل اكتسابي: يدرك أثر هذه النعمة عليه حينما يوهب شيئاً بعدما منع منه؛ ليكون الإحساس به أشدَّ وقعاً، وأجدى نفعاً، ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، يقول ابن القيم **رحمته الله**: لو وُلِدَت أيها الإنسان عاقلاً، كحالك في كبرك، لتنغصت عليك حياتك أعظم تنغيص؛ لأنك ترى نفسك محمولاً رضيعاً، عاجزاً مسجوناً في المهد، أو كنت ممن ابتلي بفقد والديه، فكنت

كالواله الحيران، ولكنها محض الحكمة والرحمة بك والتدبير. اهـ.
ثم اعلّموا أيها الناس أنّ العقل إما أن يكون غريزياً، وإما أن
يكون اكتسابياً:

فالأول: كعقل الطفل الذي سبق ذكره.

والثاني: ما يكتسبه الصبي على مرور الأيام إلى أن يبلغ
أربعين سنة، ثم بعد ذلك يأخذ في النقصان إلى أن يخرف، بخلاف
العلم؛ فإنه يكون كل يوم في زيادة، ومنتهى تعلّم العلم هو منتهى
العمر، وهذا يدل على أن العقل أضعف من العلم، فلأجل ذلك
عباد الله، أجمعت الرّسل قاطبة على حفظ الضرورات الخمس،
والتي هي الدين والعقل والعرض والمال والنفس.

فالعقل إذاً ضرورةٌ كبرى من هذه الضرورات، مرهونة بإيجاد
ومنع، فالإيجاد: إنما يكون من خلال استعماله في طاعة الله
سبحانه، واعتقاد دين الإسلام به، والمنع: إنما يكون من خلال
سدّ كل ذريعة مفضية إلى إفساد هذا العقل أو تعطيله عن الاتصال
بنور الهداية، فلأجل ذلك حُرِّمَ كلُّ ما من شأنه أن يكون سبباً في
زواله؛ كسرب المسكرات والمخدرات ونحوها، بل لقد جعل
الشارع الحكيم الدّية كاملة في زوال العقل بسبب الاعتداء عليه،
ولو لم يكن من ذلك إلا كون العقل شرطاً في معرفة العلوم، وفي
الأعمال وصلاحتها، وبه يكمل دين الإنسان، لكفى، غير أنه لا
يستقل بذلك وحده، إذ هو غريزةٌ في النفس، وقوة فيها كقوة البصر

إيجاباً وسلباً، وما ذاك إلا بقدر اقتباسه من نور الإيمان، بيد أنه إذا انفرد عن النور، أو أبعده عنه بالكلية، كانت أقواله وأفعاله أموراً حيوانية؛ كما قال ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ.

ثم إن العقل البشري الذي يستطيع أن يؤدي وظيفته على أكمل وجه هو ذلكم العقل الذي تجرّد عن الهوى، وخلص من ربة التقليد الأعمى، فلم يتأثر بالآراء والأفكار المنحرفة، التي تدفع للوقوع في الزيغ والضلال، كما أنه لم يعطل عقله باتباع أعمى، فينجرّ به إلى انحراف ذريع، وزيغ مردٍ. هذا هو العقل الذي يمكن أن يحمل رسالة الإسلام حملاً صحيحاً، وأما الذين كبّلوا عقولهم وعطلوها عن موارد النهل الصافي، فهم الذين قال الله عنهم: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ ١٠ فَأَعْرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠، ١١].

وجماع ما مضى ذكره عباد الله: هو ما ذكره أبو القاسم الأصبهاني رَحِمَهُ اللهُ بقوله: العقل نوعان: عقل أعين بالتوفيق، وعقل كيد بالخذلان، فالذي أعين بالتوفيق يدعو صاحبه إلى موافقة الأمر المفترض بالطاعة، والانقياد لحكمه والتسليم، والعقل الذي كيد يطلب بتعمقه الوصول إلى علم ما استأثر الله بعلمه، وحجّب أسرار الخلق عن فهمه، حكمةً منه بالغة.

عباد الله، إنما قلنا ما قلناه في هذه العجالة كمدخل لتوطئة نشير بها إلى أن جملة من عقول هذه الأجيال المتأخرة، يخشى

عليها من تسأل ظلمات بعضها فوق بعض، أو أن تدب إلى عقولهم شبهات ومكابرات، لا يجد الوالغ في حماتها بصيص نور يهتدي به إلى سواء الصراط، أو يخلص به من ضلالة، وذلك من خلال حلول شيء من الازدواجية الممقوتة غير يسير، عبر وسائل التلقّي المختلفة، والتي يتعارك فيها الحق والباطل، والصحيح والضعيف، والعقل والشرع، والزين والشين، يبرز فيها الحق مرة والباطل فيها مرات، جنّدت لمثله أقلامُ بعض الورقيين من ممتهني الصحافة أو الكتابة، عبر الوسائل المقروءة أو المسموعة أو المرئية، وهي خير شاهد على هذا حيث لم تسخرُ جملة فيها للذب عن الإسلام شريعة وروحاً واعتقاداً، بل حبرت بعض الأقلام لتقرير نزعة جديدة يخلع الجلباب الساتر لكاتبها عن إبراز هذا المقصد.

فراحوا يخوضون فيما يسمّى «تمجيد العقل وإكباره»، وجعله حكماً قهرياً على عدد ليس بالقليل من نصوص الشريعة الإسلامية، فعرضوا الحاكمة في الشريعة على العقل، وعرضوا الحدود والجنايات على العقل، وعرضوا الولاء والبراء في الإسلام على العقل، وعرضوا بعض المسلّمات في قضايا المرأة المسلمة وشؤونها على العقل، حتى صار ذلك لوثة نعوذ بالله من تبعات قسّماتها، وشمالة نعوذ بالله من غوائلها، بل هي معرّة برمتها، لاكتها أفواه المعارضين بعقلانيتهم، حتى لفظتها أسماء أهل الشريعة.

ومثل هذا عباد الله ليس ببعيد على مَنْ أطلق العنان لعقله،
يصول به ويجول في شرع الله بلا خِطَام ولا زِمَام، ولا غرو في
ذلك، فقد قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: وكل مَنْ له مسكة من عقل، يعلم
أن فساد العالم وخرابه، إنما نشأ من تقديم الرأي على الوحي،
ومن أعظم معصية العقل إعراضه عن كتاب الله ووحيه، الذي هدى
به رسله، والمعارضةُ بينه وبين كلام غيره، فأَيُّ فساد أعظم من
فساد هذا العقل؟! اهـ.

فيا الله العجب أيها الناس، كيف يكون الحق قريباً وليس إليه
وصول؟! وكيف يكون أمثال هؤلاء كالعيسِ في البيداءِ يقتلُها الظما
والماءُ فوق رؤوسها محمول، وإذا كان يسعى إلى الماء من يغص
بلقمة واحدة، فإلى أي شيء سيسعى من يغص بالماء ذاته؟!!

إن سنن الله جل وعلا وشريعته لا تخاصم، ولا ينبغي لها أن
تتبع بالعقل، ولو فعل الناس ذلك، لم يمض يوم إلا انتقلوا من
دين إلى دين، ولعمر الله، إن بعض السنن لتأتي أحياناً على خلاف
الرأي ومجانبته خلافاً بعيداً، فما يجد المسلمون بدءاً من اتباعها
والانقياد لها؛ ولذلك قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «لو
كان الدين بالرأي، لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه».
وقد قال بعض السلف كأبي الزناد وغيره: وما برح مَنْ أدركنا من
أهل الفضل والفقه، من خيار أولية الناس، يعييون أهل الجدل
والتنقيب، ويعييون الأخذ بالعقل أشدَّ العيب، وينهونا عن لقاءهم

ومجالستهم، ويخبرونا أنهم أهل ضلال وتحريف.

حتى قال الأصبهاني رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: إذا رأيتَ الرجلَ إذا قيلَ له: لِمَ لا تكتب الحديث يقول: العقل أولى، فاعلم أنه صاحب بدعة.

بل لقد ذهب الشافعي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى أبعد من هذا، حيث جعل ترك السُّنَّة والاعتراض عليها، وعدم الأخذ بها نوعَ جنون أو هو جنون، وإن لم يكن حسيًّا، فقد قال: متى عرفتُ لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حديثاً ولم آخذ به، فأنا أشهدكم أن عقلي قد ذهب. ومن هنا وَصَفَ ابن تيمية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ العقل بالصنم، إذا غلا فيه المرء وطغى، فقال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: والداعون إلى تمجيد العقل إنما هم في الحقيقة يدعون إلى تمجيد صنم سمَّوه عقلاً، وما كان العقل وحده كافياً في الهداية والإرشاد، وإلا لما أرسل الله الرُّسل.

ولله! ما أجملَ كلاماً لابن القيم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، يشفي العليل، ويروي الغليل، في تقرير هذه المسألة فيقول: كيف ينقدح في ذهن المؤمن أن في نصوص الوحي المنزَّلة من عند الله عز وجل، ما يخالفُ العقولَ السليمة، بل كيف ينفك العقلُ الصريح عن ملازمة النصِّ الصحيح، بل هما أخوان لا يفترقان، وصلَّ الله بينهما في كتابه، وإذا تعارض النقلُ وهذه العقول، أخذنا بالنقل الصحيح، ورمي بهذه العقول تحت الأقدام، وحطَّت حيث حطَّها الله وأصحابها، فكيف يظن أن شريعة الله الكاملة، ناقصةٌ تحتاج إلى سياسة خارجة عنها تُكْمِلُها، أو إلى قياس أو معقول خارجٍ عنها، ومنَ ظنَّ ذلك

فهو كَمَنْ ظَنَّ أن بالناس حاجةً إلى رسولٍ آخر بعد محمد ﷺ . اهـ .
وحاصل الزمير عباد الله: أن العقل في هذه العصور المتأخرة، قد
 كبا كبوة خطيرة وأقحم في أمور ينبغي أن يكون العقل فيها تابعاً لا
 متبوعاً.

والسلف الصالح رحمهم الله قد استعملوا الأقيسة والدلائل
 العقلية، ولم ينكروها بإطلاق، وإنما أنكروا ما كان منها فاسداً مما
 يخالفُ الشرع، ويعلم فساده، مما يتذرّع به مَنْ يبطل بعض
 النصوص الشرعية، أو يحرفها؛ بحجة أنها تخالفُ القواطع العقلية،
 وهي في الحقيقة خيالاتٌ وأوهام وشهوات لا يميز فيها بين
 الشخص والصورة ولا بين الطَّيْفِ والحقيقة، حتى ركبت بهم متن
 عمياء، وخبطت خبط عشواء، ثم نقول لأمثال هؤلاء: إن أردتم
 إقحام العقول في فرز الشريعة فعقل أيّ من البشر نحكم؟! أهو
 عقل زيد، أم عقل عمرو؟ أعقل رجل، أم عقل امرأة؟! أعقل
 متزن، أم عقل صاحب هوى؟!

ألا إن دلائل العقل قلماً تتفق، بل عقل كل واحد يرى
 صاحبه غير ما يرى الآخر، وهذا بيّن والحمد لله، وقديماً قيل: لو
 سكت الذي لا يعلم، لما كان هناك خلاف. ومن لم ير الهلال،
 فعليه أن يسلم لأناس رأوه بأبصارهم، ثم كيف يحتجّ العقل على
 خالق، مِنْ بعض مخلوقاته هذا العقل؟!

وأما ما يسطره بعض الكتبة، وما يدندنون حوله، من ذكر

أحاديث للرسول ﷺ وردت في تعظيم العقل وإكباره، فإنه خلاف الحق، فقد قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: أحاديثُ العقل كلها كذب. ونقل عن بعض السلف قوله: لا يصح في العقل حديث؛ فصار فعل أمثال هؤلاء فيما يطرحونه من تحكيم العقل، والاستقلال به من القيود، كما يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: هو أخبث من لحم خنزير في صينية من ذهب.

فالواجبُ على كل مسلم عباد الله، أن يتَّقي ربَّه جلَّ وعلا، وأن يعلم أن شريعة الله ليست عرضة للعقول لتخاصم بها؛ فقد حدَّ الله للعقول حدوداً لا ينبغي تجاوزها، ولا الافتياتُ على الله فيها، والله يقول: ﴿قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠]، ويقول: ﴿صَبَّغَهُ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صَبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨]، وقال سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ [الحج: ٨]، قال بعضُ أهل العلم: وهذا دليلٌ ظاهرٌ في أن الذي نراه معارضاً للوحي، ويقدم العقل عليه، ليس من الذين أتوا العلم في شيء، كيف لا والله سبحانه يقول: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

اللهم لا علمَ لنا إلا ما علمتنا، فانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، إنك أنت العليم الحكيم.

قد قلتُ ما قلتُ، إن صواباً فمن الله، وإن خطأً فمن نفسي والشيطان والله ورسوله بريئان منه؛ وأستغفر الله إنه كان غفّاراً.

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له،
وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلّم وعلى آله
وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فاتقوا الله أيها المسلمون، واقدرُوا الله حقَّ قدره، وإياكم
ومحدثات الأمور، والمخاصمة لنصوص الشارع بعقولكم وآرائكم،
ولا تجعلوا شيئاً من ذلك مقدّماً عليها، فما وافق العقولَ قبلتوه،
وما لا فلا؛ لأن هذه بليّةٌ عظيمةٌ، وهوّةٌ كُبرى، اتّسع نطاقها في
بِقاعِ شتّى من ديار الإسلام، وأصحابها يصفون أنفسهم بالعقلية أو
الاستنارة أو التحرُّر.

ثم لتعلموا أيها المسلمون أن الذين يخالفون بعض النصوص
بسبب أنّ عقولهم لا تحتملها، أو لا تقتنع بها، أو بأي حجة
رجّحوا فيها كفة العقل على كفة الشرع: فإنهم لا يخرجون عن
خمس طوائف كما ذكر ذلك ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:

فالتائفة الأولى: عارضت الوحي بعقولهم، وقدمت عليه
العقل، فقالوا لأصحاب الوحي: لنا العقل، ولكم النقل.

والتائفة الثانية: عارضته بأرائهم وقياساتهم، فقالوا لأهل

الحديث: لكم الحديث، ولنا الرأي والقياس.

والطائفة الثالثة: عارضته بأذواقهم وحقائقهم، وقالوا: لكم الشريعة، ولنا الذوق والحقيقة.

والطائفة الرابعة: عارضت الوحي بسياساتهم وتدابيرهم، فقالوا: أنتم أصحاب الشريعة، ونحن أصحاب السياسة.

والطائفة الخامسة: عارضته بالتأويل الفاسد، وادَّعَوْا أنهم يفهمون أكثر مما يفهمه أهل الحديث والفقه.

ثم إنه إذا رُدَّ على كل من هؤلاء باطله، رجع إلى طاغوته وقال: في العقل ما لا يقتضيه النقل، وقال الآخر: في الرأي والقياس ما لا يجيزه الحديث، وقال الثالث: في الذوق والحقيقة ما لا تسوغه الشريعة، وقال الآخر: في السياسة ما تمنع منه الشريعة، وهكذا دواليك، حتى لا يبقى من الشريعة إلا اسمها، فباطل هؤلاء كلهم لا ضابط له، بخلاف الوحي؛ فإنه أمر مضبوط، مطابق لما عليه الأمر في نفسه، تلقاه الصادق المصدوق من لدن حكيم عليم.

وقد قال ابن تيمية رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «ما عِلِمَ بصريح العقل، لا يتصور أن يعارضه الشرع ألبتة، بل المنقول الصحيح لا يعارضه معقولٌ صريح قطُّ، ونحن نعلم أن الرُّسُلَ لا يخبرون بمحالات العقول، بل بمحارات العقول، فلا يخبرون بما يعلم العقل انتفاءه، بل يخبرون بما يعجز العقل عن معرفته».

ويدل لذلك عباد الله: أن الله تعالى ذمّ المنافقين، الذين كانوا يرجعون في نفاقهم إلى عقولهم؛ فقال تعالى: ﴿أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرَفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]، أي: من بعد ما قالوا: وقفنا على كلام الله بعقولنا، وهم يعلمون بطلان ما أدركوه بعقولهم. ويؤكد هذا الأمر: أن الله تعالى قال عن جهاذة كفار قریش وصناديدهم: ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَخْلَامُهُمْ بِهَذَا﴾ [الطور: ٣٢] أي: عقولهم؛ فدلّ أن العقل لا يهدي إلى الدين استقلالاً.

فالله الله أمة الإسلام في دينكم، وحوار حذار أن يؤتى هذا الدين من قبل تسليط الأفهام والعقول القاصرة عليه، وليكن موقفنا من شريعة ربنا كلها سواء، أدركنا ذلك بعقولنا معها أو لم ندركه، أن نقول: ﴿ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: ٧، ٨].

اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد...



مفاهيم في رمضان

الخطبة الأولى:

الحمد لله المبدئ المعيد، الفعّال لِمَا يريد، خَلَقَ الخَلْقَ بعلمِهِ
وقدَّرَ لهم أقداراً، وضرَّبَ لهم آجالاً، لا يستأخرون عنها ساعةً ولا
يستقدمون، قدَّرَ مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرضَ
بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء، عَلِمَ ما كان وما
سيكون ولو كان كيف يكون، كلُّ شيءٍ عنده بمقدار، ومشيئتهُ تنفذ
لا مشيئة العباد، إلا ما شاء لهم، فما شاء كان، وما لم يشأ لم
يكن، عنده علم الساعة، وينزلُ الغيث، ويعلمُ ما في الأرحام،
﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾، فله
الحمد كُلُّهُ وإليه يُرجعُ الأمرُ كُلُّهُ، وبيده الخَيْرُ كُلُّهُ، يَخْلُقُ ما يشاء
ويختار، ما كان لهم الخَيْرَةُ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا
شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، خيرٌ من صلَّى وقام،
وحجَّ وصام، ونصَّحَ لله وجاهدَ فيه حقَّ جهادِهِ، فصلوات الله
وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه أولي العفافِ والنُّهى، وسلِّم تسليمًا
كثيراً.

أما بعد:

فيا أيها الناس، لا وصية مبذولة، ولا تذكير مطروق، يقربُ إلى الله أفضل من الوصية بتقواه سبحانه؛ فاتقوه وراقبوه على كل حال، واعبدوه كأنكم ترونه، فإن لم تكونوا ترونه فإنه يراكم، والعاقبة للتقوى.

أيها المسلمون، في شهر رمضان المبارك، تتجلى أسرارُ خوالِد، وتترادف حلقاتُ حكمِ بواهر، يتضوُّ بعضها على بعض، بحيث لا يُملُّ كثرةُ الحديث عنها، فلا تخلق جدَّته، ولا يبلى ترجيعه، ولا تسأم سيرته، بل قد يحلو أو يعلو إذا أُعيد وتكرَّر، كما يحلو مذاقُ الشهد عند تكريره.

ولأجل هذا عباد الله، ما برحتِ النفوسُ المسلمة، تشرَّبُ لمثل هذه الإطلالة السنوية، والتي تعم المدرَ والوبرَ ما عمَّ الأجدانِ الليلُ والنهار، فلا غرو إذاً عباد الله، حين نُسلط الضوء - ولو قليلاً - على ما نُصَحَّح به بعض مفاهيمنا أو رتابتنا مع رمضان، وما نُحيي به ما تراكم عليه غبار النسيان في النفوس، حين يتخذ كثيرٌ من الناس في هذا الشهر، صورةً تقليدية تحكمها حركةُ العادة لا حركة العبادَة.

ففي هذا الشهر المبارك عباد الله: تُشدُّ النفوس إلى الدين والتدين، ويُذكَّرهم هذا الشهرُ بحقَّ الله تعالى عليهم، تُشمُّ رائحةُ

التدئين في أكثر من مجلسٍ يُجَلَسُ فيه، يُحَسُّ بإقبالِ الناسِ على العبادة والعمل الصالح، حتى إنهم يعرفون بذلك درجة الاستعداد لتغيير ما في النفوس حتى يغير الله ما بهم؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، يشعر الكثير في هذا الشهر المبارك بضرورة هذا الدين لهم؛ كضرورة الماء والهواء، ثم إن كل أمة تهمل أمر دينها وتعطل كلمة الله في مجتمعها، فإنما تهمل أعظم طاقاتها، وتعطل أسباب فلاحها في الدنيا والآخرة، وكل أمة يفقد التدئين في مجتمعها، فلا جرم أن أمورها تضرب، ويموج بعضها في بعض، فيقلب الله عزها ذلاً، وأمنها خوفاً، وإحكامها فوضى.

في شهر رمضان المبارك، ترتفع معايير القوة لدى المرء، بحيث يصعب اهتزازه إذا هو أحسن الإعداد فيه، وأدرك سرّاً عظيماً من أسرار هذا الشهر، قد تمثل في مثل قول النبي ﷺ: «إِذَا دَخَلَ شَهْرُ رَمَضَانَ، فَتُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ، وَغُلِقَتْ أَبْوَابُ النَّارِ، وَصُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ» [رواه البخاري ومسلم]، يقول ابن القيم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ معلقاً على هذا الحديث: «لأن في الصوم تضيق مجاري الشيطان من العبد بتضييق مجاري الطعام والشراب». اهـ.

فالخشية إذاً كلُّ الخشية عباد الله، على أنفس مسلمة، لم تجعل للشيطان حساباً في واقعها، وباتت غير آبهة بمكره وألعيه

هو وجنده من الجن والإنس، ﴿وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُوحِيَ إِلَىٰ آيَاتِهِمْ لِيُجَدِّدَ لَكُمْ^ط وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

إنه مما لا شك فيه: أن النفوس المسلمة قد تكون معترفةً بقابليتها لأعيب الشيطان ومكره؛ لكونها غير معصومة، إلا أن بعض هذه النفوس قد ظنَّ أهلها أنهم محميون ضد آثاره وإفساده، بعد أن كوّنوا حولهم هالةً زائفةً من الاطمئنان لأحوالهم وأوضاعهم الرتيبة، مع الاكتفاء بظواهر طفيفية من الإسلام، حتى أمسوا وكأنَّ ما يحملونه هو الإسلامُ فحسب، مما يحرمهم ولا شك من إصلاح أخطائهم من جهة، ومن الاستفادة من الصواب الذي يأتي به الغير من جهة أخرى؛ ألا إن هذا هو الشلل الأخلاقي بقضه وقضيضه، وهو الارتضاع من ثدي الهوى بعد الفطام، مع أن الرضاع إنما هو للطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء، والذين يتضورون على مرارة الفطام، فلا جرَمَ عباد الله، إذ الهوى مكاید، وكم من صنيذ في غبار الحرب اغتيل، كيف لا ورسول الله ﷺ يقول: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم» [رواه البخاري ومسلم].

إن الشعور الدائم بالتقصير هو الشعور الإيجابي المثمر، الذي يدفع للعمل الآني واليومي، كما أنَّ الشعور بالكمال العقيم شعورٌ عاطفي، لن ينفي عن كلِّ مسلم مسؤوليته أمام الله، عن أي

سوء في حاله وسلوكه وحياته، دينيًا كان أو دنيويًا، ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ
وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزِيهِ﴾ [النساء: ١٢٣].

أيها المسلمون، كثيرون هم الذين يتحدثون من على منابر
متنوعة عن شهر رمضان، وأنه شهر البطولات والأمجاد، وهذا أمر
لا مراءٍ فيه ولا جدال، غير أن الذي يجب تأكيده والثبات عليه، هو
أن البطولات والأمجاد، لا تُنال بمجرد التمني والتخيّل، في حين
أنّ القلب غافل لاهٍ، ألا إن للبطولات والأمجاد ثمنًا يندر تحصيله
والوقوف عليه؛ لأن سلعة الله غالية، وسلعة الله هي الجنة؛ ﴿إِنَّ
اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَرِّبُونَ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِمْ حَقًّا﴾ [التوبة: ١١١]. إن هذه
السلعة عباد الله، هي الرابط الأساس، بين المؤمنين وبين نصر الله
لهم، وأنهم كلّما كانوا إلى تحصيل هذه السلعة أقرب، كان النصر
إليهم أقرب، والعكس بالعكس، ولا أدلّ على ذلك من قوله تعالى
عن غزوة أحد، حين ذاق فيها المسلمون أوّل هزيمة لهم إبان أوج
كيانهم، ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ
إِذَا فَسِلْتُمْ وَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّا أَرْسَلَكُمْ مَّا
تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾

إن أثر المعصية وشؤمها على المجتمعات المسلمة لفي أمر مريع، من كثرة المواقعين لها، والعايئين من قيعانها كما الهيم، ألا إن للنصر شروطاً، منها جرُّ المعاصي، والنأي بالنفس عن أن تواقعها أو تتراءى لها، ولا أدلَّ على أثرها في الخذلان والهزيمة أمام العدو، من قول ابن مسعود رضي الله عنه فيما رواه أحمد في «مسنده» عن هزيمة أحد: «فلو حلفتُ يومئذٍ رجوتُ أن أبر، أنه ليس منا أحدٌ يريد الدنيا حتى أنزل الله: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾».

إن طريق المسلمين إلى النصر، هو في سلوك فعل النبي ﷺ حينما أحيأ ليله في بدرٍ وهو قائمٌ يصلي ويلطُّ بالحي القيوم، ليتأكد من خلال هذا عظم شأن الصلاة واللجوء إلى الله في كشف الملماتِ ورفع النوازل؛ فقد جاء في السنن أن النبي ﷺ «كان إذا حَزَبَهُ أمر، فزَعَّ إلى الصلاة»، إنَّ شعوباً لا تخاف إلا الله لن يغلبها مَنْ لا يخاف الله، وإنَّ مَنْ لا يعرف إلا الحقَّ لن يغلبه مَنْ لا يعرف إلا الباطل، فجنَّد الله هم الغالبون بالسيف والسنان؛ كما أنهم هم الغالبون بالحجة واللسان، غير أن الأمر قد بات من الخطورة بحيث يوجبُ البحث عن الأسباب المفضية إلى ضعف المسلمين، وإلى تكاثر خسائرهم الفادحة، ثم لننظر إلى مصدرها، هل هو خلل

ثقافي، أو عوجٌ خُلقي أو تضاربٌ سياسي واجتماعي؟ وما الذي أفقد الأمة كيانها، وجعلها تتلقى الضربات تلو الضربات، ثم هي تصرع أمامها.

عباد الله، في شهر رمضان المبارك، يلوح عبر الأجواء المطمئنة، خُلُقُ الرحمة والتراحم بين المسلمين، الذي هو مفتاحُ القبول لدى القلوب، والذي يضعُ الحياةَ الهائنة محلَّ الجاهلية الجهلاء، والأثرية العمياء، فيرهفُ الطبع وتَجِمُ فيه النفس، إذ هذا هو الدواء إذا استشرى الداء، وهو النصرَةُ حين تخذل القوة!! إنه لو أدرك المرء المسلم أن أول حق للمسلمين عليه، أن يحمل في نفسه معنى الناس، لا معنى نفسه، لَعَلِمَ أن مَنْ فاقَ الناس بنفسه الكبيرة دون تميز، كانت عظمته في أن يفوق نفسه الكبيرة، بهذا الأثر الطيب يُحسُّ المرء بقيمة المال؛ لما يحققه من مصالح ويضمّنه من منافع.

إن الأمة المسلمة يوم يكون مالها أداة ترف، ومصدر استعلاء وطغيان، ويوم يكون الأغنياء وذوو اليسار، أحلاسَ شُحٍّ وبُخْلِ، فالويل والخسران لأمةٍ أورتها مالها هذه الحال. إنَّ الجمع بين الصيام والصدقة، موجبٌ من موجبات الجنة حيث يقول رسول الله ﷺ: «إن في الجنة عُرفاً يرى ظهورها من بطونها، وبطونها من

ظهورها»، قالوا: لِمَنْ هي يا رسول الله؟ قال: «لِمَنْ طَيَّبَ الكلام، وأطعم الطعام، وأدام الصيام، وصلَّى والناس نيام» [رواه أحمد والترمذي].

إن من القسوة عباد الله: أن يمنع الواجد المعونة، وأن يتقلب في رغدٍ من العيش وسعةٍ من الرزق، ومن أبتت عليهم صروف الحياة في شدةٍ من الضيق وألمٍ من الإعسار، ومن هذه حاله فلا جرم أنه قاسي القلب، خالٍ من الشفقة، وكأنما قُدَّ قلبه من صخر صلد، فهو بعيد من رحمة الله؛ ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦]، إن المال غادٍ ورائح، ومُقبِلٌ ومُدْبِرٌ، وما هو إلا وسيلةٌ للإنفاق والبدل، وبلوغِ الأرب الأخروي، يقول النبي ﷺ: «أفضلُ الصدقة ما كان عن ظهرِ غنى» [رواه البخاري ومسلم].

فرحم الله عبداً كَسَبَ فتطهَّرَ، واقتصد فاعتدل، ورزِقَ فأنفق؛ وذكر ربَّه ولم ينس نصيبه من الدنيا، فَنِعِمَّ المَالُ الصالح للرجل الصالح، ويا خيبةً مَنْ طغى عليه ماله، وأضاع دينه وكرامته، فضلَّ وطغى أن رآه استغنى، وكان من الذين قال الله فيهم: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا﴾ [الجمعة: ١١].

إن الواجب على الأمة المسلمة ألا تُعَظَّمَ الدينار والدرهم، لئلا تستعبدوا المعاني المنحرفة، في النظرة للمال والحياة، فيكثر الغني مالاً، ويكثر ذو المسغبة عداوةً، وليعلم الجميع أن العزة في

الإسلام بإنفاق المال لا بإمساكه، وفي بذل الحياة لا في الحرص عليها، وفي اعتبار الغني ما يعمل بماله لا ما يجمع منه، بهذا كله غلب أهل الإسلام الأمم؛ لأنهم قبل ذلك غلبوا النفوس والشهوات، ألا إن النعم لا تدوم، وإن مع اليوم غداً، وإن بعد الحياة موتاً، وإن بعد الموت لحساباً، ﴿وَلِيَخْشَ الَّذِينَ تَوَكَّرُوا مِنْ حَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَفًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾

[النساء: ٩].

أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم.

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، أحمده حمداً لا
ينفد، أفضل ما ينبغي أن يُحمد، وأصلي وأسلم على أفضل
المرسلين محمد، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان وصام
وصلّى وتعبّد.

أما بعد:

فيا أيها الناس، حسنُ العبادة، ووفرةُ الطمأنينة، الناتجة عن
الذكر والتذكير، والمدارسة في هذا الشهر المبارك، تبدو واضحة
جليّة في استشعار عظمة هذا الشهر، والإحساس بحرمته وهيبته،
والبُعد عن المنغصات والملهيات، التي تُفسدُ على المرء دينه، أو
تشوشُ عليه عبادته، أو تُوجدُ له جواً من المتضادات اللامسؤولة،
فكما أن للشهر مرغباتٍ وحوافز، فإن هناك مزعجاتٍ ومنغصات،
ينبغي أن يزُمَّ المسلمون نفوسهم عنها، فمن ذلكم عباد الله: ما
يُشاهدُ من حركةٍ نشطة، واستنفارٍ مثيرٍ للدهشة، في برامجٍ مرئيةٍ
عبر أقمارٍ متنوّعة، تفتقد إلى الهدف المنشود، من خلال عرض ما
يخدش الحياء، أو ينشر الإثم، مما يخلق الدين قبل خلق العفاف

والحياء، فيبرزُ الطرب والسهر، الذي يتناوش الرشيد والسفيه، والقويم والفاسد، وكأنَّ مُعِدِّي تلك المشاهد قد رأوا الأمة في حالة من المحاصرة عن الترويح بحلول هذا الشهر، أو أنهم على شفا جرف هلكة، لا يتم الإيناس فيها، والتعويضُ عن الصوم والإمسك فيها عمَّا يُغضب الله، إلا بمثل ذلك؛ فلا غرو أنه بذلك يختلُّ برؤنا برمضان، ثم إن الأمة بذلك، تخسر في كل لحظة مواطناً صالحاً يضل بسبب مشهد، فيغشُّ به ويخدع، ويسرق ويحتال، ويتعلم مما يرى كيف يتخلص من عقوبة السرقة، أو بفتاة فاتنة يصورون فكاكها من غيرة وليها بالتضليل عليه، أو بالتعويد على ألفة الاختلاط بين الجنسين، وليس بمثل هذا يترفُّه الناس، ولا يتعلم الناس، ولا يصلح الناس!!! إذ كيف يستقيم الظل حينئذٍ والعودُ أعوج؟!!

ومنغصُّ آخرُ من المنغصاتِ في هذا الشهر المبارك، يتمثل في وضع الشباب والفتيات حينما يشغلون أوقاتهم فيما يذهب سهلاً، بحيث لا يأوي الشباب إلا الطُّرُق والممرات، فيزعجون ويوقظون، ويلحظون ويضايقون، حتى تبدو الممراتُ والطُّرُق، وكأنها لهم مآدباتٌ إبليسية، لتلقي القبيح من القول، والسيئ من الفعل.

وأما الفتاة المسلمة، فبإضاعة وقتها في التفنن بأنواع الطعام والشراب إن هي أحسنت، أو أن تكون خراجة ولأجة، جرياً بين

الأسواق، أو أماكن العبادة، دون تقيّد بآداب الشرع، أو إعطاء الطريق حقّه بالحشمة والسّتر والبُعْد عن أن تفتن أو تُفتن، فتحمل بذلك الوزر من حيث أرادت الأجر، وليس ذلك كله بمعفٍ الوالدين عن المسؤولية، فالكلُّ راعٍ والكلُّ مسؤولٌ عن رعيّته، وكفى بالمرء إثماً أن يُضَيِّعَ مَنْ يعول.

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد...



إطالة رمضان

الخطبة الأولى:

الحمد لله الأوّل الذي ليس قبله شيء، والآخر الذي ليس بعده شيء، والظاهر الذي ليس فوقه شيء، والباطن الذي ليس دونه شيء، يعلم ما يَلْجُ في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يعرّجُ فيها، وهو بكل شيء عليم، أحمدته سبحانه وأشكره وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله وصفيّه وخليله، وخيرته من خلقه، أفضل من صلّى وصام، وخير من حجّ لله وقام، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى أصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فأوصيكم أيها الناس ونفسي بتقوى الله سبحانه؛ إذ بها يشرف الناس، ويثقل الميزانُ ويعلو القدر، ويعظم الجاه، ولا جرم - عباد الله - فإنّ العاقبة للتقوى، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْآلَبِ لِعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ١٠٠].

أيها الناس: إن المُطَّلِعَ في واقع كثير من الناس، وسط أجواء المتغيرات المتكاثرة، والركام الهائل من المصائب والبلايا،

والنوازل والرزايا، ليلحظُ بوضوح أن كثيراً من النفوس المسلمة تَوَاقَةُ إلى تحصيل ما يثبت قلوبها، وإلى النهل مما تطفئُ به ظمأها، وتسقي به زرعها، وتجلو به صدأها فهي أَحوجُ ما تكون إلى احتضانِ ضيفِ كريم، يحمل في جَنَبَاتِهِ مادةَ النماء، فهي مُشْرِئَةٌ لحلوله، يقطعها التلهُّفُ إلى أن تطرح همومها وكدَّها وكدحها عند أول عتبة من أعتابه، بعد أن أنهكت قواها حلقاتُ أحداثٍ مترادفة، يموجُ بعضها في بعض، حتى غَلَّتْ مَرَاجِلُهَا، واشتدَّ أتونها، فما برحت تَأْكُلُ الأخضر واليابس، تفجع القلوب، وتُعَكِّرُ الصفو، وتصطفق وسط زوابعها العقول والأفهام، فلاجلِ هذا كله كان الناس بعامة أَحوجَ ما يكونون إلى حلول شهر الصيام والقيام، شهر الراحة النفسية والسعود الروحي، شهرِ الركوع والسجود، شهرِ ضياء المساجد، شهرِ الذِّكْرِ والمحامد، شهرِ الطمأنينة ومحاسبة النفس، وإيقاظِ الضمير، والتخلُّصِ من النزعات الذاتية، والملذَّات الآنية، في شهوات البطون والفروج، والعقول والأفئدة، والتي شرِعَ الصيام لأجل تضيق مجاريها في النفوس، وكونه فرصة كلِّ تائب، وعبرة كل آيب؛ ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لِمَلَّكُمُ تَقْوُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

أيها المسلمون، شهر رمضان المبارك هو شهر القرآن، القرآن الذي لا تنطفئ مصابيحُه، والسراج الذي لا يخبو توقُّده، والمنهاج

الذي لا يَضِلُّ ناهجه، والعز الذي لا يُهْزَم أنصاره، القرآن عباد الله هو في الحقيقة بمثابة الروح للجسد، والنور للهداية، فمن لم يقرأ القرآن، ولم يعمل به فما هو بِحَيٍّ، وإن تكلم أو عمل أو غدا أو راح، بل هو ميِّتُ الأحياء، ومن لم يعمل به ضلَّ وما اهتدى، وإن طار في السماء أو غاص في الماء، ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

إن الإنسان بلا قرآن كالحياة بلا ماء ولا هواء، بل إن الإفلاس متحقق في حسّه ونفسه؛ ذلك أن القرآن هو الدواء والشفاء، ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءً وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًّ أُولَئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

إن مما لا شك فيه - أيها المسلمون - أن صلة الكثيرين بكتاب ربهم يكتنفها شيء من الهجران والعقوق، سواء في تلاوته أو في العمل به، بل قد لا نبعث النجعة لو قلنا: إن علل الأمم السابقة قد تسللت إلى أمة الإسلام لـوإذاً وهي لا تشعر، ألا تقرأون - يا رعاكم الله - قول الباري جلّ وعلا: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨]؛ يقول المفسرون: «أي: لا يعلمون الكتاب إلا تلاوة وترتيلًا، بحيث لا

يُجاوِزُ حناجرهم وتراقبهم»، كل ذلك بسبب الغياب القلبي،
والحجر الروحي عن تدبُّر القرآن، بل إن البعض على قلوبهم
أَفْقَالُهَا، ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ عَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء:
٨٢] أفلا يَتَدَبَّرُونَ القرآن إذا؟!

إن من أسباب عدم التدبُّر هو البُعد عن اكتشاف سُنن الله في
الأنفس والآفاق، وحُسن تسخيرها والتحرُّر غير المبعَّض من تقديس
الأفهام المغلوطة، والتأويلات المأريية المخلوطة، والتي انحدرت
إلى كثير من أوساط الناس، عبر لوثات عِلَل، وأفهام يعترتها شعورٌ
طاغٍ من حب الدنيا وكراهية الموت، وما عند الله خيرٌ وأبقى للذين
هم لرَبِّهم يرهبون.

روى الإمام أحمد، والترمذي، وابن ماجه، عن زياد بن لبيد
الأنصاري رضي الله عنه قال: ذَكَرَ النبي ﷺ شيئاً فقال ﷺ: «وذلك
عند ذَهَابِ الْعِلْمِ»، قلنا: يا رسول الله، كيف يَذْهَبُ الْعِلْمُ، ونحن
قرأنا القرآن، ونقرته أبناءنا، وأبناؤنا يقرئونه أبناءهم؟! فقال:
«تَكَلَّتْكَ أُمُّكَ يَا ابْنَ لَبِيدٍ، إِنْ كُنْتُ لِأَرَاكَ مِنْ أَقْفِهِ رَجُلٍ فِي الْمَدِينَةِ،
أُولَئِكَ هَذِهِ يَهُودُ وَالنَّصَارَى بِأَيْدِيهِمُ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَلَا يَنْتَفِعُونَ
مِمَّا فِيهِمَا بِشَيْءٍ!؟».

إن المرء المسلم لتأخذ الدهشة بلبه كلَّ مأخذ، حين يرى
مواقف كثير من المسلمين مع كتاب ربِّهم، وقد أحاط بهم الظلام،

وادلهمت عليهم الخطوب من كل حدب وصوب، ثم هم يتخبطون
خبط العشواء، أفلست التظم، وتدهورت القوميات، وهشت
العولميات، فيالله العجب، كيف يكون النور بين أيدينا ثم نحن
نلحق بركاب الأمم من غيرنا؟! تتهاوى بنا الريح في كل اتجاه لا
نلوي على شيء!

لقد عاش رسول الله ﷺ ثلاثة وستين عاماً، ولقد كنا نسمع
كثيراً أن كبر السن وصروف الحياة المتقلبة قد تشيب منها مفارق
الإنسان، فما ظنكم بمن تمر به هذه كلها واحدة تلو الأخرى، ثم
هو ينسب المشيب الذي فيه إلى آيات من كتاب ربه كان يردها،
ومعان يتأولها ويتدبرها؛ روى الترمذي والحاكم؛ أن أبا بكر رضي
الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ما شيبك؟ قال:
«شيبتي هودٌ والواقعة وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت».

إن رمضان بهذه الإطلاة المباركة، ليعدُّ فرصة كبرى، ومنحة
عظمية، للمرء المسلم في أن يطهر نفسه بالنهار لكي يعدها لتلقي
هدايات القرآن في قيام الليل، ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾
[المزمل: ٦]، وناشئة الليل هي ساعاته وأوقاته، فهي أجمع على
التلاوة من قيام النهار؛ لأنه وقت انتشار الناس ولغط الأصوات،
فكأن الصيام في النهار تخلية، والقيام بالقرآن في الليل تحلية.

عباد الله، شهر رمضان المبارك، شهر رحب وميدان فسيح،

يوطدُ المرءُ نفسهُ من خلاله على أن يُحيي ليله، وعلى ألا يلجأ في حوائجه إلا إلى قاضيهما سبحانه؛ إذ لا ملجأ من الله إلا إليه، وهو يقضي ولا يُقضى عليه.

فثلث الليل الآخر هو وقت التنزل الإلهي على ما يليق بجلاله وعظمته إلى سماء الدنيا، إذ يقول: «هل من سائل فأعطيه؟ هل من داع فاستجب له؟ هل من مستغفر فأغفر له؟».

تُرَى هل فُكِّر كل واحد منّا في استثمار هذا الوقت العظيم الذي هو من أكد مضاناً إجابة الدعاء؟! ترى ما هي أحوال الناس مع ثلث الليل الآخر؟! بل كم من شاك لنفسه قد غاب عنه هذا الوقت المبارك!! كم من مكروب غلبته عينه عن حاجته ومقتضاه!! كم من مكلوم لم يفقه دواءه وسرَّ شفائه، كم وكم وكم!! ألا إن كثيراً من النفوس في سُبَاتٍ عميق، إنها لا تكسل في أن تجوب الأرض شمالها وجنوبها، وشرقها وغربها، باحثَةً عن ملجأ للشكوى، أو فرصة سانحة لعرض الهموم والغموم، على مَنْ تقصده من بني البشر، غافلة غير آبهة بالالتجاء إلى كاشف الغمِّ وفارج الهم، ومُنْقِص الكرب، ﴿بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ [المؤمنون: ٨٨]، ﴿يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢]، ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٣، ١٤].

روى الإمام أحمد والترمذي والنسائي؛ أن النبي ﷺ قال:

«ثلاثة لا تُرَدُّ دعوتهم: الإمامُ العادل، والصائمُ حتى يُفْطِر، ودعوةُ المظلوم يرفعها اللهُ فوقَ العَمَامِ يومَ القيامةِ، ويفتَحُ لها أبوابَ السماءِ ويقول: بعزَّتِي لأُنصِرَنَّكَ ولو بعدَ حينٍ».

غير أن ثَمَّةَ أمراً مهمّاً عباد الله، وهو أن كثيراً ممَّن يرفعون أَكْفَ الضَّرَاعَةِ بالدعاء إلى الباري جلَّ شأنه، قد يستبطنون الإجابة، ولربما أصابهم شيء من اليأس والقنوط، ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

يَبْدُ أن هناك خلافاً ما هو السرُّ الكامنُ في منع إجابة الدعاء، كأن يكون المرء ممَّن يستعجلون الدعاء، ويتحسَّسون الإجابة على تملل ومَضَض، وهذا مانع أساس من الإجابة؛ لقول المصطفى ﷺ في الحديث الصحيح: «إِنَّ اللهَ يَسْتَجِيبُ لأحَدِكُمْ ما لَمْ يَعْجَلْ، يقول: دعوتُ ربي فلم يُسْتَجَبْ لي»، ولربما لم يستجب الدعاء؛ لما فيه من الإثم، أو قطيعة للرحم، أو أن يكون الدعاء المنبثق من شفاه الداعين غير مقترن بالقلب اقترانَ الماء والهواء بالروح؛ لأن اللسان ترجمان القلب وبريده، والقلبُ خزانة مستحفظةُ الخواطر والأسرار ومسارب النفس الكامنة، فالدعاءُ باللسان والقلب غافلٌ لاهٍ إنما هو قليل الجدوى أو عديمها؛ فرسول الله ﷺ يقول: «إِنْ اللهُ لا يَقْبَلُ الدعاءَ مِنْ قَلْبٍ لاهٍ» [رواه الحاكم والترمذي وحسنه].

فالقلب إذاً لا يخلو من الالتفات إلى شهوات الدنيا الصارفة،

ومن المعلوم بداهة أن المتلفت لا يصل سريعاً.

فالله الله - أيها المسلمون - في الدعاء، فهو العبادة ومُحُّها، وهو السَّهَامُ النافذة لذوي العجز وقلة الحيلة، ولا يحقرن أحدكم الحوائج مهما قلت أو كثرت؛ فإن الله أكثر، وقد قال سبحانه: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وبعد - يا رعاكم الله - نقول لذوي المصائب والفاقات، والهموم والمقلقات: خذوا هذا المثل عبرة وسُلواناً يتجلَّى من خلالها أثر الدعاء في حياة المرء، وأنه لا غِنَى له عنه مادام فيه عِرْقٌ ينبض؛ إذ هو الدواء إذا استفحل الداء، وهو البرد إذا اشتدَّ الحرُّ.

دَخَلَ رسول الله ﷺ المسجد ذات يوم فإذا هو برجل من الأنصار يُقال له أبوأمامة، فقال: «يا أبا أمامة، ما لي أراك جالساً في المسجد في غير وقت الصلاة؟!» قال: هموم لَزِمَتْنِي وديون يا رسول الله، قال: «أفلا أعلمك كلاماً إذا قلته أذهبَ اللهُ همَّك، وقضى عنك دَيْنك؟» قال: بلى يا رسول الله، قال: «قل إذا أصبحت وإذا أمسيت: اللهم إني أعوذ بك من الهمِّ والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غَلَبَةِ الدَّيْنِ وقهرِ الرِّجال»، قال أبوأمامة: ففعلت ذلك فأذهب

الله هَمِّي وَقَضَى عَنِّي دِينِي . [رواه أبو داود].

وعند أحمد والترمذي أن علياً رضي الله عنه جاءه مَكَاتِبُ يشكو إليه ديناً عليه، فقال علي رضي الله عنه: أَلَا أَعَلَّمَك كَلِمَات عَلَمْنِيهِنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَوْ كَانَ عَلَيْكَ مِثْلُ جَبَلٍ دَيْناً أَدَّاهُ اللَّهُ عَنْكَ؟ قُل: «اللَّهُمَّ، اكْفِنِي بِحَلَالِكَ عَنْ حَرَامِكَ، وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ»، [قال الترمذي: حديث حسن].

فَاللَّهُمَّ، إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ وَقَهْرِ الرِّجَالِ.

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...



الخطبة الثانية

الحمد لله وليّ الصالحين، ﴿ غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّلَوِّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ ﴾ [غافر: ٣]، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله وسلّم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فلقد أظلكم - أيها المسلمون - شهرٌ كريمٌ يحمل في طياته تهيئة النفس على تحمّل الجوع والعطش، ترى الطعام بين ناظريك، تشتيه نفسك، وتصل إليه يدك، ولكنك لا تستطيع أن تأكله، ويشعل الظمأ جوفك، والماء من حولك، فلا تقدر على أن تنهل منه، ويأخذ النعاس بلُبُّك، ويداعبُ النوم جفنيك، ويأتي رمضان يوقظك لصلاتك وسحورك، إنها - ولا شك - حلقاتُ الصبر والمصابرة، التي قال عنها النبي ﷺ: «الصومُ نِصْفُ الصبر» [رواه الترمذي].

شهر رمضان - عباد الله - شهر الجود والإنفاق، شهر النفوس السخية، والأكف النديّة، شهر يسعف فيه المنكوبون، ويرتاح فيه

المتعبون، فليكن للمسلم فيه السهمُ الراجح، والقِدْحُ المعلى، فلا يترددنَّ في كفكفة دموع المعوزين واليتامى والأرامل، من أهل بلده ومجتمعه، ولا يَشْحَنَنَّ عن سدِّ مسغبتهم، وتجفيف فاقنتهم، وحوذار من الشُّحِّ والبُخلِ حذار، فإنهما معرّة مكشوفة السوأة، لا تخفى على الناس فتوقها، ناهيكم عن كون النبي ﷺ استعاذَ بربهُ منهما، بل إن الجُود والكرم كانا لزيمي رسول الله ﷺ طيلة حياته، في حين أنه يتضاعف في رمضان، حتى يكون كالريح المرسله، وفي «الصحيحين» أنه ﷺ ما سُئِلَ شيئاً فقال: لا، إضافة إلى أنّ نتاج هذا التحضيض غيرُ قاصر على سعادة ذوي المسكنة وحدهم، بل يزيد أمانه حتى إلى الباذلين أنفسهم؛ فلقد قال النبي ﷺ: «مَثَلُ البخيل والمنفقِ كَمَثَلِ رجلينِ عليهما جبَّانٌ من حديدٍ من ثديهما إلى تراقيهما، فأما المنفقُ: فلا يُنْفِقُ إلا صَبِغَتْ على جلده حتى تخفي بنانه، وتعفو أثره، وأما البخيلُ: فلا يريد أن ينفق شيئاً إلا لزقت كل حلقة مكانها، فهو يوسّعها ولا تتسع» [رواه البخاري ومسلم].

والمعنى هنا ظاهر - عباد الله - فإن الجواد السخي إذا همَّ بالصدقة، انشرح لها صدره، وطابت بها نفسه، وتاقت إلى المثوبة، فتوسّعت في الإنفاق، ولا يضيره الحديد، بل هو يتسع معه حيثما اتسع، ولا غرو في ذلك؛ فإن الجواهر ولو كانت تحت التراب فهي جواهر، والأسد في قفص الحديد أسد ولا شك، بيد

أن البخيل إذا حدّث نفسه بالصدقة، شحّت نفسه، وضاق صدره، وانقبضت يده، وأحسّ كأنما يعطي من عمره وفؤاده، حتى يعيش في نطاق ضيق لا يرى فيه إلا نفسه، غير مكترث بالمساكين، عن اليمين وعن الشمال عزين، مثل هذا - ولا شك - قد وضع الإصر والأغلال في يده، وجعلها مغلولة إلى عنقه، ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٠]، ولكن ليس شيء أشدّ على الشيطان، وأبطل لكيده، وأذخر لوسواسه من الصدقة الطيبة، ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

اللهم صلّ على محمد، وعلى آل محمد...



التفريط في الأعمال الصالحة

الخطبة الأولى:

الحمد لله فاطر السموات والأرض، غافر الذنب وقابل التوب، شديد العقاب ذي الطُّول، لا إله إلا هو إليه المصير، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، خَلَقَ فَسَوَّى، وَقَدَّرَ فَهَدَى، وأخرج المرعى، فجعله غثاءً أحوى، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله إلى جميع الثَّقَلَيْنِ الإنس والجنّ بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، أقام الله به الحُجَّةَ، وأوضَحَ الطريق، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه وخلفائه الأربعة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وعلى سائر أصحابه الأخيار النُّجباء الأطهار.

أما بعد:

فأوصيكم أيها الناسُ ونفسي بتقوى الله سبحانه، والاعتصام به في السرِّاء والضرِّاء، وألا تلبسوا الحق بالباطل، وتكتموا الحق وأنتم تعلمون، واعلموا أن ما بكم من نعمة فمن الله، أفعير الله تتَّقون.

عباد الله، في دنيا الناس أمثلةٌ وضروب، ومحادثاتٌ لاقت رَجْعَ الصِّدى بين الحين والآخر في غير ما مجلس، يتحدث من خلالها المتحدثون، عما يشاهدونه بمرّات وكمرّات، من تفويت للحظوظ، وتفريط في المصالح الظاهرة، لاسيما تلك التي تكون

في معاش الناس، وهي لا تساوي إلا ثمناً بخساً زهيداً، يتحصّل من خلاله على مردود ليس بالقليل، من الحظ الوافر والرزق الواسع.

ألا وإنّ من المقرّر شرعاً وعرفاً بين الناس: أن من ظهر له ربح ما في مباحة، لا يحتاج في أن يعتاض عنها إلا شيئاً يسيراً، ثم هو يُفَرِّطُ في تحصيلها، فإنه قلّ أن يسلم ولا شك من بروز من يصفه بالسّفَهِ والحُمق، ولربّما تعدّى الأمر إلى دعوى أن مثله أهل لأن يُخَجَرَ عليه بسبب تفويته مصلحةً محقّقة بأقلّ كلفة دون مسوّغ.

والأمر الذي نريد أن نتحدّث عنه باقتضاب في هذه العجالة، شبيه بما ذكرناه آنفاً، غير أن ما يعيننا هنا، هو أمر أخروي لا دنيوي، وراجح لا مرجوح، بل هو خير من كنوز كِسْرَى وقيصر، وخير من مال قارون وخيرات سبأ، بل إنه من الحسنات اللاتي يُذْهِبُ السيئات، ذلك ذكرى للذاكرين.

ذلكم عباد الله هو ما يُعْرَفُ باسم «التفريط في الأعمال الصالحة»، وأخص في الحديث منها: فضائل الأعمال.

أيها الناس، إننا حينما نتحدّث عن فضائل الأعمال وفقهها، فسيأخذ الحديث بألبابنا، ولربما طال بنا المقام، والقلوب مشرّبة إلى سماعها بتمامها، بيّد أن الذي نودّ تسليط الحديث عليه، هو ذلكم الشعور السلبي، والإحساسُ شبه المغيّب حقيقة عن استحضار الصورة الحقيقية لفضائل الأعمال، لاسيّما تلك الأعمال

التي تستجلب الحَسَنَات الكثيرة في مقابل العمل الصغير، والتي قد يفعلها جمهور من الناس غير أنه يقل من يستشعر أبعادها، أو يدرك حقيقة أجرها، بقطع النظر عن كون بعضهم يُوَدِّيها على شبه صورة اعتيادية، فضلاً عَمَّن نأى بنفسه عنها بالكلية، مع أنه لو عَلِمَ ما فيها من الأجر والمثوبة، لحكم على نفسه بالسَّفَه والحِطَّة، كيف يضيعها لتغدو عنه سهلاً.

ولا جرم عباد الله، فعمر الإنسان مهما طال، فهو إلى القِصَر أقرب، ولو استحضرننا قليلاً حديث النبي ﷺ في قوله: «أعمار أمتي ما بين ستين إلى سبعين، وأقلهم من يجوز ذلك» [رواه الترمذي وغيره]، لو استحضرننا هذا الحديث عباد الله، وقُمْنَا بقسمة عمر مَنْ بلغ الستين، وجعلنا له من يومه ما يقارب سبع ساعات يأخذها في النوم، فإنَّ ثلث الستين سنة سيكون نوماً قطعاً، وإن ما يعادل سنتين تقريباً سيكون لتناول الطعام، لو قلنا بالوجبات الثلاث، وما يُقارب خمس عشرة سنة يكون سن طفولة وصبوة دون التكليف؛ وحينئذٍ لا يبقى له حقيقة من الستين إلا ما يقارب ثلاثاً وعشرين سنة. كل ذلك يؤكِّد للمرء أنه أحوجُّ ما يكون إلى كل مبادرة للعمل الصالح.

أيها المسلمون، إن في ضرب المثل غنيةً وكفاية لمن هم في الفهم والإدراك فُحُل، فإليكم عباد الله أمثلة متنوعة، نستطيع من

خلال ذكرها، أن ندرك جميعاً مدى الهوة السحيقة، والبون الشاسع، بيننا وبين البدار إلى الأعمال الصالحة.

جاء عند مسلم في «صحيحه» أن ابن عمر رضي الله عنهما «كان يصلي على الجنازة ثم ينصرف، فلما بلغه حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن النبي ﷺ قال: «مَنْ تَبَعَ جَنَازَةً، فَلَهُ قِيرَاطٌ» قال ابن عمر رضي الله عنهما: لقد فرطنا في قراريط كثيرة.

ألا فانظروا يا رعاكم الله، إلى ندم ابن عمر رضي الله عنهما، كيف أسف على تضييعه لهذه القراريط، ولا غرو أيها المسلمون في ذلك؛ فإن القيراط الواحد كجبل أحد.

في «الصحيحين» أن النبي ﷺ قال: «مَنْ قَالَ حِينَ يُضْبِحُ وَحِينَ يُنْسِي: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، مِائَةَ مَرَّةٍ؛ حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ»، وعند مسلم أنه ﷺ قال: «أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكْسِبَ كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ حَسَنَةٍ؟ فَسَأَلَهُ سَائِلٌ مِنْ جُلَسَائِهِ: كَيْفَ يَكْسِبُ أَحَدُنَا أَلْفَ حَسَنَةٍ؟ قَالَ: يُسَبِّحُ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ؛ فَيَكْتُبُ لَهُ أَلْفَ حَسَنَةٍ، أَوْ يَحِطُّ عَنْهُ أَلْفَ خَطِيئَةٍ» وعند أحمد وأصحاب السنن أن النبي ﷺ قال: «مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، غُرِسَتْ لَهُ نَخْلَةٌ فِي الْجَنَّةِ».

فانظروا يا رعاكم الله إلى هذه الحسنات الهائلة، وإلى ما يقابلها من العمل اليسير، حسنات يُعْبَثُ مِنْهَا الْإِنْسَانُ عَبًّا، لا غلاء ولا كلفة، غير توفيق الله لمن بادر، ألا فليت شعري أترون نخيل

الجنة كنخيل الدنيا، لله بكم يشتري أطيب النخيل في ديانا؟! ألا
فالله أكبر ولا إله إلا الله، نخلة في الجنة ثمنها سبحان الله
وبحمده!! أوّه، تالله لقد فرطنا في نخيل كثيرة؛ فالله المستعان.

هذا في الذكر عباد الله، فما تقولون فيمن حسن خلقه؛ فكفّ
أذاه، وخفض جناح رحمته، وزمّ نفسه عن سفاسف الأمور لينال
معاليها، فرحم وصدق، وبر وأوفى، وهشّ في وجه أخيه وبش،
إن ظلم صبر، وإن أخطأ اعتذر، لا يستنفره الغضب، ولا يستثيره
الحمق، فيه وفي أمثاله يقول النبي ﷺ: «ما من شيء أثقل في
ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله ليبغض الفاحش
البذيء» [رواه الترمذي].

وعند أبي داود وغيره أن النبي ﷺ قال: «إن المؤمن ليدرك
بحسن خلقه درجة الصائم القائم»، فيالله العجب، إذا كان هذا أجر
الخلق، فعلام النزق من أقوام؟! وما سرّ ضيق العطن لدى آخرين؟!
ولم الحسد والغرور وبطر الحق وغمط الناس!!! ألا إن سلعة الله
غالية، ألا إن سلعة الله هي الجنة.

عباد الله، لقد جاء في أجور صيام النوافل وفضلها، ما يعلم
المقصر من خلاله أنه كان جلس تفريط، صار به من القعدة
المفرطين، ولو رمق المفرط بمقلتيه نصوص السنة النبوية في فضل
صيام النوافل، لعلم سر التحريض والتحضيض في تحصيلها،

وإدراك ما أمكنَّ من الفرص التي يتأكد استغلالها؛ جاء في الحديث الصحيح: «أن مَنْ صام رمضان، ثم أتبعه ستاً من شوال، كان كصيام الدهر» أي: كصيام سنة كاملة بعدد أيامها، وفي الحديث الصحيح الآخر، يقول النبي ﷺ عن صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وهي أيام البيض: «إنها كصيام الدهر» أي: كصيام سنة كاملة، فلو نظرنا عباد الله: إلى محصلة مجموع هذا الصيام في السنة، لوجدناه يبلغ اثنين وأربعين يوماً، فتكون النتيجة أن مَنْ صامها كاملةً، كان كمن صام سبعمائة وعشرين يوماً فيما سواها، أي: أكثر من سبعة عشر ضعفاً، فلا إله إلا الله، والله أكبر، كم نحن مفرطون!!

عباد الله، ما مضى ذكره، إنما هو جزءٌ من كل، ونقطةٌ من محيط، والفرصُ الثمينة ما لفواتها من عوض، وإن انتهزها لَدليل على قوة الإرادة، النابعة عن عزم موفق، فمن علم خيراً فليبادرْ هوام لئلا يغلبه، فلعلَّه يظفر بما إمضاء الوقت فيه هو الغنم، وعلى الضد يكون الغرم، ألا إن مَنْ فرح بالبطالة، جَبُنَ عن العمل، ومهما علم الإنسان من الأمور والفضائل، وكانت رغباته صالحة، فإنه لن يستفيد إلا إذا انتهز كل فرصة سانحة له، ثم إن الأعمال الصالحة بعامه لا تأخذ من الناس وقتاً طويلاً، ما لم يشرع الناس لأنفسهم ما لم يأذن به الله، فَيَشُقُّوا على أنفسهم، ويرهقوها عسراً. فاعلم أيها المسلم أنك في ميدان سباق، والأوقات تنتهب، وإياك إياك والخلودَ إلى الكسل، فما فات ما فات إلا بالكسل، ولا

نالَ مَنْ نالَ إلا بالجدِّ والعزم، وثمرة الأمرين أن تعب المحصل للفضائل راحة في المعنى، وراحة المقصّر في طلبها تعب وشين إن كان ثمَّ فهم لديك رعاك الله، والدنيا كلها إنما تُراد لتعبر لا لتعمر، وما يناله أهل النقص بسبب فضولها والانشغال بها عما هو خير منها، فإنه يؤذي قلوبَ معاشريها حتى تنحط، ومن ثمَّ يأسفُ أمثالُ هؤلاء على فقد ما وجوده أصلحُ لهم، في حين إن تأسفهم ربما يكون شبه عقوبة عاجلة على تفريطهم.

يقول ابن الجوزي رحمته الله متحدثاً عن زمنه: «لقد اشتدَّ الغلاء ببغداد، فكان كلما جاء الشعير، زاد السعر، وتدافع الناس على شراء الطعام، فاغتبط من يستعدُّ كلَّ سنة يزرع ما يقوته، وفرح من بادر في أول الناس إلى شراء الطعام قبل أن يضاعف ثمنه، وأخرج الفقراء ما في بيوتهم، فرمَوْه في سوق الهوان، وبان ذلُّ نفوس كانت عزيزة، فقلت: يا نفس، خذي من هذه الحال إشارة!! ليغبطنَّ من له عمل صالح وقت الحاجة إليه، وليفرحنَّ من له جوابٌ عند إقبال المسألة». انتهى كلامه. روى الإمام مالك في «الموطأ» أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول في بعض دعائه: «واقبضني إليك غير مضبَّع ولا مُفَرَّط»، ﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إرغاماً لمن جحد به وكفر، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله سيد البشر، والشافع المشفع في المحشر، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه السادة الغرر.

أما بعد:

فاتقوا الله عباد الله، ثم اعلموا أن للتفریط في الأعمال الصالحة أسباباً كثيرة يطول حصرها.

غير أن من أهمها: الغفلة عن مدى حاجة المرء المسلم إلى تحصيل مثل هذه الأجور المضاعفة، والتي قد يسدُّ بها نقصاً كبيراً من الخلل الوارد على الفرائض، ناهيك عن التزوُّد في الطاعة، والله جلّ وعلا يقول: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧].

ومن الأسباب عباد الله: ضعفُ التصوُّر الصحيح أو تلاشيه وبعده عن حقيقة أجور بعض الأعمال المضاعفة؛ فإن الاستمساك بالشيء، والعضُّ عليه بالنواجذ، إنما هو فرعٌ عن تصوُّره وإدراكه.

يقول ابن الجوزي رحمته الله: «من لمح فجرَ الأجر، هان عليه

ظلامُ التكليف».

إحياء سيئة أو سنّها بين الناس، فيتبعها غيره فيضل، فيعود إليه وزرها ووزر من عمِل بها من بعده، ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل: ٢٥]. يقول الرسول ﷺ: «لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كِفْلٌ من دمها؛ لأنه أول من سنّ القتل» [رواه البخاري ومسلم]. فحذار حذار أيها المسلم من أن توقع نفسك في مغبّة هذا الشرك الموحش، أو أن يكون لك من السوء ما لا يقتصر أثره عليك أنت وحدك، بل يتعداك إلى آحاد المسلمين، ولقد أحسن الإمام الشاطبي حين قال: «طُوبَى لِمَنْ مات ومات معه ذنوبه، والويل الطويل لِمَنْ يموت وتبقى ذنوبه مائة سنة ومائتي سنة، يُعَذَّبُ بها في قبره ويُسأل عنها إلى انقراضها».

اللهم إنّنا نعوذ بك من الإثم وما حاك في الصدور، أو أن نجرّ به على مسلم أو مسلمة، إنك سميع مجيب.

اللهم صلّ على محمد...



التواضع إلى أين؟

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ءَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَوَحَدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ءَوَالِآرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد:

فيا أيها الناس، في خضمِّ هذه العصور المتأخِّرة برزت وبصورة جليَّة آليات مستجدة، وإحداثيات خدمت معظم بقاع الأرض في تغطية حاجياتها وتحسينياتها، حتى أصبحت طوفاناً مادياً جارفاً، منحدرأً من فوَّهة بركان، فجَّرتة الحضارة الماديَّة الجافَّة، والتي اجتالت على حسابها كثيراً من المعايير الفاضلة؛ كما أن حماة التنافس على اكتساب مستجدَّات هذه الحياة، لا ينبغي أن

تكون حاجزاً مانعاً عن بقاء المبادئ الإنسانية الشريفة والتي رعاها الإسلام حقَّ رعايتها، بل وطالبَ بها ودعا إليها في كل حين وأن، مهما اتَّسع الناس في ماديتهم أو ضاقوا.

ما أشدَّه مَضْضاً ما تعانیه الأُمَّة المسلمة اليوم، إن كثيراً من موروثاتها الروحية لِيَذْهَبُ فُرْطاً، وإن الغفلة قد بلغت من الناس مبلغ مَنْ يظنُّ أنه مسرمدٌ في هذه الحياة، وكأنَّ رَحَى الأيام لن تدور عليه يوماً ما، مما أبرز الصِّدْرَ الوَحْر، واللسانَ المَدْق، والذي على إثره تندرِس جملة من معاني الأخلاق الشريفة، كما يدرس وَشِي الثوب، حتى لا يُدْرَى ما زهدٌ ولا رحمةٌ ولا صلة، ولا تواضع ولا لين.

لقد أصبحت مفاهيم بعض السُّدج من الناس تجاه التعامل مع الآخرين ومعاشرتهم: إن لم تكن ذنباً أكلتك الذئاب، وإن لم تجهل يُجهلُ عليك، وإن لم تتغدَّ بزيد تعشى بك.

تُمتَّ زعموا: أن الفلسفة الأخلاقية العظمى عندهم، هي في انطلاق النظرة للآخرين من زاوية: كم تملك؟! وما مركزك؟! ويرون أن في ذلك غنية وضمناً للسلام والرخاء، وعوضاً عن التربية والتهذيب الروحي، وأن ما عداها، فهي سجايا وخصال أكلت عليها السنون وشربت، هكذا يزعمُ جُفأة الأخلاق الحميدة، الذين أترت فيهم المعاني النفسية، التي تعلقو بعرض من الدنيا،

وتهبط بعرض، وأن أي خلل في الحياة الاعتيادية، فإن المال يرمّمها، والحسب والجاه يَرَأب الصَّدْع فيها.

أما إنه لو أدرك المسلم أن أوّل حقّ عليه للمسلمين: هو أن يحمل في نفسه معنى الناس لا معنى ذاته؛ لَعَلِمَ أن مَنْ فاقَ الناس بنفسه الكبيرة دون تميّز، كانت عظمتة حقيقة في أن يفوق نفسه الكبيرة، متخطياً ما فيها من طمع وجشع وكبرياء، وبمثل هذا يصبح الناس أحراراً متى حكمتهم معاني الدّعة والتواضع والتوادّ والتعاطف، تحت ظل الإسلام الوارف، وأمّا المركز والمال والجاه، فإنما هي عوارضُ سرعان ما تزولُ بعدما كانت رسماً ظاهراً لا يَمَسُّ بواطن القلوب، ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾ [الرعد: ١٧].

كتب وهب بن منبه إلى مكحول: «أما بعد، فإنّك قد أصبت بظاهرك عند الناس شرفاً ومنزلة، فاطلب بباطن عملك عند الله منزلةً وزُلفى، واعلم أن إحدى المنزلتين تنازع الأخرى».

بمثل هذا كله عباد الله، يتصل ما بين العظيم والسُّوقة، وما بين الغني والفقير، اتصال التواضع في كل شيء بعيداً عن معاني الدينار والدرهم وحماهما، حتى يكونوا كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

أيها المسلمون، التواضع بين المسلمين خصلةٌ مرجوة، هي أسُّ

في خلق المجتمعات، ومقبض رَحَى حُسْن الاتصال بينهم، لها موادُّ من الحكمة، وأصدادٌ من خِلافها، بتمامها وصفائها يَميز الله الخبيث من الطيب، والأبيض من الأسود المرباد المجخي كما الكوز.

إنه لا بد أن يكون للتواضع بين ظهرانينا محل طري لين، لم تستحكه الشهوات ولا المصانعات، محل يهش أمامه ويهش، محل يوحى إلى المجتمع: أنهم ليسوا غرباء ولو تفرقت نواحيهم؛ وإلا كان تواضعاً مفقوداً في تيه العقل المادي، الذي اكتسى فاقده ثياب كَبِيرٍ مدمرة لا يهش له الناظر، بل تغض منه العيون، وتنبو عنه الأفتدة الحية، وَيُنْفَضُ الناس من حوله؛ وحينئذ يكشف مضمار المجتمع عن الستار المسدل، في صراع الأخلاق المحموم بين طغيان الأنفة، وطوفان الإعواز إلى التواضع.

إنه لا ينبغي لأحد من المسلمين، أن يمتنع عن التواضع أو يجبن عن تحقيقه؛ إذ به تكتسب السلامة، وتورث الألفة، ويرفع الحقد، ويشعر الجميع بحقوقهم تجاه غيرهم، والعكس بالعكس، ألا فإنَّ تواضع الشريف إنما هو زيادةٌ في شرفه، كما أن تكبُّر الوضيع إنما هو زيادة في ضعته؛ كالعائل المستكبر الذي لا يكلمه الله يوم القيامة ولا ينظر إليه ولا يزكيه وله عذاب أليم، فيا سبحان الله، كيف لا يتواضع مَنْ خُلِقَ من نطفةٍ مذرة، وآخره يعود جيفة

قدرة، وهو بينهما يحمل العذرة، أجلكم الله؟! إنه لو لم يكن في التواضع خصلة تُحَمَّد، إلا أن المرء كلما كثر تواضعه، ازداد بذلك رفعة؛ لكان الواجب على كل واحد منا ألا يتزَيَّأ بغيره؛ ولا جرم عباد الله فإن رسول الله ﷺ يقول: «ما من امرئ إلا وفي رأسه حَكَمَةٌ - يعني كاللجام - والحَكَمَةُ بيد مَلِكٍ: إن تواضع قيل للملك: ارفع الحَكَمَةَ، وإن أراد أن يرفع، قيل للملك: ضَعِ الحَكَمَةَ» [رواه الطبراني والبخاري بسند حسن]، وعند مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما تواضع أحد لله إلا رَفَعَهُ اللهُ».

فَاقِدِ التَّوَاضِعِ عِبَادَ اللهِ: إنما هو امرؤ، استعبده الكِبْرُ الغائل، والعجب الغالب؛ فهو عنيد صلت، به يخبو قسه، ويكبو فرسه، فاقدُ التواضع، عقله محصود؛ لأنه بعجبه وأنفته يرفع الخسيس ويخفض النفيس؛ كالبحر الخضم تسفُلُ فيه الجواهر والدر، ويطفو فوقه الخشاش والحشاش، أو هو كالميزان يرفع إلى الكفة ما يميل إلى الخفة.

فاقد التواضع عباد الله، عديم الإحساس، بعيد المشاعر، شقي لا يتعظ بغيره، غير مستحضر أن موطنه قد وطئه قبله آلاف الأقدام، وأن مَنْ بعده في الانتظار، ألا وإنه ما رُئِيَ أحد ترك التواضع وترفَعَ على مَنْ هو دونه، إلا ابتلاه الله بالذلة لِمَنْ فوقه،

وَمَنْ اسْتَطَالَ عَلَى الْإِخْوَانِ، فَلَا يَثْقَنَ مِنْهُمْ بِالصَّفَاءِ.
مَنْ تَكَبَّرَ فَلَمْ يَتَوَاضِعْ، فَقَدْ رَمَى بِثِقَلِهِ فِي ثَلَاثِ خِصَالٍ
مَذْمُومَةٍ:

أولها: أنه لا يتكبر على أحد حتى يعجب بنفسه، ويرى لها
الفضل على غيرها.

وثانيها: ازدراؤه بالناس من حوله؛ لأن مَنْ لم يستحقر
الناس، لم يتكبر عليهم، وكفى بالمستحقر لمن أكرمه الله بالإيمان
طغياناً. وأتى للمستكبر أن يستعبد الناس وقد ولدتهم أمهاتهم
أحراراً.

وثالث الخصال: منازعة الله جلّ وعلا في صفاته؛ إذ الكبرياء
والعظمة له وحده، يقول سبحانه في الحديث القدسي: «الكبرياءُ
ردائي، والعظمةُ إزاري، مَنْ نازعني واحداً منهما ألقيته في جهنم».
[رواه مسلم].

ألا فليت شعري: ما الذي يحمل الكثيرين على أن يركنوا إلى
العجب والأنفة، وينأوا بأنفسهم عن التواضع وخفض الجناح،
أفيكون السبب في ذلك فطرةً يفطر عليها المتكبر فيدعي جليليتها
وصعوبة الخلاص منها؟! كلا والله، فالنبي ﷺ يقول: «إن الله
أوحى إليّ أن تواضعوا؛ حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي
أحد على أحد» [رواه مسلم].

أم أن ذلك نقيصةٌ يجدها المرء في نفسه، ثُمَّتْ يسد ثلمتها بعجب وفخر يحتال بهما على نفسه؟! ربما يكون مثل هذا، ولكن لمن جهل حقيقة الشرف والرفعة، وأنها في التواضع لا في الفرار منه بحجة سد النقيصة أو قضاء الوطر؛ يقول الصديق رضي الله عنه: «وجدنا الكرم في التقوى، والغنى في اليقين، والشرف في التواضع».

ثم إن لم يكن الأمر لا هذا ولا ذاك، فما الذي يحمل المرء على ذلك، هل هو الحسد، والتشفي، وحب الذات؟! أم هو سؤرة كسورة الخمرة، تأخذ بشاربها كل مأخذ حتى ينتشي، فإذا انتشى عاود حتى يصير مدمناً فيستوي عنده حال الخمار والإفاقة؟! وأياً كان ذلك، فإن النأي عن التواضع سمةٌ مردولة، وخصلة مستهجنة، ووسم تعلق به نار الحدادين؛ لأن عين المعجب بنفسه تنظر عن زاوية داكنة، فهي تعمى عن الفضائل، حتى يكون أسرع ما يتسرب الإيمان من امرئ هذه حاله، كما يتسرب السائل من الإناء المثلوم.

ويا لله العجب، كيف لا ينظر أمثال هؤلاء إلى سير الأسلاف من قبلهم، وعلى رأسهم إمامنا وقودتنا، سيد ولد آدم، ذو النسب الرفيع، والجاه الواسع، فهذا هو قد نام على الحصير، وابتسم في وجه من أوجعه، ووقف إلى جانب امرأة في الطريق تشكو إليه، وشرب مع أصحابه في إناء واحد، وكان آخرهم شرباً، كما أكل مع أهل الصفة، ثم دخل مكة في الفتح متواضعاً، ومشى في الأسواق

والناس من حوله يأكل مما يأكلون منه، ويشرب مما يشربون، بأبي هو وأمي، صلوات الله وسلامه عليه!!

وهذا خليفته الصديق رضي الله عنه، كان يحلب لأهل الحي أغنامهم، فلما بويع بالخلافة، قالت جاريةٌ منهم: الآن لا يحلب لنا منائح دارنا، فسمعها فقال: بلى لأحلبنّها لكم، وإنّي لأرجو ألاّ يغيّرني ما دخلتُ فيه. ثُمّتَ الفاروقُ، وما أدراكم ما الفاروق؟! خطب بعد خلافته فقال: اعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدّي على المسلمين، فأما أهل السلامة والدين والقصد، فأنا ألين لهم من بعضهم البعض، وإنّي بعد شدّتي تلك أضع خدي على الأرض لأهل العفاف وأهل الكفاف!! فلا إله إلا الله، أحقيقة ما نسمع أم هو نسج من الخيال؟! أهو فتونٌ يتردّد أم هي حقيقة اكتنفتها قلوبٌ من يعرفون ما الدنيا وما الله؟! عند الترمذي والحاكم؛ أن جبير بن مطعم قال: تكونون في التيه وقد ركبت الحمار، وليست الشملة، وقد حلبت الشاه. وقد قال رسول الله ﷺ: «مَنْ فعل هذا، فليس فيه من الكبر شيء»؛ ألا فليتنبه لذلك المغرورون المعجبون بأنفسهم وجاههم، في حين أنهم بادو الكبرياء، كالحو الوجوه، ومَنْ هذه حاله فلا يغتر بكونه يملك ألفاً؛ فإن عليه من الحقوق والتبعات ما قد يزيد على الألفين.

ألا وإن حسن الصورة وجمال المظهر لا يُقدّم في ذلك ولا يُؤخّر؛ فإن جمال الوجه في قبح نفس كقنديل على جدار مجوسي، وهل ينفع الفتیان حُسْنُ وجوههم إذا كانت الأخلاقُ غَيْرَ حَسَانٍ، ومن قايِس بين الجمال والفعال، تبيّن له أن المَلاحةَ بالقبّاحة لا تفي بالمقصود، فله: ماذا يعني لباس المظهر إذا كان المخبّر عارياً بادية للناس سوءته؛ ﴿يَبْنِيْءَ آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِبَاسًا يُورِي سَوْءَ بَدَنِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسَ الثَّقَوِيْ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].

إن من سرّ بأنفته، فليعلم أن الجمل أشدّ كبراً منه، بل وأشدّ منه ذلكم الطاووس الذي يمشي مشي المرح المختال، يتصفّح ذنبه وجناحيه، فيقهقه ضاحكاً لجمال سرباله وأصابعه وشاحه، فأى فخر وأي سرور فيما تكون فيه صورة البهائم متقدّمة عليه؟!

فينبغي للعاقل إذا رأى من هو أكبر منه سنّاً، تواضع له وقال: سبقني إلى الإسلام، وإذا رأى من هو أصغر منه سنّاً، تواضع له وقال: سبقته بالذنوب، وإذا رأى من هو مثله، عدّه أخاً قريباً، فلا يحقرنّ أحداً من المسلمين، فكم من عوّدٍ منبوذ، ربما انتفع به فحك الرجل به جسده!! وقد قال ابن عيينة: لو قيل: أخرجوا خيار هذه القرية، لأخرجوا من لا نعرف.

﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]،

﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥].

الخطبة الثانية

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه،
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تعظيماً لشانه، وأشهد أن
محمداً عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه
وإخوانه.

أما بعد:

فيا أيها الناس، لازلنا نؤكد بأن التواضع شأنه عظيم، وأمره
جسيم، قد تكلم فيه أهل العلم والحكمة، وأجلبوا عليه بخيلهم
ورجلهم مبينين ما له وما عليه بالأدلة الشرعية، فجعلوا منه
التواضع المحمود، والتواضع المذموم.

فكان من التواضع المحمود: أن يترك المرء التناول على
عباد الله، والترفع عليهم، والإزراء بهم حتى مع وقوع الخطأ عليه؛
فقد قال النبي ﷺ: «ما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً» [رواه مسلم].

ومن ذلك أيضاً: التواضع للدين، والاستسلام لشرع الله،
بحيث لا يعارضه المرء بمعقول ولا رأي ولا هوى، ولا يتهم للدين
دليلاً صحيحاً، وأن يتقاد لما جاء به خاتم الرسل ﷺ، وأن تعبد
الله وفق ما أمرك به، وألا يكون الباعث على ذلك داعي العادة،

وَأَلَّا تَرَى لِنَفْسِكَ عَلَى اللَّهِ حَقًّا لِأَجْلِ عَمَلِ عَمَلْتَهُ، وَإِنَّمَا تَعْلَمُ أَنَّكَ تَرْجُو رَحْمَتَهُ وَتَخْشَى عَذَابَهُ، وَأَنَّكَ لَنْ تَدْخُلَ الْجَنَّةَ بِعَمَلِكَ، وَإِنَّمَا بِرَحْمَتِهِ لَكَ.

كَمَا أَنَّ مِنَ التَّوَاضِعِ الْمَحْمُودِ أَيْضًا: أَنْ تَتْرَكَ الشَّهَوَاتِ الْمُبَاحَةَ، وَالْمَلذَّاتِ الْكِمَالِيَّةَ؛ احْتِسَابًا لَهُ وَتَوَاضِعًا، بَعْدَ التَّمَكُّنِ مِنْهَا وَالِاقْتِدَارِ عَلَيْهَا، دُونَ أَنْ تُوصَفَ بِبِخْلِ أَوْ طَمَعٍ أَوْ شُحِّ؛ فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ تَرَكَ اللَّبَاسَ تَوَاضِعًا لِلَّهِ، وَهُوَ يَقْدِرُ عَلَيْهِ، دَعَاهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ حَتَّى يَخَيَّرَهُ مِنْ أَيِّ حُلَلِ الْإِيمَانِ شَاءَ يَلْبَسُهَا» [رواه أحمد والترمذي].

وَمِمَّا يَزِيدُ الْأَمْرَ وَضُوحًا: أَنْ فَاقَدَ الشَّيْءَ لَا يُعْطِيهِ، وَأَنَّ الْمَتَوَاضِعَ حَقِيقَةً هُوَ الْمُقْتَدِرُ عَلَى الشَّيْءِ، لَا الْعَاجِزُ عَنْ تَحْصِيلِهِ؛ فَلَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا عَائِشَةُ، لَوْ شِئْتُ لَسَارْتُ مَعِيَ جِبَالَ الذَّهَبِ، جَاءَنِي مَلَكٌ إِنَّ حُجْرَتَهُ لَتَسَاوِي الْكَعْبَةَ - أَي: مَوْضِعَ شَدِّ الْإِزَارِ - فَقَالَ: إِنَّ رَبَّكَ يَقْرَأُ عَلَيْكَ السَّلَامَ وَيَقُولُ: إِنَّ شِئْتَ نَبِيًّا عَبْدًا، وَإِنْ شِئْتَ نَبِيًّا مَلِكًا، فَانظُرْتُ إِلَى جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ فَأَشَارَ إِلَيَّ أَنْ صَعَّ نَفْسِكَ، فَقُلْتُ: نَبِيًّا عَبْدًا» [رواه أبو يعلى والطبراني بسند حسن].

أَمَّا التَّوَاضِعُ الْمَذْمُومُ يَا رِعَاكُمُ اللَّهُ: فَهُوَ التَّوَاضِعُ أَمَامَ نَصْرَةِ دِينِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَالَّذِي يَسْبَبُ التَّخَاذُلَ، وَهَجَرَ النَّصِيحَةَ وَالْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَالْخُنُوعَ أَمَامَ الْبَاطِلِ، وَالْبُعْدَ عَنِ

نصرة الظالم والمظلوم، حتى يكون من هذه حاله، كالكوز مجخياً؛ لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً.

كما أن من التواضع المذموم: تواضع المرء لصاحب الدنيا والجاه والنسب؛ رغبةً في شيء مما عنده حتى يصبح عالة أمام المغريات فيفتن بها.

وحاصل الأمر عباد الله: أن التواضع من أعظم ما يتخلق به المرء؛ فهو جامع الأخلاق وأشها، بل ما من خلُق في الإسلام، إلا وللتواضع فيه نصيب، فبه يزول الكبر، وينشرح الصدر، ويعم الإيثار، وتزول القسوة والأنانية، والتشفي وحب الذات، وهلم جرًا. اللهم، إنا نعوذ بك من الغل والحسد، ونعوذ بك أن نجرَّ بهما على مسلم سوءاً يا ذا الجلال والإكرام.

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد...



حياة الدنيا بحذافيرها

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد:

فأوصيكم - أيها الناس - ونفسي بتقوى الله سبحانه؛ فإنها دليل الحيران، وريي الظمان، وأنيس الولهان، بها يسمو المرء ويرتفع، وتُصقل النفس وتنتفع، هي الحق وماذا بعد الحق إلا الضلال.

أيها الناس، إن إعطاء المرء المسلم نفسه شيئاً من فرص المناصحة، وأوقات المراجعة، وسَطَ دواوين من السنة المطهرة،

ومن ثمَّ حملُ نفسه على أن يقف وقوفاً دقيقاً عند حديث رسول الله ﷺ المنبعث من مشكاة النبوة؛ ليعرف أسراره، ويستضيء بأنواره، حتى تنشرح النفس وتصفو، فتؤمن بالنبي المصطفى، والرسول المجتبي، صلوات الله وسلامه عليه، وتتبع النور الذي أنزل معه.

إنه - ولا شك - سيقراً أو يسمع كلاماً صريحاً لا فلسفة فيه ولا تعقيد، كلاماً يقرّر أن حقيقة الإنسان المسلم، ومكانته العالية، وحياته المستقرّة الخالصة من المكدرات المزمّنة، والشوائب العالقة، لن تكون فيما ينال من لذة عارضة، أو صبوة سانحة، أو انفلاتٍ من مسلماتٍ يظنّها الأغرار نوعاً من القيود والتججير، كلا! فالأمر ليس كذلك عباد الله، بل إن المطلع في سنة المصطفى ﷺ لن يجد إلا ما يسرّه، ويرسم له طريق الحياة المختصر الذي يسرع بوصوله إلى الغاية العظمى، ورؤية الرب تبارك وتعالى.

يقول المصطفى ﷺ في الحديث الصحيح: «مَنْ أَصْبَحَ آمِناً فِي سِرْبِهِ، مَعَانِيٍّ فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمَهُ، فَكَأَنَّمَا حَبِزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحِذَائِهَا» [رواه الترمذي وابن ماجه والبخاري في الأدب المفرد].

الله أكبر، إنها كلماتٌ يسيرات، لكنها حوت معنى الحياة الحقّة، والاستقرار الدائم، بل إنها كلماتٌ ترسم للمرء صورة الحياة بقضها وقضيضها، وحلوها ومرّها، وسهلها وصعبها، على أنها لا تتجاوز هذه المعايير الثلاثة، والتي لا يمكن لأيّ كائنٍ

بشري عاقل أن يتصوّر الحياة الدنيوية الهائلة بدون توافرها؛ إنه أمن المرء في سرّبه أي: في بيته ومجتمعه، ومعافاته في بدنه، وتوفّر قوت يومه .

إنها عباراتٌ سهلة على كل لسان، غير أن وصف النبي ﷺ لها بكونها تعادل حيازة الدنيا بحذافيرها يجعل كل واحد ممّا يتأمّل ويدقّق النظر في أبعاد هذه المعاني، وتنزيلها على واقع حياتنا جميعاً، ومدى تأثيرها فينا وجوداً وعدمًا، إيجاباً وسلباً.

أمنُ المرء في سرّبه، عباد الله: مطلبُ الفرد والمجتمعات على حدّ سواء، وهو الهدف المرتقب لكل المجتمعات بلا استثناء على اختلاف مشاربها، ثم إن إطراء الحياة الآمنة هو ديدنُ كافة المنابر؛ للصلة الوثيقة بينه وبين إمكانية استقرار المجتمعات، وإلا فما قيمة لقمة يأكلها المرء وهو خائف، أو شربة يشربها الظمان وهو متوجّس قلق، أو نعسة نوم يتخلّلها يقظات وسان هلع، أو علم وتعليم وسط أجواء محفوفة بالمخاطر؟!

إن كل مجتمع يفقد الجانب الأمني في ثناياه إنما هو في الحقيقة فاقدٌ لمعنى الحياة لا محالة، حتى يكون تكأةً لنهب الناهيين، وتفريط المقصّرين، فيذهب أقساماً بين أشتات المطامع والأهواء.

ومن أجل الأمن - عباد الله - جاءت الشريعة الغراء،

بالعقوبات الصارمة، والحدود الرادعة تجاه كل مُخِلٍّ بالأمن كائناً مَنْ كان، بل وقطعت أبواب التهاون في تطبيقها، أيّاً كان هذا التهاون، سواء كان في تنشيط الوسطاء في إلغائها، أو في الاستحياء من الوقوع في وصمة نقد المجتمعات التي تدّعي الحضارة، ومعرفة وصفهم للغير بالتخلف.

وحين يدبُّ في الأمة داءُ التسلُّل الأمني، فإن المتسببين في ذلك يهيلون التراب على تراث المسلمين، ويقطعون شرايين الحياة الآمنة على الأجيال الحاضرة، والآمال المرتقبة.

ثم إنه يجب علينا ألا نقصر جانب المفهوم الأمني على الفرد وحده، ولا على معنى واحد من معانيه فحسب، كأن يُقصرَ على ناحية حماية المجتمع من الجرائم لا غير، أو أن يُقصرَ مفهوم حمايته على جانب الشرط والدوريات الأمنية دون سواها، بل إن شمولية مفهوم الأمن تنطلق بادي الرأي في عقيدة المجتمع، وارتباطه الوثيق بربّه، والبُعد عن الشرك وسبله، والذي هو الظلم بعينه؛ كما قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

ناهيكم - عباد الله - عن المجالات الأمنية المتكاثرة في المجتمعات؛ كالأمن الغذائي، والأمن الصحي والوقائي، والأمن الاقتصادي، والأمن الفكري، والأمن الإعلامي، والأمن الأدبي؛

فعلى الأمة برمتها ألا تقع في مزلق الانحدار والتغريب تجاه أي معنى من المعاني الأمنية الآنفة، وألا تقترب خيانات أمنية في أي لون من ألوانه؛ فالأمن على مثل هذا لا يقلُّ أهميةً عن أمن الأرواح والأموال؛ فكما أن للبيوت لصوصاً ومختلسين وللأموال كذلك، فإن للعقول لصوصاً ومختلسين، وللأفئدة لصوصاً ومختلسين، بل إن لصوصَ العقول والقلوب أشدَّ خطراً وأدهى وأمرّ.

إن إصباح المرء المسلم آمناً في سربه، لهو من أوائل بشائر يومه وغده، وما صحَّةُ البدن وقوتُ اليوم إلا مرحلةٌ تالية لأمنه في نفسه ومجتمعه؛ إذ كيف يصحُّ بدن الخائف؟! وكيف يكتسب من لا يأمن على نفسه وبيته؟!

ولأجل هذا - عباد الله - كان لزاماً علينا أن نقدّر حقيقة الأمن، وأن نستحضرها نصب أعيننا بين الحين والآخر، حتى لا نكون مع كثرة الإمساس لها فاقدي الإحساس بها، ولا سيما حينما نشخص بأبصارنا يمنةً ويسرة لنرى بعض الأقطار الملتهبة بالصراع، والتي يطحن بعضها بعضاً من داخلها، أو بما هو أدهى وأمرّ، من خلال سطوة البغاة عليها، واجتياح العدوان المسلح، استباحةً لأرضها، وقطعاً لحرماتها.

ألا من مُشَاطِرٍ لنا أحزانٌ ما يجري في مسرى رسول الله ﷺ، وثالث المسجدين؟! يُصاب المسلمون فيه بالذعر عند كل زفرة

نفسٍ من أنفاسهم، يستيقظون عند كل رمية برصاص، أو حركة مجنزرات ظالمة؟! إنهم يرجون الأمن والأمان، يناشدون العدالة والإنصاف، ينادون المتخصصين فيما زعموه مكافحة الإرهاب، لقد ناشدوا وناشدوا وناشدوا، حتى لربما انطلقت صيحات الغير تصفهم بالغباء حينما يناشدون بمددعهم لا بمدفعهم، أو يطالبون بالعدل من حيث لا يوجد إلا الجور، أو بالسلم من حيث لا توجد إلا الحرب.

أين المتحدثون عن الإرهاب، وخطورة الإرهاب، واجتثاث الإرهاب؟! أين المتعاطفون مع الأبرياء؟! أين ما يسمّى بالحقوق الإنسانية؟! أين وأين وأين؟! ألا يكون قتل المسلمين إرهاباً؟! ألا يكون ترويعهم إرهاباً؟! ألا يكون اجتياح أرضهم إرهاباً؟! ألا ليت شِعري مَنْ يدري لعلّ دلالة اللفظ في حق ثالث المسجدين لا تسمّى عند البعض إلا ترّحاباً، وأما فيما عداها فإنها لا تسمّى عندهم إلا إرهاباً: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران: ١١٩].

ولقد صدق رسول الله ﷺ حيث يقول: «ولينزَعَنَّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفَنَّ في قلوبكم الوهن» قالوا: وما الوهن؟ قال: «حبُّ الدنيا، وكراهية الموت» [رواه الإمام أحمد وأبو داود].

ألا إن الله غالبٌ على أمره عباد الله، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١]، ﴿لَا يَغْرَتُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي آلِ بَيْتِكَ﴾ [١٦٧] مَتَّعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَهَادُ ﴿١٦٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ [آل عمران: ١٩٦ - ١٩٨].

أيها المسلمون، لقد أتبع النبي ﷺ أمن المرء في سره بكونه معافى في جسده، وجعل المعافاة في الجسد ثلث حياة الدنيا بحذافيرها، وهذا أمر واضح جلي؛ لأن الصحة تاج فوق رؤوس الأصحاء لا يراه ويحسُّ به إلا المرضى من الناس.

الصحة والعافية - عباد الله - محلٌّ لأن يُغْبَنَ فيها المرء على حد قول النبي ﷺ: «نعمتان مغبونٌ فيهما كثير من الناس: الصحة، والفراغ» [رواه البخاري وغيره].

السلامة لا يعدلها شيء، والصحة التامة والسلامة من العِلل والأسقام في البدن ظاهراً وباطناً هو من مكامن الحياة الهائنة المستقرّة؛ إذ فيها عون على الطاعة، والقيام بالتكاليف الشرعية على أحسن وجه كان، ناهيك عن أثر الصحة والبسطة في الجسم في نواحي الحياة المختلفة: و«المؤمنُ القويُّ خيرٌ من المؤمن الضعيف، وفي كلِّ خيرٍ» [أخرجه مسلم].

والبسطة في العلم والجسم مما تُنالُ بها معالي الأمور؛ كما

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، وقال سبحانه عن موسى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

الأمراض والأسقام - عباد الله - أدواءٌ منتشرة انتشار النار في يابس الحطب، ومن هنا تكمن الغبطة للأصحاء، غير أن هذه الأسقام هي - وإن كانت ذات مرارة وثقل واشتداد وعرك - إلا أن الله جل شأنه جعل لها حكماً وفوائد كثيرة، عَلِمَهَا مَنْ عَلِمَهَا، وجهلها من جهلها، ولقد حدّث ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ عن نفسه أنه أحصى ما للأمراض من فوائد وحِكَم فزادت على مائة فائدة. [شفاء العليل]. وقد قال رجل لرسول الله ﷺ: رأيت هذه الأمراض التي تصيبنا ما لنا بها؟ قال: «كفّارات»، قال أبي بن كعب: وإن قلت؟! قال: «وإن شوكةً فما فوقها» [رواه أحمد]. وعند البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: «ما من مسلم يصيبه أذى من مرض فما سواه، إلا حطَّ الله به سيئاته كما تحطُّ الشجرة ورقها» [البخاري ومسلم].

غير أنه لا يُظنُّ مما سبق - عباد الله - أن المرض مطلب منشود، أو بلاء يتطلَّع إليه العبد المسلم، كلا بل هو محنةٌ يكون الصبر مطلباً عند وقوعها، والمرء المؤمن لا يتمنى البلاء؛ إذ رسول الله ﷺ يقول: «سَلُوا اللَّهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ؛ فَإِنَّ أَحَدًا لَمْ يُعْطَ بَعْدَ الْيَقِينِ خَيْرًا مِنَ الْعَافِيَةِ» [رواه النسائي وابن ماجه]، وقال مطرف

رَضِيَ اللهُ عَنْهُ : «لأن أعافى فأشكر أحبُّ إليَّ من أن أُبتلى فأصبر».

وعلى كلا الأمرين - عباد الله - فإن الصحة بلا إيمان هواء بلا ماء، والمرض بلا صبر ورضا بلاء يتلوه بلاء، وجماع الأمرين دين وإيمان بالله، يقول ابن مسعود رضي الله عنه: «إنكم تَرَوْنَ الكافرَ من أصحَّ الناسِ جسماً وأمراضهم قلباً، وتلقون المؤمن من أصحَّ الناسِ قلباً وأمراضهم جسماً، وإيم الله، لو مرضت قلوبكم وصحت أجسامكم، لكنتم أهون على الله من الجعلان».

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [العنكبوت: ٥٧].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعي وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، قد قلت ما قلت، إن صواباً فمن الله، وإن خطأً فمن نفسي والشيطان، وأستغفر الله إنه كان غفّاراً.

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحب ربنا ويرضى،
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده
ورسوله، وصفيةً وخليته، وخيرته من خلقه، صلى الله وسلّم وبارك
عليه، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فيا أيها الناس، المال في الإسلام وسيلة لا غاية، وطلبه من
طريق حله وطيبه أمرٌ مشروع لكل مكتسب، والنبى ﷺ حينما قال:
«مَنْ أَصْبَحَ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مَعْفَى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوَّةٌ يَوْمَهُ»، أراد
بقوت اليوم، الحال الوسط بين الضدين، لا حال الأثرياء المترفين.
الذين ضعف عند الخلق والدين، ولا حال المفلسين القعدة
الذين استمروا الكسل والبطالة والتشرّد.

إن الذين يكسلون ولا يربحون، ثم يتسولون أو يحتالون باسم
التكسب أو العيش، ليسوا على سواء الطريق، والذين يحبون المال
حباً جمًّا حتى يُعميهم عن دينهم وأخلاقهم، وخلواتهم القلبية،
وجلواتهم الروحية، ليسوا على سواء الطريق أيضاً؛ فكلّا طرفي
قصد الأمور ذميم.

فمن الأول يقول النبي ﷺ: «تعوذوا بالله من الفقر والقلة والذلة»، ويقول: «اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر» [رواهما الإمام أحمد].

وعن الآخر يقول الله تبارك وتعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ۚ ﴿٦﴾﴾ [العلق: ٦، ٧].

وخير الأمور - عباد الله - هو الوسط؛ فإنَّ الفقر كاد يكون كفراً، بل هو مظنةُ الاتكال على الغير، وربطِ الأمور مع الناس بما يملكون من مال، لا ما يملكون من خلق، فتختلُّ عند الفقير المعايير، كما أن الغنى مظنة الطغيان، والوقوع في طُرُق الكسب المحرمة بحثاً عن المال بنهم، أو هو مظنة الفرار من الحقوق؛ كالصدقة والزكاة وأوجه البر؛ ولهذا فإنَّ مَنْ مَلَكَ قوت يومه، فإنه يكون في منأى عن بطر الغنى، وهوان الفقر، فيكون كافاً عافاً، ومن هنا جاءت حيازة الدنيا.

فالفقر دُونَ برمته، والغنى يُحَمَّدُ في الخير، ويُذِمُّ في الشر، ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنِّيْرُهُ لِلْيُسْرَى ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنِّيْرُهُ لِلْعُسْرَى ۝﴾ [الليل: ٥ - ١٠]، وصدق رسول الله ﷺ إذ يقول: «نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلرَّجُلِ الصَّالِحِ» [رواه أحمد].

نقول مثل هذا - عباد الله - لأجل أن نُذَكِّرَ كُلَّ ذِي نِعْمَةٍ

بنعمته، ولنعلم جميعاً أن هناك من المسلمين - ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ
عَزِينَ﴾ [المعارج: ٣٧] - مَنْ يَصْبِحُ لَا يَدْرِي مَصِيرَ أَمْنِهِ، وَلَا قُوَّةَ
يَوْمِهِ، وَلَا مَعَاوَةَ بَدَنِهِ، يَعِيشُونَ أَجْوَاءَ مَقْلَقَةٍ، وَحَيَاةً مَتَقَلِّبَةً، مَا
عِنْدَ يَوْمِ أَحَدِهِمْ ثِقَةٌ لَهُ بِغَدِهِ، شَيْوْخٌ وَنِسَاءٌ وَأَطْفَالٌ، بَرَاءٌ مَا جَنَوْا
ذَنْبًا، أَطْهَارٌ مَا كَسَبَتْ أَيْدِيهِمْ إِثْمًا، سَقُوفُهُمْ وَكَافَةٌ، وَجَدْرَانُهُمْ
نَازَةٌ، وَجِبَالُهُمْ تَسِيلُ حَمَمًا وَشِظَايَا، حَتَّى غَدَّتْ أَوْدِيَّتُهُمْ بِمَآسِيهِمْ
أَبَاطِحُ، فَلَمْ تَعُدِ الدُّورُ دَوْرًا، وَلَا الْمَنَازِلُ مَنَازِلًا، ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

هذا وصلُّوا - رحمكم الله - على خير البرية، وأزكى البشرية
محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، صاحب الحوض والشفاعة، فقد
أمركم الله بذلك فقال في كتابه الكريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ
عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

اللهم صلِّ وسلِّم على محمد وعلى آل محمد، كما صليت
على إبراهيم...

اللهو والترفيه في ميزان الشرع

الخطبة الأولى:

الحمد لله المتوحد في الجلال بكمال الجمال تعظيماً وتكبيراً،
المتفرد بتصريف الأحوال على التفصيل والإجمال تقديراً وتدبيراً،
المتعالي بعظمته ومجده الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين
نذيراً، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن
محمداً عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه
الطيبين الطاهرين، وعن التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.
أما بعد:

فاتقوا الله معاشر المسلمين، واعلموا أن أصدق الحديث كلام
الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل
محدثه بدعة، وكل بدعة ضلالة، وعليكم بجماعة المسلمين؛ فإن
يد الله على الجماعة، ومن شذَّ عنهم فمات فميتته جاهلية.

أيها المسلمون، إن حياة الناس بعامه، مليئة بالشواغل
والصوارف المتضخمة، والتي تفتقر من حيث الممارسات المتنوعة
إلى شيء من الفرز والترتيب لقائمة الأولويات منها، مع عدم إغفال
النظر حول تقديم ما هو أنفع على ما هو نافع فحسب، ثم إن

الضغوط النفسية والاجتماعية الكبيرة الناتجة عن هذا التضخم، ربّما ولّدت شيئاً من النهم واللهث غير المعتاد تجاه البحث عما يبرد غلة هذه الرواسب المتراكمة ويطفئ أوارها.

إن الحضارة العالمية اليوم قد عُنيَتْ بإشعال السلاح، ورفع الصناعة، وعولمة بقاع الأرض؛ تلكم الحضارة التي حوّلت الإنسان إلى شبه آلة، تعمل معظم النهار إن هي عملت؛ ليكون ساهراً أو سادراً أو خامداً ليله، هذه هي الثمرة الحاصلة ليس إلا.

إن تلكم الحضارة برمتها، لم تكن كفيلاً في إيجاد الإنسان العاقل، الإنسان المدرك، الإنسان الموقن بقيمة وجوده في هذه الحياة، وحكمة خلق الله له، بل إن ما فيها من آليات متطورة وتقنيات، كان سبباً بصورة ما في إيجاد شيء من الفراغ في الحياة العامة، مما ولّد المناداة في عالم الغرب بما يسمّى علم اجتماع الفراغ، وإن لم يكن هذا الفراغ فراغ وقت على أقل تقدير، فهو فراغ نفس، وفراغ قلب، وفراغ روح وأهداف جادة، ومقاصد خالية من الشوائب؛ ﴿يَتَأَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدٌ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ١ - ٤].

إن الحضارة العالمية، حينما توفر للإنسان - بالتقدم العلمي،

والجهد الصناعي - قوة الإنسان ونشاطه، وتوفر له مزيداً من الوقت، ثم يكون في نفسه وقلبه وروحه ذلك الفراغ؛ فهنا تحدث المشكلة، ويكمن الداء، الذي يجعل أوقات الفراغ في المجتمعات تعيش اتساعاً خطيراً، حتى صارت عبئاً ثقيلاً على حركتها وأمنها الفكري والذاتي، ومنفذاً لإهدار كثير من المجهودات والطاقات المثمرة.

إنَّ غياب الضبط والتحليل والترشيد، للظاهرة الحضارية الجديدة، المنشئة أوقات الفراغ، ليمثل دليلاً بارزاً على وجود شرخ في المشروع الحضاري والعولمة الحرة، غير بعيد أن تُؤتَى الأمة المسلمة من قبَله.

وإن عدم وعينا التام بخطورة هذا المسلك تجاه أوقات الفراغ، وعدم وعينا التام بالمادة المناسبة لشغل تلك الأوقات، في استغلال العمليات التنموية والفكرية والاقتصادية البَنَاء، لجديرٌ بأن يقلب صورته إلى معول هدم، يضاف إلى غيره من المعاول من حيث نشعر أو لا نشعر، والتي ما فتئ الأجنبي عنا ييئها ليل نهار، لنسف حضارة المسلمين على كافة الأصعدة بلا استثناء، كيف لا ورسولُ الله ﷺ يقول: «نعمتان مغبونٌ فيهما كثير من الناس: الصحة، والفراغ» [رواه البخاري].

إن الإسلام دين صالح للواقع والحياة، يعامل الناس على أنهم بشر، لهم أشواقهم القلبية، وحظوظهم النفسية؛ فهو لم يفترض فيهم أن يكون كل كلامهم ذكراً، وكل شرودهم فكراً، وكل تأملاتهم عبرة، وكل فراغهم عبادة، كلا ليس الأمر كذلك، وإنما وسع الإسلام التعامل مع كل ما تطلبه الفطرة البشرية السليمة، من فَرَحٍ وَتَرَحٍّ، وضحك وبكاء، ولهو ومرح، في حدود ما شرعه الله، محكوماً بأداب الإسلام وحدوده.

عباد الله، إن قضية إشغال الفراغ باللهو واللعب والفرح، لهي قضية لها صبغة واقعية على مضمار الحياة اليومية، لا يمكن تجاهلها لدى كثير من المجتمعات، بل قد يشتد الأمر ويزداد عند وجود موجبات الفراغ، كالعُطْلِ ونحوها، حتى أصبحت عند البعض منهم مصنفة ضمن البرامج المنظمة في الحياة اليومية العامة، وهي غالباً ما تكون غوغائية تلقائية ارتجالية، ينقصها الهدف السليم، لا تحكمها ضوابط زمانية ولا مكانية، فضلاً عن الضوابط الشرعية، وما يحسن من اللهو وما يقبح.

الترويح والترفيه عباد الله: هو إدخال السرور على النفس، والتنفيس عنها، وتجديد نشاطها، وزمُّها عن السامة والملل، وواقعُ النبي ﷺ إبان حياته يؤكدُ أحقية هذا الجانب في حياة الإنسان،

يقول سماك بن حرب: «قلتُ لجابر بن سمرة: أكنتَ تجالسُ رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، كان طويلَ الصمت، وكان أصحابه يتناشدون الشعر عنده، ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية ويضحكون، فيبتسم معهم إذا ضحكوا» [رواه مسلم].

وأخرج البخاري في «الأدب المفرد» عن أبي سلمة بن عبدالرحمن قال: «لم يكن أصحاب رسول الله ﷺ منحرفين ولا متماوتين، وكانوا يتناشدون الأشعار في مجالسهم، ويذكرون أمر جاهليتهم، فإذا أريد أحدهم على شيء من دينه، دارت حماليقُ عينيه». وذكر ابن عبدالبر رحمه الله عن أبي الدرداء أنه قال: إني لأستجم نفسي بالشيء من اللهو غير المحرّم، فيكون أقوى لها على الحق. وذكر ابن أبي نجيح عن أبيه قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إني ليعجبني أن يكون الرجل في أهله مثل الصبي، فإذا بغي منه حاجة وجد رجلاً». وذكر ابن عبد البر عن علي رضي الله عنه أنه قال: «أجمّوا هذه القلوب، والتمسوا لها طرائف الحكمة؛ فإنها تملُّ كما تمل الأبدان».

يقول ابن الجوزي رحمه الله: «ولقد رأيت الإنسان قد حُمِّلَ من التكاليف أموراً صعبة، ومن أثقل ما حمل مداراة نفسه، وتكليفها الصبر عما تحب وعلى ما تكره؛ فرأيت الصواب قطع طريق الصبر

بالتسلية والتلطف للنفس». وبمثل هذا تحدث أبو الوفاء بن عقيل فقال: «العاقل إذا خلا بزوجاته وإمائه لَاعَبَ ومازح وهازل، يعطي للزوجة والنفس حقهما، وإن خلا بأطفاله، خَرَجَ في صورة طفل وهجر الجد في بعض الوقت».

هذه بعض الشذرات عباد الله حول مفهوم اللهو والتسلية والترويح، نوَّكِدُ من خلاله أن الإسلام قد عُنِيَ بهذا الجانب حق العناية، غير أننا نود أن نبين هنا وجه الهوة بين مفهوم الإسلام للترويح والتسلية، وبين اللهو والمرح في عصرنا الحاضر، والذي هو بطبيعته يحتاج إلى دراسات موسَّعة تقتنص الهدف للوصول إلى طريقة مثلى؛ للإفادة منها في الإطار المشروع، فينبغي دراسة الأنشطة الترويحية الإيجابية منها والسلبية، والربط بينها وبين الخلفية الشرعية والاجتماعية للطبقة الممارسة لهذا النشاط، ومدى الإفادة من الترويح والإبداع في الوصول إلى ما يقرب المصالح ولا يبعدها، وما يرضي الله ولا يسخطه، وتحليل الفعل وردود الفعل، بين معطيات المتطلبات الشرعية والاجتماعية، وبين متطلبات الرغبات الشخصية المشوَّهة، وأثر تلك المشاركات في إذكاء الطاقات والكفاءات الإنتاجية، العائدة للأُسَرِ والمجتمعات بالنفع في الدارين.

إن علينا جميعاً كمسلمين: أن نُشَدَّ عزائمنا لصيانتها ما أمكن، مِنْ أي ضياع في مرح أو لهو غير سليم، أو مما إثمه أكبر من نفعه، فلا ينبغي للمسلمين أن يطلقوا لأنفسهم العِنَانَ في الترويح، بحيث يزاحم آفاق العمل الجاد، واليقظة المستهدفة، ولا أن يشغل عن الواجبات، أو تضيع بسبب الانغماس فيه الفرائض والحقوق؛ إذ ليست إباحة الترويح وسط ركام الجد إلا ضرباً من ضروب العون، وشحذ الهمة على تحمُّل أعباء الحق، والصبر على تكاليفه، والإحساسِ بأنَّ ما للجد أولى بالتقديم مما للهو والترويح، وبهذا يفهم قول النبي ﷺ لحنظلة بن عامر، وقد شكَا إليه تخلُّل بعض أوقاته بشيء من الملاطفة للصبيان والنساء، فقال له ﷺ: «ولكن ساعة وساعة».

أما أن يصبح الترويح للنفس طابَع الحياة، في الغدو والآصال، والخلوة والجلوة، وهما أساساً من هموم المجتمعات في الحياة، فهو خروج به عن مقصده وطبيعته، واتجاهاً بالحياة إلى العبث، والضياع. والإنسان الجاد عليه أن يجعل من اللهو والترويح له وللمن يعوله وقتاً ما، ويجعل للعمل والجد أوقاتاً لا العكس؛ لاسيما ونحن نعيش في عصر استهوت معظم النفوس فيه كل جديد وطريف، حتى صارت أكثر انجذاباً إلى احتضانِ واعتناقِ

ما هو وافدٌ عليها في ميدان اللهو والمرح، ولا غرو في ذلك عباد الله، فإنَّ الاسترخاء الفكري، وهشاشة الضابط القيمي لدى البعض منا، هما أنسبُ الأوقات لنفاذ الطرائف والبدايع إلى النفوس، وهنا تكمنُ الخطورة، ويستفحل الداء؛ فاللهو المنفتح عباد الله، والذي لا يضبطُ بالقيود الواعية، إنه ولا شك يتهدّد الأصاله الإسلامية، لتصبح سهلاً بين خطرين:

أحدهما: خطرٌ في المفاهيم، إن كان هناك شيء من بعض المسابقات تدعى ثقافية، تقوم في الغالب على جمع للتضاد الفكري، أو تنمية الصراع الثقافي، أو تصديق الثوابت المعلوماتية لدى المسلمين، بقطع النظر عن التفسير المادي للتأريخ والحياة، أو على أقل تقدير الإكثار من طرَح ما علمُهُ لا يحتاج إليه الذكي، ولا يستفيد منه البليد.

والخطر الثاني عباد الله: تلك التي تعدُّ وسائل للترويح والتسلية، عبر القنوات المرئية، التي تنتج مفاهيم مضللة، عبر طرق جاذبة في الثقافات والشهوات، لاسترقاق الفكر من خلال فنون أو أساطير، أو عروض لما يفتن، أو للسحر والشعوذة وما شاكلها.

ونتاج الخطرين ولاشك تمزق خطير، متمثّل في سوء عشرة

زوجية، أو تباين أفراد أسرة إسلامية، ناهيكم عن القتل والخطف والانتحار، والتأمر والمخدرات والمسكرات، وهلمَّ جَرًّا.

وما حال مَنْ يقع في مثل هذا الترويح، إلا كقول مَنْ يقول:
وداوني بالتي كانت هي الداء، أو كما يتداوى شارب الخمر
بالخمر، فلرُبَّ لهو بمرة واحدة، يقضي على برج مشيّد من العلم
والتعليم للنفس، والله كم مِنْ لذة ساعة واحدة، أورثت حزناً
طويلاً! ﴿ إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ﴿٩٥﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ
وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿

[النحل: ٩٥، ٩٦].



الخطبة الثانية

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه.

أما بعد:

فاتقوا الله أيها الناس، واعلموا أن شريعة الإسلام شريعة غراء، جاءت بالتكامل والتوازن والتوسط، ففي حين أن فيها إعطاء النفس حقها من الترويح والتسلية، فإن فيها كذلك ما يدل على أن منه النافع ومنه دون ذلك؛ فقد صحَّ عند النسائي وغيره أن النبي ﷺ قال: «كلُّ لهو باطل، غيرَ تأديبِ الرجلِ فرسه، وملاعبته أهله، ورميه بسهمه...» الحديث. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ معلقاً على هذا الحديث: «والباطل من الأعمال هنا، ما ليس فيه منفعة ولم يكن محرماً، فهذا يرخص فيه للنفوس التي لا تصبر على ما ينفع، وهذا الحق، في القدر الذي يحتاج إليه في الأوقات التي تقتضي ذلك، كالأعياد، والأعراس، وقدوم الغائب، ونحو ذلك» اهـ. ويقول ابن العربي رَحِمَهُ اللهُ عن هذا الحديث: «ليس مراده بقوله

«باطل» أي: أنه حرام، وإنما يريدُ به أنه عار من الثواب، وأنه للدنيا محض لا تعلُّق له بالآخرة، والمباح منه باق» اهـ. هذا في اللهو المباح عباد الله.

وأما اللهو المحرَّم، أو اللهو المباح الذي يفضي إلى محرَّم، فاستمعوا يا رعاكم الله، إلى كلام الإمام البخاري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في «صحيحه» حيث يقول: «باب كلُّ لهوٍ باطلٌ إذا أشغله عن طاعة الله»، ويعلِّق الحافظ ابن حجر على هذا فيقول: «أي: كمن انتهى بشيء من الأشياء مطلقاً، سواء كان مأذوناً في فعله أو منهيّاً عنه، كمن اشتغل بصلاة نافلة، أو بتلاوة، أو ذِكْرٍ، أو تفكُّر في معاني القرآن مثلاً، حتى خرج وقت الصلاة المفروضة عمداً، فإنه يدخل تحت هذا الضابط، وإذا كان هذا في الأشياء المرغَّب فيها المطلوب فعلها، فكيف حال ما دونها؟!» اهـ.

فالحاصل أيها المسلمون: أن الترويح والفرح، ينبغي أن يخضعاً للضوابط الشرعية، وألا يبغى بعضها على حدود الله، والله يقول:

﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ﴾ [البقرة: ٢٢٩].

ألا وإن من أراد أن يفرح فليكن فرح الأقوياء الأتقياء، وهو في نفس الوقت لا يزيغ ولا يبغى، بل يتقي الأهازيج والضجيج التي تقلق الذاكر، وتكسر قلب الشاكر.

ولله ما أحسنَ كلاماً لأبي حامد الغزالي، يصف فيه الباغين في اللهو، العائين منه كما الهيم، دون رسم للحق أو رعاية للحدود، فقال في «إحيائه» عن مرحهم: «إنه من مشوشات القلب إلا في حق الأقوياء، فقد استخفوا عقولهم وأديانهم، من حيث لم يكن قصدهم إلا الرياء، والسمعة، وانتشار الصيت، فلم يكن لهم قصدٌ نافع، ولا تأديب نافذ؛ فلبسوا المرقعات، واتخذوا المتنزّهات؛ فيظنون بأنفسهم خيراً ويحسبون أنهم يحسنون صنعا، ويعتقدون أن كل سوداء تمرّة، فما أغزَرَ حماقةً من لا يميز بين الشحم والورم؛ فإنَّ الله تعالى يبغض الشباب الفارغ، ولم يحملهم على ذلك إلا الشباب والفراغ». اهـ.

﴿ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهِوَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهِ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ [الجمعة: ١١].

اللهم، صلِّ على محمد، وعلى آل محمد...



خطبة الوداع «دروس وعبر»

الخطبة الأولى:

الحمد لله حمد الشاكرين، أحمده سبحانه وأشكره، وأتوب إليه وأستغفره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، خيرة خلقه، وخاتم رسله، دعا إلى الله على بصيرة، فاستجاب لدعوته الراشدون، وتخلّف عنها الأغرار والمخذولون، كان قدوةً صالحهً وأسوةً حسنةً، فأكمل الله به الدين، وأتمّ به النعمة، ورضي لنا الإسلام ديناً، لم يدع شيئاً يُقرب إلى الله إلا دعا إليه، ولا شيئاً يبعد عنه إلا حذر منه، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله الأتقياء البررة الذين استجابوا له، وأحيوا سنته، وقضوا بالحق وبه كانوا يعملون.

أما بعد:

فأوصيكم أيها الناس ونفسي بتقوى الله سبحانه، فما ذلّ من ارتدى بها، ولا خاب من جعلها وقايةً بينه وبين سخط الله، ﴿الْأَنْبِيَاءُ لِلَّهِ خَافُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣].

أيها المسلمون، حجاج بيت الله الحرام، لقد كانت مقاصد الحج في غابر الأزمان من الجاهلية الأولى، عبارة عن تجمعات

مكثفة، يكتنفها لوثة رجس الأصنام، والخمر والميسر والأنصاب والأزلام، يتناشدون هنالك الأشعار، ويفتخرون بالسلب والنهب، ووَادِ البنات إِبَّانَ حياتهنَّ، وهم يعدُّون ذلك كَلَّةً من المكرمات، التي تهون دونها الحُرُمات، مواقفُ جاهلية، وخليطٌ ممزوج من الأضداد والمتناقضات، يظهرونها جلية آنذاك، في مثل سوق عُكَاظَ في شهر ذي القعدة نحواً من نصف الشهر، ثم يأتون بعد ذلك موضعاً دونه يُقال له: سوق مَجِنَّة، فيُقام فيه السوق إلى آخر الشهر، ثم يأتون موضعاً يُقال له: ذو المَجَاز، فيُقام فيه السوق إلى يوم التروية، ثم يصدرون إلى منى، ومن ثمَّ يختم أهل الجاهلية موسم الحج بما ذكره ابن عباس رضي الله عنهما بقوله: كان أهلُ الجاهلية يقفون في الموسم فيقول الرجل منهم: كان أبي يطعم، ويحمل الحملات، ويحمل الدِّيَّات، ليس لهم ذكرٌ غير فعال آبائهم، فأنزل الله قوله: ﴿فَإِذَا قُضِيَتْ مَنَاسِكُكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

حج بيت الله الحرام، حجة الوداع الكبرى للنبي ﷺ هي الحجة

الأولى والأخيرة في الإسلام، حج فيها معه عشرات الألوف، بل قيل: إنهم مائة ألف حاجٍّ، من دون النساء والصبيان. والواقع عباد الله: أن هذا الجمع العظيم مع النبي ﷺ لم يَطْبُ له أن يَنْفَضَّ هكذا سُدىً، دونما كسبٍ للفرصة السانحة له ﷺ في تقرير ما يعد من

القواعد الكبرى في الإسلام، قد لا تكون برمتها جديدة على من كان معه، ولكن للتأكيد والتذكير دوره الذي لا يُهمل، كيف لا وهو قد لا يراهم بعد عامهم هذا مرةً أخرى يجتمع فيها مثلُ هذا الجمع العظيم؛ فكانت منه هذه الكلمات اليسيرات؛ جاء عند أبي داود، وابن ماجه، والبيهقي، وغيرهم؛ أن النبي ﷺ خطب الناس في يوم عرفة فقال: «إن دماءكم وأموالكم حرامٌ عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ألا إن كلَّ شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دمُ ابن ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب - كان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل - ورباً الجاهلية موضوعة، وأولُ رباً أضع ربانا، رباً عباس بن عبدالمطلب؛ فإنه موضوعٌ كلُّه، فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهنَّ بأمانة الله، واستحللتم فروجهنَّ بكلمة الله، وإنَّ لكم عليهنَّ أن لا يوطئنَ فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلنَ ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرِّح، ولهنَّ عليكم رزقهنَّ وكسوتهنَّ بالمعروف، وإنِّي قد تركتُ فيكم ما لن تضلُّوا بعدي إن اعتصمتم به: كتابَ الله، وأنتم مسؤولون عني، فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلغت رسالات ربك، وأديتَ ونصحتَ لأمتك، وقضيتَ الذي عليك، فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء، وينكتها إلى الناس: اللهم اشهد، اللهم اشهد».

عباد الله، هذه الخطبة العظيمة، لا تستغرق دقائق معدودة، ولكنها في الوقت نفسه، أهمُّ من بيان يستغرق بضع ساعات، ولا غرو في ذلك؛ فصاحبها هو من أوتي جوامع الكلم، وأفصح من نطق بالضاد.

في هذه الخطبة عباد الله: يؤكد النبي ﷺ حتمية المخالفة لما كان عليه أهل الجاهلية، وبيان ذلك: أن مسمى الجاهلية يعني بدهاة أن يكون الأمر إسلاماً أو لا إسلام ألبتة؛ يقول الله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، ويقول سبحانه: ﴿وَلَا تَبْرَحْ تَبْرِجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣]، ويقول عز وجل: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ﴾ [الفتح: ٢٦]، قال البخاري في «صحيحه»: باب المعاصي من أمر الجاهلية. وذكر فيه قول النبي ﷺ لأبي ذرٍّ رضي الله عنه لما عير رجلاً بأمه: «إنك امرؤ فيك جاهلية»، قال بعض شُراح الحديث: إن كل معصية تؤخذ من ترك واجب أو فعل محرّم، فهي من أخلاق الجاهلية.

لقد أكّد رسول الله ﷺ مخالفة ما عليه أهل الجاهلية من الكتابيين والأمينين، مما لا غنى للمسلم في أن ينبذها، وينأى بنفسه عن الوقوع في هونها، والاصطلاء بأتونها، كيف لا ورسول الله ﷺ يقول: «ألا إن كل شيء من أمور الجاهلية تحت قدمي موضوع».

وفي خطبة الوداع عباد الله: يؤكّد النبي ﷺ حرمة المسلم

وحرّيته، وأنه لا يحلُّ دمه ولا ماله إلا بسبب يبيح ذلك، وإلا كان من الظلم المحرّم، ولا جرّم أن يكون ذلك؛ لأنه مقرون بحُرمة الأشهر الحُرُم، والمسجد الحرام. لكن بعض الجبارين من كافة الطبقات تحملهم قوتهم على أن يجتاحوا الضعفاء، ويكبتوا حقوقهم المادية والشرعية، مما سبّب اشتعال ثوراتٍ هائلةٍ في بعض المجتمعات؛ للثأر من الظلمة، فسالت الدماء، وهلك الألوّف من الأبرياء.

وإن مما يُؤسِفُ عباد الله: ما أصاب المسلمين في هذا العصر من حُمى التقليد والتبعية العمياء، والتي بسببها شاعت الجرائم، وألغت بعض الدول حدود الله الشرعية، واكتفت بعقوباتٍ تافهة لا تُجدي شيئاً في حماية المجتمع المسلم، فانشغل المظلومون بطلب الثأر لمن ينتمي إليهم أو ينتمون إليه، إلا أن النبي ﷺ قد حَسَمَ هذه الفوضى بشريعته العادلة فقال: «ودماء الجاهلية موضوعة».

وفي خطبة الوداع عباد الله: يُحذّر النبي ﷺ من أكل الربا، وإبطال ربا الجاهلية الذي أساسه إمهالُ المُعسرِ مقابل ثمنٍ زائد، سواء كان يسيراً أو فاحشاً، وبالله كم للربا من ضحايا!! وكم خرب من بيوتات!! وكم جلبّ من مَحَنٍ وبلايا!! ولو لم يكن إلا كونه حرباً لله ورسوله، لكفى؛ كما قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ

اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

أكل الربا عباد الله سَمَةٌ من سمات اليهود، والتي استحَقُّوا عليها اللعنة الخالدة، ﴿فِيظَلِمُونَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [١٦٦] وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدَّ نُهُوا عَنْهُ ﷻ [النساء: ١٦٠، ١٦١]؛ فليتق الله المرابون، وليعلموا خطورة ما هم عليه وسوء عاقبته، ألا فليعلموا أن أبواب الربا مغلقة شرعاً، وأن الذرائع المفضية إليه مسدودة؛ فلا تبيحها الحيل التي لا تخفى على ربِّ البشر، وأياً كانت هذه الحيل، فلا يجوز فعلها، لاسيما في مراتب الناس الاستهلاكية العامة، محلية كانت أو دولية، والتي يُخدَع بها الرِّعَاع، ويُغرَّر بها الذين ينشدون الكسب الحلال، فيوقعونهم في شر مما فروا منه، والنبى ﷺ يقول في الحديث الصحيح: «لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود؛ فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل» [رواه ابن بطة بسند جيد].

وفي خطبة الوداع عباد الله: بين النبي ﷺ قضية كبرى من قضايا المسلمين، لم يفلح في التعامل معها أهل الجاهلية، بل كانوا وإياهم على طرفي نقيض، ألا وهي قضية المرأة، والتي تقاذفتها أهواء أهل الجاهلية يمنة ويسرة، حتى جعلوا مصيرها الوأد وهي حية؛ خشية الفاقة والعار، ولو تسامت عند بعضهم، فإنما هو لأجل الاحتطاب والسقي، وإبراد غلَّة الشهوة، ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ

بِالْأُنثَى ظَلَّ وَجْهَهُ مُسَوِّدًا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَنْوَرِي مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ^٤
 أَيْمِسِكُمْ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّ فِي التَّرَابِ ﴿٥٩﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩].

لقد أكرم الإسلام المرأة، وجعلها شقيقة الرجل، كما جعل القِوامةَ للرجل عليها، وجعل لها نصف إرث أخيها، ونصف شهادة الرجل، ونصف دية الرجل.

وليس ذلك إهانة لها، بل هو حد كمالها؛ فهي حاضنة الأطفال، ومربية الأجيال، سمتها الحشمة والعفاف والقرار في البيوت، نائية بنفسها عن أن تكون علكاً ممضوغاً تحت ناب المغرضين، والذين يتسللون إليها لوأذاً، ليَجْتَثُوا مُسَلِّمَاتِهَا، ويُشَكِّكُوا في مقوماتها الشرعية، ويَزُجُّوا بها خارج سِياج الشرع، ويعدُّوها مهزومة الحق مسروقة الكمال، في ظروف مدلهمة، تسلبها الثقة بنفسها ومقوماتها، حتى تكاد تَبْدُ نفسها وهي حية، وذلك بِذَهَابِ حقيقتها التي أراد لها الشارع الحكيم.

ولهؤلاء وأمثالهم نقول: روى الإمام أحمد والترمذي، عن أم سلمة رضي الله عنها؛ أنها قالت: «يا رسول الله، يغزو الرجال، ولا تغزو النساء، ولنا نصف الميراث؟ فأنزل الله قوله: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢].»

عباد الله، مع هذا التفضيل بين الرجل والمرأة، إلا أن لها

مِثْلَ الَّذِي عَلَيْهَا بِالْمَعْرُوفِ، وَقَدْ قَالَ عَنْهَا النَّبِيُّ ﷺ: «اسْتَوْصُوا
 بِالنِّسَاءِ خَيْرًا»، وَقَالَ: «خِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ»، وَجَعَلَ لِلْأُمِّ الْبُرِّ
 ثَلَاثًا، وَلِلْأَبِ مَرَّةً، وَثَبَتَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا حَقُّ
 زَوْجَةِ أَحَدِنَا عَلَيْهِ؟ قَالَ: «أَنْ تَطْعَمَهَا إِذَا طَعِمْتَ، وَتَكْسُوَهَا إِذَا
 اكْتَسَيْتَ، وَلَا تَضْرِبَ الْوَجْهَ، وَلَا تَقْبِخَ، وَلَا تَهْجُرْ إِلَّا فِي الْبَيْتِ».
 اللَّهُمَّ، أَصْلِحْ لَنَا دِينَنَا الَّذِي هُوَ عِصْمَةٌ أَمْرُنَا، وَأَصْلِحْ لَنَا
 دُنْيَانَا الَّتِي فِيهَا مَعَاشِنَا، وَأَصْلِحْ لَنَا آخِرَتَنَا الَّتِي إِلَيْهَا مَعَادِنَا، وَلَا
 تَجْعَلِ الْحَقَّ مَلْتَبَسًا عَلَيْنَا فَفَضَّلْ، بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ،
 وَنَسْتَغْفِرُكَ اللَّهُمَّ إِنَّكَ كُنْتَ غَفَّارًا.

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله حمداً كثيراً مباركاً فيه كما يُحِبُّ ربُّنا ويرضى،
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده
ورسوله، صلى الله وسلّم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد:

فاتقوا الله معاشر المسلمين، واعلموا أن آخر ما وصّى به رسولنا
ﷺ في حجة الوداع: أن نعتصم بكتاب الله جلّ وعلا، والذي بيّنته
وفسرته سنته ﷺ؛ إذ يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ
الْهَوَىٰ ۗ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم: ٣، ٤]؛ فكتاب الله جلّ وعلا
بمثابة الروح للحياة، والنور للهداية، فمن لم يعتصم به ما هو بحي
وإن تكلم أو عمل، أو غدا أو راح، بل هو ميّت، ومن لم يؤمن به
ضلّ وما اهتدى؛ ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ
أَخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

لقد قصّر جمع من المسلمين مع كتاب الله حتى جعلوا برّهم
به في إتقان مخارج حروفه فحسب، أو ترديده في المآتم وتعليقه
في المجالس وسؤال المال والجاه به.

يقول الفاروق رضي الله عنه: «يا أيها الناس، إنه أتى عليّ

حينٌ وأنا أحسبُ أنه مَنْ قرأ القرآن أنه إنما يريد به الله وما عنده،
ألا وقد قيل لي: إن أقواماً يقرأون القرآن يريدون به ما عند الناس؛
ألا فأريدوا الله بقراءتكم، وأريدوه بأعمالكم».

قال الحسن البصري: «أُنزِلَ القرآنُ لِيُتَدَبَّرَ وَيُعْمَلَ بِهِ؛ فَاتَّخِذُوا
تلاوته عملاً».

فواأسفا عباد الله، كيف يهجرُ بعضنا كتاب الله؟! كيف لا
يعملون به؟! كيف لا يُحَكِّمونه في شؤونهم؟! كيف قصرُوا حياتهم
في تلاوته دون العمل به؛ يقول الله جلَّ وعلا: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ
ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا
الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَنسُوا﴾ [الحديد:
١٦]؛ يقول ابن مسعود رضي الله عنه: «ما كان بين إسلامنا وبين أن
عاتبنا الله بهذه الآية إلا أربع سنين».

اللهم، اجعل القرآن العظيم ربيعَ قلوبنا، ونورَ صدورنا،
وجلاءَ أحزاننا، اللهم، اجعلنا ممن يحلُّ حلاله، ويحرِّم حرامه،
ويعمل بمحكمه، ويؤمن بمتشابهه، ويتلوه حقَّ تلاوته على الوجه
الذي يرضيك عنَّا.

اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد...

لماذا كسرت الأصنام؟

الخطبة الأولى:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَتُوبُ إِلَيْهِ، وَنَعُوذُ
 بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ
 وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ
 وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ
 وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي
 خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَنَجْدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي
 تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
 اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ
 يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد:

فيا أيها الناس، منذ غابر الأزمان وقبل نبوة المصطفى ﷺ،
 كان الناس على هذه البسيطة في جاهلية جهلاء إبان فترة من
 الرسل، قد انقطع الناس فيها عن المدد الروحي والنور الإلهي،
 فلأجل ذلك اعترتهم ظلمات العقائد والقوانين والأنفس، ظلمات
 لا يجد فيها الحاذق بصيص نور يهتدي به إلى هداية، أو يخلص به
 من ضلالة وينجو من غواية، بل هي ظلمات بعضها فوق بعض،

ظلماتٌ أودتْ بذويها إلى أن يتخبَّطوا في مهامه الحياة ودروبها
 خبط العشواء، ظلماتٌ جعلت من عقولٍ مشتمليها ودينهم أن
 يصنعوا معبوداتهم بأيديهم، فنحتوا ما يعبدون واللهُ خلقهم وما
 يعملون، حتى عَمُوا وَصَمُّوا، وَضَلُّوا وَاغْوُوا، ثم انحط غيِّهم
 فعبدوا الأشجار والأحجار، والستائر المنصوبة، والتماثيل التي
 كانوا لها عاكفين، لقد أغراهم بذلك: غيبةُ إنسانيتهم، وإفلاسُ
 عقولهم بعد طيشها، حتى انتحرت فطرتهم، وبَقُوا هواءً في جثمان
 إنس.

يقول حبر الأمة ابنُ عباسٍ رضي الله عنهما متحدِّثاً عن هذه
 الحقبة من الزمن: «صارت الأوثانُ التي في قوم نوحٍ في العربِ
 بعد؛ أما وَدٌّ: فكانت لكلِّ بدومة الجندل، وأما سُوَاعٌ: فكانت
 لهُذَيْلٍ، وأما يَغُوثٌ: فكانت لمراد، ثم لبني غُطَيْفٍ في الجرف عند
 سبأ، وأما يعوقٌ: فكانت لهَمْدان، وأما نسرٌ: فكانت لحمير لآلِ
 ذي الكُلاع، أسماءُ رجالٍ صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى
 الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم أنصاباً، وسَمُّوها
 بأسمائهم، ففعلوا فلم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك، وتنسَّخ العلم،
 عُبدت» [رواه البخاري].

عباد الله، لقد كانت العربُ قبل هذا الأمرِ على ملةِ إبراهيمَ
 الخليلٍ عليه السلام، فما فتىء الزمان يدور، حتى قلَّ العلمُ، وهلك

العلماء؛ لتحلَّ الأصنامُ بين العرب من جديد، وتبدلَ ملَّةُ إبراهيمَ ﷺ وتتنسَّخ، وقد كان الذي تولى كبرَ هذه الشُّقوةِ والمعرَّةِ أبوخزاعةَ عمرو بنُ لُحَيٍّ؛ فهو الذي سيَّب السوائب، وعبدَ الأصنام، وقد رآه النبي ﷺ في صلاة الكسوف يجر أمعاه في النار؛ لأنه أوَّل من سيَّب السوائب، وبدلَ دينَ إبراهيمَ ﷺ [رواه مسلم في صحيحه].

يقول ابنُ كثيرٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: كان عمرو بن لُحَيٍّ أوَّل مَنْ غَيَّرَ دِينَ إبراهيمَ الخليل، فأدخل الأصنام إلى الحجاز، ودعا الرِّعَاع من الناس إلى عبادتها والتقرُّب بها.

أيها المسلمون، إنما خلق الله الثقلين الجنَّ والإنسَ ليعبدَ وحده في الأرض، وأرسلَ رسوله ﷺ بالشريعة الغراء، محاطةً بقواعد قرَّرها الشارع الحكيم، متمثلةً في ضروراتِ خمس، أجمعت الأنبياءُ والرسلُ قاطبةً على حفظها ورعايتها، وهي: الدين، والنفس، والمال، والعرض، والعقل، فكلُّ مفسدةٍ يخشى أن تؤتى من قبل ضرورةٍ من هذه الضرورات، فإنه يجب درؤها، ودفعها أولى من رفعها، وكان على المتسبِّب فيها من الإثم والوزر، الذي يتجدَّد عليه بانتشارها، ويتوالى تراكمه في صحيفة أعماله - إبان حياته وبعد مماته - كمثل ما على عمرو بن لُحَيٍّ حين أدخل الأصنام، وبدلَ دينَ إبراهيم، وعلى رأس هذه الضروراتِ الخمس:

ضرورة الدين والعقيدة وتوحيد الله .

لقد أضاء النبي ﷺ الطريق، وأوضح السبيل، وطهر الله به جزيرة العرب من رجس الوثنية، وهيمنة الأصنام والتماثيل، وكان كبير هذه الأصنام هُبَل، وهو بأعلى مكة، وحوله ثلاثمائة وستون صنماً كلها من الحجارة، فطعن فيها المصطفى ﷺ بيده الشريفة حين دخوله الكعبة يوم الفتح، وهو يردد قول الله: ﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١]، يقول القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية: فيها دليل على كسر نُصُبِ المشركين وجميع الأوثان إذا غلب عليها. قال ابن المنذر: وفي معنى الأصنام: الصور المتخذة من الدرّ والخشب وشبهها.

عباد الله، لقد حطم رسول الله ﷺ الأصنام حول الكعبة، وبعض الصحابة كان يردد: يا عَزَّ! كُفْرَانِكِ لا غفرانكِ، إنِّي رأيتُ اللهَ قد أهانكِ، ويبعث رسول الله ﷺ سراياه إلى الأصنام التي كانت حول مكة، ونادى مناديه بمكة قائلاً: «مَنْ كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر، فلا يدعُ في بيته صنماً إلا كسره»؛ فبيعت رسول الله ﷺ خالد بن الوليد إلى العزى ليهدمها، فهدمها، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فقال: «هل رأيت شيئاً؟ قال: لا. قال: فإنك لم تهدمها فارجع إليها، فاهدمها، فرجع خالد وهو متغيظ فجرد سيفه، فخرجت إليه امرأة عجوز، عُريانة سوداء، ناشرة الرأس، فجعل

السادنُ يصيحُ بها، فضربها خالدٌ فجزلها باثنتين، ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: «نعم، تلك العزى! وقد أيست أن تعبد في بلادكم أبداً» [رواه النسائي].

ثم بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إلى سواع، وهو صنم لهذيل، فاعترضه السادن فقال: لا تستطيع أن تقتله؛ فإنك ستمنع منه، فدنا منه رضي الله عنه فكسره، فأسلم السادن بعد ذلك.

ثم بعث رسول الله ﷺ سعيد بن زيد إلى مناة، فهدمها، ولما أراد النبي ﷺ المسير إلى الطائف، بعث الطفيل بن عمرو إلى ذي الكفنين ليهدمه فهدمه، وجعل يحشي النار في وجهه ويحرقه ويقول: يا ذا الكفنين لست من عبادك، ميلادنا أقدم من ميلادك، إنني حششت النار في فؤادك، ثم بعث النبي ﷺ علي بن أبي طالب إلى الفلُس؛ وهو صنم لطِيّ، فهدمه هو ومن معه؛ كما بعث جرير ابن عبدالله البجلي في سرية لكسر صنم ذي الخلصة باليمن.

بهذا كله عباد الله: يجدد رسول الله ﷺ ملة إبراهيم وإخوانه الأنبياء؛ فلقد قال إبراهيم سائلاً ربه: ﴿وَأَجْتَنِبِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]، وقال لقومه: ﴿وَتَأْتِيهِمْ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدْرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧]، ويجدد النبي ﷺ فعل موسى مع السامري حين قال: ﴿وَأَنْظِرْ إِلَيَّ إِلَهَكَ الَّذِي ظَلَمْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحْرَقَنَّهِ﴾

ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّ فِي الْيَوْمِ نَسْفًا ﴿ [طه: ٩٧].

أيها المسلمون، لقد كانت مواقف النبي ﷺ من الأصنام والتمائيل بارزةً للعيان قولاً وفعلاً، بل إنه لم يقتصر كسره للأصنام على ما عُبدَ من دون الله، أو على ما عُظِّمَ كتعظيم الله فحسب، بل تعدّاه إلى التماثيل التي تتخذُ في البيوت ونحوها على هيئة الاقتناء والزينة ولو لم تُعبَد؛ فقد جاء عند أبي داود والترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أتاني جبريلُ فقال: إنني كنت أتيتك البارحة، فلم يمنعني أن أكونَ دَخَلْتُ عليك البيتَ الذي كنتَ فيه إلا أنه على بابِ البيتِ تماثيلٌ...» الحديث. وفيه: أن جبريلَ أمره برؤوس التماثيل أن تُقطعَ؛ فتُصيرَ كهيةِ الشجرة. ومعلوم عباد الله أنه لا يقول عاقلُ ألبتة: إن النبي ﷺ قد اتخذ هذه التماثيل للعبادة أو للتعظيم، وإنما كان لمجرد الاقتناء، كيف لا وقد سأله عمرو بنُ عَبَسَةَ فقال: بأي شيء أرسلك الله، قال: «أرسلني بصلةِ الأرحام، وكسرِ الأوثان، وأن يوحدَ اللهُ ولا يُشركَ به شيء» [رواه مسلم].

عباد الله، بمثل فعل النبي ﷺ هذا، وفعل الأنبياء من قبله، سار الصحابةُ الكرامُ وأئمةُ الدين؛ فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي الهَيَّاجِ الأَسَدِيِّ، قال: قال لي علي رضي الله عنه: «ألا أبعثُكَ على ما بعثني عليه رسولُ الله ﷺ؟ أن لا تدعُ تماثلاً إلا طمسته،

ولا قبراً مشرفاً إلا سويته»؛ والمقرّر عند أهل العلم: أن كلمة «تمثال» هنا نكرة في سياق النهي، فتعم كلّ تمثال، أيّاً كان نوعه، سواء كان للعبادة أو لمجرد الاتخاذ والاقتناء، وذكر ابن إسحاق في «مغازيه» عن أبي العالية قال: «لما فتحنا تُسْتَرَ، وجدنا في بيت مال الهرمزان سريراً عليه رجل ميّت، عند رأسه مصحف له، فأخذناه فحملناه إلى عمر رضي الله عنه... إلى أن قال: فماذا صنعتم بالرجل؟ قال: حفرنا له بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة، فلما كان الليل دفنناه وسوينا القبور كلّها لنعْمِيَهُ على الناس لا ينبشونه. فقال رجل: وما يرجون منه؟ قال: كان يُقال: إن السماء إذا حُبِسَتْ عنهم، برزوا سريره فيمُطَرُون.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ معلقاً على هذه القصة: «ففي هذه القصة ما فعله المهاجرون والأنصار رضي الله عنهم من تعمية قبره لئلا يفتن به، ولم يُبرزوه للدعاء عنده أو التبرُّك به، ولو ظفر به المتأخرون، لجالدوا عليه بالسيوف». اهـ.

وقد ذكر الحافظ ابن حجر: أن ابن سعدٍ روى بسند صحيح؛ أن عمر رضي الله عنه: بلغه أن قوماً يأتون شجرة بيعة الرضوان فيصلُّون عندها، فتوعَّدهم، ثم أمر بقطعها فقطعت.

هكذا كانت مواقف النبي ﷺ وأصحابه في حماية جناب التوحيد، وسدّ الذرائع المفضية إلى الشرك بالله؛ لأن البدع إذا

حدثت، وصارت صارفةً عن مقتضى القرآن والسنة، ولُفِّقَتْ لها شُبُهَةٌ، ورَتَّبَ لها كلامٌ مؤلف، صارت تلك البدعُ بحكم الواقع من المسلّمات التي لا يمكن درؤها إلا بعد لأيٍ وشدائد.

ويدل لذلك: ما نقله الحافظُ ابنُ حجر، عن الفاكهي وغيره، عن عبيد الله قال: «أول ما حدثت الأصنام على عهد نوح، وكانت الأبناءُ تَبَرُّ الآباء، فمات رجل منهم، فَجَزَعٌ ولُدُهُ عليه، فجعل لا يصبر عنه، فاتخذ مثلاً على صورته، فكلما اشتاق له، نظر إليه، ثم مات ففَعِلَ به كما فَعَلَ، ثم تتابعوا على ذلك، فمات الآباءُ فقال الأبناء: ما اتخذ هذه آباؤنا إلا أنها كانت آلَهُتَهُمْ فعبدوها».

وبعد أيها المسلمون: لقائل أن يقول مستفهماً: هل يعقل في أزمنة الحضارة الماديّة، والثقافات العولمية، ودائرة الأقاليم السيّالة، أن تتسرّب لوثةُ عبادةِ الأصنام وتَعْظِيمِهَا إلى مجتمعاتها المعاصرة؟

فالجواب: نعم، ولا عجب من ذلك إذا تنسّخ العلمُ، وضعف الدين في النفوس، ولا أدلّ على ذلك من وجود معبودات في هذا العصر، منها ما هو على هيئة نُصُب، ومنها ما هو على هيئة حيوانٍ أعجم، وليس ذلك بخافٍ على كل ذي لبٍّ ونظر.

ثم إن الجاهليين الأولين كانت لهم عقول مثل عقولنا، وأجساد كأجسادنا، ولهم لسان فصيح، وسياداتٌ بين العرب،

وجميعهم يقرّون أن الخالق والرازق والمدبّر هو الله وحده، ومع ذلك عبدوا الأصنام وعظّموها، وإلا لما دعا إبراهيم ربّه أن يجنّبه وبنيه عبادة الأصنام.

ولتأكيد هذا القولِ عبادة الله: فإنّ النبي ﷺ قد خاف من ديبِ هذه اللوثةِ على أمته، بل لقد بيّن أن هذه اللوثة ستطّيح ببعض الناس في آخر الزمان؛ فقد روى أبو داود في «سننه» أن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تعبّد قبائل من أمتي الأوثان»؛ بل جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تضطرب ألياث نساء دؤس على ذي الخلصة». وذو الخلصة: صنم معروف كسره جرير بن عبد الله البجلي لما بعثه النبي ﷺ إلى اليمن؛ فدلّ على أن الأمر سيعود بمثل ما كان.

إذا هي الأيام يداولها الله بين الناس؛ فمن موحدٍ فيها، ومن مشرك، ومن خائف من مكر الله فيها، ومن آمن، ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

وإلا فما سرُّ تحذير النبي ﷺ وكان قد أسّس دولة التوحيد، ومحا الشرك في عصره حيث يقول، وهو يعالجُ سكرات الموت في مرضه الذي لم يقم منه: «لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، ثم خشي من تسلل هذا الداء بعد وفاته، فقال: «اللهم، لا تجعل قبري وثناً يُعبّد» [رواه مالك].

روى ابن جرير، وابن أبي حاتم؛ أن إبراهيم التيمي قال في قوله تعالى عن إبراهيم: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥]. قال: «ومن يأمنُ البلاءَ بعد إبراهيم عليه السلام».

فلا يأمنُ الوقوعَ في لوثةِ الأصنامِ والتماثيلِ إلا مَنْ هو جاهلٌ بها، وبما يُخلّصُ منها من العلم بالله، وبما بعث به رسوله ﷺ من التوحيدِ الخالصِ، والنهي عن الشرك به.

يقول ابن القيم رحمه الله عن دور الشيطان في هذا الميدان: «وما زال الشيطان يوحى إلى عبّاد القبور بالبناء والعكوف عليها، ثم ينقلهم منه إلى دعائهم وعبادتهم واتخاذهم أوثاناً؛ تعلق عليهم القناديلُ والستور، فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم إلى أن مَنْ نهى عن ذلك، فقد تنقّص أهلَ هذه الرتبِ العاليةِ، وحطهم عن منزلتهم، وزعم أنه لا حرمةَ لهم ولا قدر، فيغضب المشركون، وتشمئزُّ قلوبهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر: ٤٥]، وسرى ذلك في نفوس كثيرٍ من الجهال والطغام وكثيرٍ ممن ينتسب إلى العلم والدين، حتى عادوا أهلَ التوحيد، ورمّوهم بالعظائم، ونفروا الناس عنهم». اهـ.

ثم لتعلموا عباد الله: أن الصنم قد يطلق على الوثن كما قرّر ذلك بعض أهل العلم، والوثن: هو كلُّ ما عبد من دون الله على أي

وجه كان، وقد نهى الله عن ذلك بقوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠]، وقد قصرت مفاهيم بعض الناس معنى عبادة غير الله على مجرد عبادة الحجر أو الصنم، وهذا من فرط جهلهم بحقيقة هذه المسألة؛ إذ ليس بلازم أن يكون الشرك بالله محصوراً عند الصنم والركوع والسجود له، بل لقد أوضح النبي ﷺ هذا الفهم القاصر، وذلك حين سمع عدي بن حاتم رسول الله ﷺ وهو يقرأ قول الله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، فقال عدي: إنا لسنا نعبدهم، قال: «أليس يحرمون ما أحلَّ الله فتحرمونه، ويحلُّون ما حرم الله فتحلُّونه؟» قال: بلى، قال: «فتلك عبادتهم» [رواه أحمد والترمذي وحسنه].

اللهم إنا نعوذ بك من الفتن ما ظهر منها وما بطن، ونعوذ بك اللهم أن نشرك بك شيئاً ونحن نعلم، ونستغفرك مما لا نعلم؛ إنك كنت غفاراً.

الخطبة الثانية

الحمد لله حمد من يشكرُ النعمة ويخشى النقمة، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبدهُ ورسولهُ معلّمنا الكتابَ والحكمة، صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه الأتقياء البررة.

أما بعد:

فاتقوا الله معاشر المسلمين، واعلموا أن الله الدينَ الخالص، وأن على كل مسلم ومسلمة تطهيرَ النفوس من الدواخل والشواغل، الصارفة عن أن يعبد الله وحده في الأرض، كما أن علينا جميعاً الامتثالَ لأمر الله ورسوله ﷺ، وتقديمَهُما على أنفسنا أو الوالدينِ والأقربين، وليحرصِ الناسُ جميعاً على تطهيرِ مجتمعاتهم من رجس الأصنام والتماثيلِ قدر الطاقة، لاسيما مما يتكاثرُ انتشاره في البيوت من باب الزينة والاقتناء؛ لأن الملائكة لا تدخل البيت الذي فيه تماثالٌ أو صورة، وقد كان الفاروق رضي الله عنه إذا دعي إلى وليمة، سأل الداعي إن كان في بيته شيء من التماثيلِ أو الصور، فإن قال: لا، أجاز دعوته.

ألا فإن درء المفسد وسدّ الذرائع المفضية إلى الشرك لأمرٌ

جلل ينبغي ألا يَغْفَلَ عنه المسلمون بعامة؛ فما قَطَعُ عمرَ لشجرة الرضوان إلا من هذا الباب.

ثم إنَّ اتخاذ التماثيل والأصنام، أو تعظيمها وتعظيم الأضرحة، لهو أمرٌ حادثٌ في الإسلام، وإحداثه لم يكن متصلاً بأهل العلم والتقوى، وإنما هو من إدخلات ذوي الأهواء والجهالات، وذوي السلطة والغلبة؛ إذ في القرآن الكريم إشارةٌ إلى مثل هذا بقول الله تعالى عن أصحاب الكهف: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١].

لقد استفحل هذا الأمر في هذه العصور المتأخرة، حتى وقع بعضهم في شرك الربوبية والألوهية، فاعتقدوا في بعض أهل القبور، وصوَّروا لهم الأصنام والتماثيل، وزعموا أنهم يعلمون الغيب، ويجيبون من توجَّه إليهم، وأنَّ لهم القدرة على تفرج الكربات، وقضاء الحاجات، حتى صارت كالأنصاب التي يتخذها مشركو العرب، فأقسموا بها واستشفوا واستنصروا ولاذوا، بل سبَّوا لها السوائب، وساقوا إليها القرابين، بل ولربَّما جعلوها نُصباً تذكاريّاً لعظيم، وجعلوا لها من الحرمة والعظمة وعقوبة الاعتداء عليها ما لا يجعل لمن اعتدى على دين الله أو سبَّ الله ورسوله.

وقد تحدَّث ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ معلقاً على غزوة النبي ﷺ للطائف، وهدمه لصنم اللات، فقال: «وفي ذلك من الفوائد: أنه

لا يجوزُ إبقاءُ مواضعِ الشركِ والطواغيتِ بعدَ القدرةِ على هدمها وإبطالها يوماً واحداً، وكذا حكمُ الأضرحةِ والقبورِ التي اتخذتْ أوثاناً تعبدُ من دونِ الله، وكثيرٌ منها بمنزلةِ اللاتِ والعزى ومناة، أو أعظمُ شركاً عندها وبها، فاتبعَ هؤلاءِ سننَ مَنْ كان قبلهم وسلكوا سبيلهم حذو القُدَّةِ بالقُدَّةِ، وغلبَ الشركُ على أكثرِ النفوسِ؛ لظهورِ الجهلِ وخفاءِ العلمِ، وصارَ المعروفُ منكراً والمنكرُ معروفاً، والسنةُ بدعةً، والبدعةُ سنةً، واشتدتْ غربَةُ الإسلامِ، ولكنْ لا تزالُ طائفةٌ من العصاةِ المحمديةِ بالحقِّ قائمين، إلى أن يرثَ اللهُ الأرضَ ومن عليها، وهو خيرُ الوارثين». انتهى كلامه ﷺ.

ألا فاتقوا الله معاشرَ المسلمين، واحرصوا على إقامة توحيدِ الله في الأرض؛ تفلحوا، ويتحققَ لكم النصرُ والتمكين، ويجعلَ لكم العاقبةَ في الأولى والآخرة.

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد...



الأمة الإسلامية بين الواقع والمأمول

الخطبة الأولى:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَتُوبُ إِلَيْهِ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ، وَلَا تَمُونُوا إِلَّا بِاللَّهِ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٦﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد:

فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، مَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ رَشِدَ، وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ غَوَى، وَلَا يَضُرُّ إِلَّا نَفْسَهُ، وَلَا يَضُرُّ اللَّهَ شَيْئًا.

أيها الناس، المجتمع المسلم المتميز هو ذلكم المجتمع الذي تتحقق له ضروريَّاته وحاجياته وتحسينياته، تحت ظلَّ الشريعة الغراء التي لا ينغصها أزمة ولا يعكرها ضيق، ذلكم المجتمع الذي يجد

حرمته مصونةً مكرّمة، لا تُهدَرُ تحت ناب سَبْعِ عَادٍ، ولا تُستباح بمخالب باغٍ متوحّش، أو سطوة معتدٍ صائل.

هكذا يعيش المجتمع المسلم إذا كان في صورته المثلى، واستقراره المعهود.

غيرَ أنّ أدنى اختلالٍ لما مضى، وإحلالِ الضدِّ محلّه - من الاستخفاء وراء أسوارٍ من الصِّلَفِ والغرسة والمقت لوحى الله وحملته، وجعل سبيل الله موحشةً لطول ما ترادف على سالكيها من أدواء وأعباء - هو البابُ الحقيقيُّ للمثول أمام حاضرٍ كريبه، ومستقبلٍ مقلق؛ وحينئذٍ تزلّ القدم بعد ثبوتها، ويسبق الخصمُ إلى إذلالها وكبت حريتها.

إن الشعورَ العامَّ بين الناس ليحكي بأن العالم اليوم قد قطع مراحلَ شاسعةً في طريق التقدم الحضاري، والصعود المادي، فسارعت هممُ الناس تترأ كالبارع الذكي، والنشيط المتوقّد، في اللهث وراء التقدّم الصناعي والحضاري ونحوهما، ولكنّ هذا كلّهُ كان على حساب إيجاد المرء الصالح التقي، والبارّ الوفي، فتقدّمت الصناعة، وتخلّفت الروح، واستطالت المادة، واستكان الالتزام بالدين، حتى نشأ من هذا الضمور في الوعي تفاوتٌ مُقلق، كان سبباً - ولا شك - في اختلال سير القافلة المسلمة واعتلالها، وانعدام اتزانها وإبصارها الواعي بما تُقبل عليه وما تُحجّم عنه، ثم يجتال القنوطُ آمالَ لفيّ من العلماء والمفكرين بعد أن اعتلى جؤارهم من القحط الروحي الذي يسود أرجاء المسلمين بصورة لافتة.

إن التدئين الحقيقي: هو الإيمان بالله، والشعورُ بخلافته في الأرض قلباً وقالباً، والتطلعُ إلى السيادة الشرعية التي اقتضتها هذه الخلافة، بيدَ أنَّ ذلك لا يتمُّ إلا بتطويع كلِّ ما جعله الله وسيلةً مشروعاً لتحقيق هذا المفهوم، وسَطُ دُنْيَا ينبغي أن يحكمها المجتمع المؤمنُ باسم الله، وعلى بركة الله وفضله، من خلال الحكم بما أنزل الله شريعةً ومنهاجاً، وإحياءِ شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتذليلِ السُّبُلِ في الدعوة إلى الله عز وجل، والجهادِ في سبيله وابتغاءِ مرضاته. وبمثل هذا يُقضى على الجفوة بين مفهومي الحضارة والإسلام، ويُزأبُ الصدع، وتُسَدُّ الثُّلْمَةُ؛ لتصل سفينة المجتمع المسلم الماخرة إلى شاطئ العزِّ والتمكين.

كما أنه يجبُ أن يكون واضحاً جلياً: تقريرُ أن الفضائل والعبادات التي شرعها الله لنا لا تعوق ازدهار الحياة وتقدّمها الماديّ وسَطَ المجتمعات المسلمة؛ لأن الإنسان عقلٌ وقلب، ومن يظنَّ أنَّ صحوة القلب لا تتمُّ إلا مع خمول الفكر وتهميش الدنيا من كلِّ جوانبها، فهو مخطئٌ خطأً فاحشاً، كما أنَّ مَنْ يظنَّ بأنَّ سيادة العقل وبلوغ الأرب في التقدّم الماديّ لا يتمُّ إلا بتنحية الإيمان بالله وفصله عن واقع الحياة، فهو مخطئٌ أيضاً خطيئةً كبيرة؛ ولذا فإن زكاة الروح قد تتمّ بدون جمال الجسد، وضمان الآخرة والتشمير لها قد يتمّ بدون ضياع الدنيا وخسرانها، ولقد صدق الله: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ

وَلَا تَبِعِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ [القصص: ٧٧].

أيها المسلمون، إنه لا يشكُّ عاقلٌ ألبتة في أن تخلف المسلمين اليومَ عن الإمساك بزمام الأمور في الأرض كما كان أسلافهم، وفي الاتصاف بالتبعية والاستجداء مع ما يصاحب ذلك من قلقٍ متنامٍ، وتوجُّسٍ مكابدٍ، وشعورٍ بأنهم وَسَطَ عنق زجاجةٍ يُصعدون فيها ولا يلوون على شيءٍ، أن ذلك كله بسبب بُعدهم عن دينهم، وتنحية شرع الله عن الواقع، وخَفَرِ اليهود والمواثيق؛ كما قال النبي ﷺ لبعض المهاجرين محذراً: «وما خَفَرُوا العَهْدَ إِلَّا سَلَطَ اللهُ عليهم عدوًّا من غيرهم، فأخذوا بعضَ ما في أيديهم، وما لم يعملْ أئمتُّهم بما أنزلَ اللهُ في كتابه إِلَّا جعلَ اللهُ بأسَهُم بينهم» [رواه البيهقي وابن ماجه].

ثم اعلّموا - يا رعاكم الله - أن ثَمَّةَ سببين اثنين ينخران في جسد الأمة بنهمٍ لتلحق بركاب القعدة العاجزين:

وأوَّلُ هذين السببين: هو اللَّهْث وراء التيارات الغربية القائمة على فلسفة التفوق المادّي، والفكر التحرُّري، الذي لاقى رجوعَ الصدى وسط الغوغاء من أبناء الأمة المسلمة، مُتَرَفِّهٍ ومثَقِّفِهِم، بل وحتى مَنْ كان على فراش الإملاق منهم، إلى أن صاروا أذناً وعيناً، ولساناً وقلماً لنهجهم وفكرهم، سياسةً وحضارةً، وثقافةً وإعلاماً، فأصلحوا بإفساد، وداووا بالطاعون، وتقدّموا بالتأخر، فهَضِمَتْ حقوقُ المسلمين، واغتيلت مروءاتهم بتقليد أعمى، ولهثٍ بليد، فتحقَّق فيهم قولُ الرسول ﷺ: «لتبَّعنَّ سنن من كان قبلكم حدو القُدَّة»

بالقذة حتى لو دخلوا جُحْرَ ضَبٍّ لدخلتموه»، قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟» [رواه البخاري ومسلم].

وأى تبعية أقبح من أن تشبهه بدخول جُحْرِ الضَّبِّ المظلم مع ما فيه من ضيق وقوارص، ألا إن ذلك دليلٌ على التبعية مع عَصَبِ العينين على وجه الانتحار غيلة: ﴿كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا﴾ [التوبة: ٦٩]، يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «ما أشبه الليلة بالبارحة! هؤلاء بنو إسرائيل شُبِّهنا بهم»، ويقول ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: «أنتم أشبه الأممِ بني إسرائيل سَمْتًا وهدياً، تَتَّبِعُونَ عَمَلَهُمْ حَذْوَ الْقُدَّةِ بِالْقُدَّةِ، غَيْرَ أَنِّي لَا أَدْرِي أَتَعْبُدُونَ الْعَجَلَ أَمْ لَا».

ثم إنَّ ثاني السببين - عباد الله -: هو ذلكم الجاثوم الكابت، الذي يعمل على تذويب الهوية الإسلامية للأمة المسلمة وتميئزها، المتمثل في الاستعزاز بالإسلام وبما فرضه الله عليها من الولاء والبراء، والحب في الله والبغض فيه، وجعل المسلمين بعامة خاضعين لمصالح مشتركة أيًا كان نوعها، حتى ولو كانت خارج الإطار المشروع مادامت تصب في مصالح دولية، وقوالب ماديّة للأفراد والجماعات، فيجرُّها هذا الجاثوم طوعاً أو كرهاً إلى فلکها، عبر بنود يصعب التراجع عنها أو الإخلال بها، بناءً على ما تقتضيه مصلحة الفرد أو المجتمع من أعباء الحياة، التي يصبحون من خلالها في غير غنى عن الغرب ومادته

وفلسفته وسيادته .

وفي كلا السببين - عباد الله - تتضاءل إن لم تتلاش صلة المسلم بربه ودينه، وينحصر الأفراد والجماعات داخل بوتقة من ضيق الأفق؛ فلا يرون فيها إلا مصالحهم الخاصة، ويندفع جهدهم كله وراء المنفعة العاجلة، بقطع النظر عما يحكم ذلك من حلال أو حرام، والله جل وعلا يقول: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]، ولقد بايع جرير بن عبد الله البجلي رضي الله تعالى عنه النبي ﷺ على أن ينصح لكل مسلم، ويبرأ من الكافر. [رواه أحمد].

ومن هذا المفهوم - عباد الله - يوقن كل منصف أن أهل الكفر والإلحاد لم ينتصروا بقواهم الخاصة، قدر ما انتصروا بفراغ قلوب المسلمين، من خلال شهواتهم اليقظة، وإخلادهم إلى الأرض، واتباع الهوى، والسُّعَارِ إلى اللذات والرغبات، وافتقار صفوفهم إلى ما يجمعها ولا يفرقها، وإلى ما تعتز به من الدين لا ما تستحي منه أو تخجل بسببه، ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٣، ١٤].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفني وإياكم بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، قد قلت ما قلت، إن صواباً فمن الله، وإن خطأً فمن نفسي والشيطان، وأستغفر الله؛ إنه كان غفاراً.

الخطبة الثانية

الحمد لله وليّ الصالحين، ذي الأسماء الحسنی والصفات العلیّ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله، صلى الله وسلّم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان.

أما بعد:

فيا أيها الناس، إنّ في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ما يكشف أسباب الانكسار، ويبرز دواعي الانشطار، الذي يصيب المسلمين بعامة بين الحين والآخر، ومثل هذا لا يعدُّ بدعاً في أمم الإسلام دون غيرها من الأمم؛ فقد بين الله في محكم التنزيل ما يدلُّ على ناموسه وسنته في الناكسين والظلمة، والمتسللين عن دينهم لواداً في كلِّ زمان ومكان: ﴿كَدَّابِءَ آلِ فِرْعَوْنَ ۗ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٦﴾ ذَلِكَ يَأْتِ اللَّهُ لَمَّ يَكُ مُغْتَرِباً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ۗ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنفال: ٥٢، ٥٣] ، ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

ومع هذا كله: فإنَّ الباري جلَّ شأنه برُّ بعباده، رحيمٌ بهم،

يمنُّ عليهم بفضلِهِ ورحمته، ويُسبغُ عليهم سِتْرَهُ ونعمته، ويصبِّحهم ويُمسِّيهم بالتوفيقِ والبركة في الحكم والرزق، غيرَ أنَّ كثيراً من المجتمعات قد تُحسِنُ الأخذ ولا تحسن الشكر، تفرح بالنعم ولا تَقْدُرُ اللهُ حقَّ قدره، ومثلُ هذا الاستغفال حين يبلغ مداه - إضافةً إلى الإصرار عليه، والإحساس بإمكانية الاستقلال دون تصحيح أو محاسبة نفس - فعندئذٍ تدقُّ قوارعُ الغضب أبوابَ الأمم، فتُظلمُ الوجوه بهزائم الدنيا، وتجرُّعُ الخوف فيها قبل حساب الآخرة ونكالها، والله جل وعلا لا يبدلُ أمنَ الأمم قلقاً، ولا رخاءها شدةً، ولا صحَّتها سقمًا، ولا عزَّها ذلًّا، من باب الظلم لهم أو التشفِّي بهم، كلا؛ فإنَّ الله واحدٌ لا يتغيَّر، ولكن الناسَ هم الذين يتغيَّرون، كما أن الله عادلٌ لا يظلم الناس شيئاً، ولكن الناس أنفسهم يظلمون؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءَ أَفْلا مَرَدًّا لَئِنْ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾ [الرعد: ١١].

إن رياح التغيير - عباد الله - لا تهبُّ عليةً دون كدرٍ أو قتر، كما أنها لا يمكن أن تهبَّ إلا من داخل صفِّ المسلمين أنفسهم، ومستقبل المسلمين لا يمكن أن يصنعه من لا يخاف الله، ولا يؤمنُ بشرعته، بل لابدَّ أن يصنعه المسلمون أنفسهم انطلاقاً من شرعتهم الغراء، وخارجاً عن إطار القوميات والإقليميات والعبيات الجاهلية.

وإنَّ المسلمين متى ما أَرَوْا اللهَ من أنفسهم صدقاً في التصحيح، وَعَلِمَ اللهُ فيهم خيراً في حسن المقصد، وصدق اللجوء إليه، مهما كان الواقعُ الأليم الذي يعيشونه ويعانون فيه الأمرين، فإنَّ ذلك ليس بمانعهم أن يقلبَ اللهُ كَرَبَهُم فرجاً، وتَرَحَّهُم فرحاً، يقول اللهُ جل وعلا عن أسرى بدر من المشركين: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ قُلُوبًا لَمَّا فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَىٰ إِنَّ يَعْلَمُ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٠].

فالعودة إلى الله سببٌ في الفلاح، وسرٌّ في النجاح، غير أن العودة لا يمكن أن تكون بمجرد شَقْشَقَةِ لسان، أو حركة بنان، أو بوعودٍ كاذبة في التصحيح والاستقامة فورَ انكشافِ الكربة وانقشاع الغياية؛ كلاً! فتلك وعودٌ كاذبة، لو انطلت على بعض البشر، فإنها لا تخفى على ربِّ البشر؛ ولذلك أعقب اللهُ حديثه عن الأسرى بقوله: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧١].

فالحاصل - عباد الله - أنَّ استقامة المجتمع وفلاحه ونجاحه في سياسته العامة، وبلوغه المكانة العالية، إنما تجيء من الحرص على التكامل وتهذيب النفوس من الوحشة والنفرة، بعد تحقيق الصلة بالله.

ولدى المسلمين في وقتهم الحاضر كنوزٌ مشحونة بمثل هذه

المعاني الغضة تسع أهل الأرض جميعاً لو فسّمت بينهم، ولكنهم
 عن ذلك ذاهلون، وفي نيل الغاية السامية مفرطون، ﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ
 أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ
 الْمُسْلِمِينَ﴾ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا
 أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلْ لِحَمْدِ اللَّهِ سِيرِكُمْ آيَاتِهِ فَنَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا
 تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ [النمل: ٩١-٩٣].

اللهم، صلِّ على محمد وعلى آل محمد؛ كما صليت على
 إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، وبارك على محمد
 وعلى آل محمد؛ كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في
 العالمين، إنك حميد مجيد.

اللهم، أعزِّ الإسلام والمسلمين، وأذِلَّ الشرك والمشركين...



الثبات في الفتن

الخطبة الأولى:

الحمد لله الرحيم الرحمن، علّم القرآن، خلّق الإنسان، علّمه البيان، له مقاليد السموات والأرض، سبحانه كلّ يوم هو في شأن، وأشهد أنّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، سيّد ولد آدم أجمع، وخير من صلّى وركع، وأبلغ من دعا إلى الله فأسمع، صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه الأتقياء البررة، ورضي عنهم وعن التابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فأوصيكم أيها الناس بتقوى الله سبحانه، والتوكّل عليه، والاستعانة به، والاعتماد عليه، والتدليل بين يديه، فبذلك تكون الرفعة، وتحصل المنّة، وتنال الدرجة، وتكون العاقبة المحمودة في الأولى والآخرة، ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الدين: ١٧] آمنوا وكانوا يتقون ﴿ [يونس: ٦٢، ٦٣].

أيها الناس، إنّ المترقّب في مجموع العالم اليوم، بقضه وقضيضه، والذي يلقي بثاقب نظره صوب الفلك الماخرة، وسط زوابع يموج بعضها في بعض، ونوازل تتلاطم كموج من فوقه موج من فوقه سحاب؛ - ليوقن من خلال سيره للأحداث العامّة،

والمُدْلَهَمَّاتِ المتكاثرة، على كَافَّةِ مناحي الحياة بلا استثناء، نعم إنه لِيُوقِنُ: أن مبدأ ما من المبادئ، أو حركة ما من الحركات، أو دعوة ما من الدعوات المنبثقة هنا وهناك، يمكن أن تكبح جَمَاحَ المظالم بشتى صورها، مهما زُوِّقَتْ وزَيَّفَ للناس مفادها، أو أن تسدَّ ثُلْمَةَ المجتمعات الشارخة، دون أن يكون ذلك كله من خلال الإسلام، وروح الإسلام، وشريعة الإسلام. مَنْ يفهم خلاف ذلك، فهو شاذ برمته، إما أنه مريضٌ خَرَّاصٌ، أو عِرْقٌ دخيل دَسَّاسٌ، لا يعول على مثله ولا يوثق به.

إن الإسلام في صميمه - عباد الله - شريعة حرة، قد حرّرت العباد من عبادة العباد إلى عبادة ربّ العباد، ودلّت على أن العِزَّةَ مرهونة بها، والهوان والدون نتيجة للنأي عنها، يبدأ ذلك جلياً من ضمير الفرد، وينتهي في محيط ضمير المجتمعات بأسرها.

ومهما يكن الأمر: فإنَّ الإسلام لا يمكن أن يعمر قلباً بحلاوته، ثم هو يدعه مستسلماً، خاضعاً لسلطان في الأرض غير سلطان الواحد القهَّار، ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ ﴾ [الزخرف: ٨٤]، ﴿ إِنَّ الَّذِيْنَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَمُ ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْأِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وتلك لعمر ربّي، هي صِبْغَةُ الله وَمَنْ أَحْسَنَ مِنْ الله صِبْغَةً؟!!

إننا أيها المسلمون، إذا ما رأينا المظالم تقَعُ على الأرض حثيثة، وإذا ما سمعنا المنكوبين، وذوي الديار المغتصبة،

والأراضي المتخطفة، يئنون ويصرخون، ويهرعون ويتوجعون، حتى تلامس صيحاتهم أسماع أمة الإسلام، غير أنها لم تلامس أسماع نخوة أمة حاضرة، تهب لرفع ما نزل، ودفع ما قد يقع، فلنا حينئذ أن تساورتنا الشكوك جميعاً تجاه خليل ما، هو السر الكامن في وجود هذا الوهن العظيم، وسكون من له حق، وحرak من لا حق له، والذي من خلاله فتت عضد الأمة، ونكثت جراحها، وجعلت شذر مذر، ولا جرم أن من استطب لواقعه فلن يعدم معرفة الداء ومحلّه.

نعم أيها المسلمون: النسيم قد لا يهبُ عليلًا داخل المجتمعات المسلمة على الدوام، فقد يتعكر الجو، وقد تثور الزوابع، وتضطرم فوهات البراكين، كما أن ارتقاب الراحة الكاملة إنما هو نوع وهم وطيف وتخيل، ومن العقل والحكمة: توطين النفس على مواجهة بعض المضايقات على الإسلام والمسلمين، والاستعداد لتحملها، والوقوف بحزم أمامها، وترك إضاعة الأوقات في التعليق المريع عليها، والذي قد لا يفقأ عيناً، ولا يقتل صيداً.

ثم إن الفتن التي تعترض أمة الإسلام حيناً بعد آخر، إنما هي في حقيقتها تمحيص وابتلاء، ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ [الأنفال: ٣٧]، وقد شرع الله لنا أن نقابل ابتلاءه بالسراء، بقوله عن سليمان: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل: ٤٠]، وكذلك أن

يكون موقفنا في الضراء، مغايراً لما ذكره الله على وجه الذم بقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١]، وقوله سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠].

إن غير المسلمين عباد الله: لن يرضوا عن أمة الإسلام إلا أن تترك دينها، وتبتعد عن شريعتها، أو لا أقل من أن تتراجع، أو أن تقدم تنازلات قد لا تبقي من الإسلام إلا اسمه، وهذا أمر ينبغي ألا يختلف فيه اثنان، ولا يجادل فيه متفهبان!! جاء عند أحمد وابن أبي شيبة، من حديث جابر رضي الله عنه؛ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب فقرأه عليه، فغضب، وقال: «لقد جتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعته إلا أن يتبعني».

ومن هذا المنطلق عباد الله: فإن المساومة على الانتماء للدين صورة ومعنى، أو المساومة على الثواب التي لا تقبل الخلاف والجدل، والتي يخضع لها كل زمن، وليست تخضع هي لكل زمن، إن المساومة على مثل هذا لهو خيانة عظيمة، وحنون لا عقل معه، وإغماء لا إفاقة فيه، إذ شرف المرء وشرف المجتمع إنما هو في الانتساب إلى الإسلام، والعمل به، والدعوة إليه،

والثبات عليه حتى الممات، فمن غيَّرتَه صروفُ الحياة أو هز كيانه خطوب وتدايعات، ورغبة أو رهبة، ثم زلَّت قدمه عن دينه بعد ثبوتها، فإنما هو مفرط ضائع، ناقضٌ بعد غزل، وحالٌ بعد عقد، حتى يصبح فريسةَ الحور بعد الكور، والذلُّ بعد العز؛ ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥ - ٢٨].

فمن هنا عباد الله: جاءت شريعة الإسلام بالتحضيض على الثبات على الدين، والعضُّ عليه بالنواجذ حتى الممات، ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]، وكان من دعاء النبي ﷺ قوله: «اللهمَّ إذا أردت بالناس فتنةً، فاقبضني إليك غير مفتون» [رواه مالك في الموطأ].

بل كان ﷺ يُحدِّث عن المؤمنين ممن قبلنا فيقول: «كان الرجلُ فيمنُ كان قلبكم يُخْفَرُ له في الأرض فيجعلُ فيه، فيجاء بالمنشار فيوضعُ على رأسه، فيشقُّ باثنتين وما يصدُّه ذلك عن دينه، ويُمسَطُ بأمشاط الحديد، ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصدُّه ذلك عن دينه» [رواه البخاري ومسلم].

فالعجب كل العجب عباد الله: ممن يعلم خطورة الركون إلى

غير الإسلام، أو ميل القلب أو العاطفة تجاه مَنْ هُمْ على غير ملة الإسلام، مهما كانت الظروف التي تحيط بالواقع، ودوافع الرغبة أو الرهبة الداعية إلى مثل هذا؛ فَإِنَّ هذا - وإن كان لا يعدُّ مسوِّغاً للميل إليهم، والخنوع لهم، وتحبير الأقسام والأفهام لهم أو الانسياق خلف مطامعهم وتطلعاتهم، أو الاستجابة لدعواتهم المتكررة في لمز دين الإسلام وهمزه، أو التنازل عن بعض ثوابته وعماده، أو التشكيك المزوق في مناهج التعليم الشرعية، وثمار الصحوة المأتية - فإن الانسياق مع مثل هذا جرمٌ فاضح، وإحسانُ الحديث عنه زورٌ وبهتان، وما محبُّو مثل هذا في عالمنا الإسلامي إلا كأنوف أركمها غبار الافتتان، فاستوت عندها الروائح، أو كجسومٍ تندت ولم ينزع مبلولها، فما هي إلا الحمى ما منها بد.

وإن تعجبوا عباد الله: فعجبٌ تلك الإفهامُ التي تحمل اسم الإسلام، وما يخطه بنانها وتلوكة ألسنتها غريبٌ كلُّ الغرابة عنه، يدفعهم إلى مثل هذا كونُهُم منهومي المال، مفتوني الجاه، أو راغبين شهوات مشبوهة، قد ركبت تركيباً مزجياً، يمنعهم من الصبر والعدل، وإن أحسنَ الظنُّ بهؤلاء، فهم من صرعى الأفئدة المقلدة، الذين لا يفرقون بين الثوابت والمتغيرات، أو ممن يضيفون المسببات إلى غير أسبابها، ويستسمنون كل ذي ورم، ثم هم يَغْفُلُونَ عن حقيقة هذا وذاك، فلو سرق إنسان في المسجد، لعلت صيحاتهم تدعو إلى هدم المساجد أو إغلاقها؛ لثلاث تكرر

السرقه زعموا، ولو أن امرأة محجبة غشّت وخذعت، لتنادوا إلى نزع الحجاب، وبيان خطره، وأنه مظنة الغش والخداع، فلا هم في الحقيقة قطعوا يد السارق، ولا عزّروا تلك التي غشّت وخذعت، وإنما دَعَوْا إلى هدم المسجد، ونزع الحجاب، وهذا هو سرُّ العجب، وهو ما يثير الدهشة حينما نرى مثل هذا الفكر المقلوب، الذي لا صحيح فيه، إلا أنه غير صحيح، وأحسن ما فيه أنه غير حسن.

قَدِمَ أبوسفيان رضي الله عنه المدينة قبل أن يسلم، فدخل على ابنته أم حبيبة زوج النبي ﷺ ورضي عنها، فلَمَّا ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه، فقال: يا بِنِيَّةُ، ما أدري أرغبت بي عن هذا الفراش؟ أم رغبت به عني؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجلٌ مشرك نجس.

هكذا فَعَلَتْ أم المؤمنين رضي الله عنها في أبيها، بكلمة حَقٌّ خرقتُ بها مثلاً عربياً مشهوراً: «كُلُّ فتاةٍ بأبيها مُعجَبَةٌ». وما فَعَلُهَا هذا عبادَ الله، إلا لأنَّ الإيمان لم يخامر قلب أبيها، وكلمة التوحيد لم ينطقُ بها لسانه، ولم يكنُ لنسب الأبوة حَقٌّ عندها في أن يلامس مجرد الفراش.

ألا إن رسالة المصطفى ﷺ كفراشه، فمنَ أجلس عليه من ليس منه، أو طواه حياءً أو استجداءً، فما رعى حق الله، ولا حق نبيه ﷺ، ولا حقَّ دينه وأمته.

ولأجل هذا، فمن البدهي قطعاً أنه لا يمكن أن نتصور نضجاً

إنسانياً مع انقطاع الصلة بالله، وإضمار الكراهية لشريعته .

وما يشاع بين الفينة والأخرى - من أن ثمة أفكاراً ومستجدات، تضع إمكانية مقاطعة المرء المسلم لدينه، أو مجاملته بكلمات باهتة، أو مجرد التمسك بخيط واحد من حبله الممتين، ثم هو يختط لنفسه طريقاً لا يعرف من خلاله المسجد، ولا يقيم وزناً لحدود الله - لهو فكرٌ خطير الملمس، يثير تساؤلات واسعة النطاق، من قبل الباحثين عن الحق! هل قضية الإيمان بالله من السهولة بمكان، بحيث يستوي فيها النفي والإثبات، والأخذ والترك، والشرك والتوحيد؟ هل هذه القضية من خفة الوزن بحيث لا يفرق فيها بين الثابت والمتغير، وبين العدل والجور، وبين الصدق والريبة؟ إننا لو سمعنا برجل ما يقول: إن الأرض مربّعة، أو يزعم أن مياه البحار والمحيطات غاية في العذوبة، فإننا ولا شك نزري بعقله، ونرميه بالجنون والسفه، فإذا كان الخطأ في فهم بعض الحقائق الدنيوية له هذا الوزن في الإنكار، فكيف بالخطأ الجسيم في الحقائق العلوية المتصلة بمن استوى على العرش ويعلم السر وأخفى، ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَن يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِيَّ آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [فصلت: ٤٠].

فيا ليت شعري! أين ذوو الأقلام النيّرة، والأفهام السوية، يدلّون الناس على ما يحفظُ لهم دينهم، ويحصّن كيانهم، ويزرع الثقة في مبادئهم وشريعتهم ومناهج تعليمهم، ويحذرونهم من

شُرور المَبغضين وحسد الحاسدين، و يقيمون لهم ميزان العدل في القول والعمل، فيرجعون عقلاء مميّزين، يعرفون ما يأخذون وما يَدْرُونَ؟! فبلاد الإسلام مستهدفة، وثوابتُ الشريعة الغراء تواجه تضليلاً وتشكيكاً من خارجها وداخلها، بل وممن على أرضها ويتكلمون بلغتها.

وبلادُ الحرَمين الشريفين مَهْبُطُ الوحي، ومَعْقَلُ الإسلام المعاصر، لم تسلّم براجمها من هذه الأوخاز حتى طالتها الاتهامات والهجمات، غير أنها بحمد الله، لن تكون علكاً ملتصقاً، يلوكه كلُّ مشكك في دينها وثوابتها، وصحوتها ومناهجها الشرعية، وصحوتها من شباب وكهول، إنما نهلوا تربيةً إسلامية غير معوجة، وأفكارهم وأطروحاتهم مبنية على ركائز العقيدة الصحيحة، والولاء لله والبراء فيه، وهم في ذلك ثمرة علمائها وشعب حكامها، ولن يكون أهلها بإذن الله أبواقاً ينفخ من خلالها المغرضون، ومطايا يمتطيها الحاقدون ضد هذه البلاد، ومناهجها الشرعية، وعقيدتها الراسخة، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، والله الأمر من قبل ومن بعد، ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]، ﴿ الَّذِينَ يَرَبُّونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعَكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٤١].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، وأشهد أن لا إله إلا هو، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه.

وبعد:

فإن لكل نظام من التُّنْظِمِ على أرض الواقع: فلسفتهُ وفكره، وحله وعقده، وله حلوله الخاصة التي يواجه بها مشكلاته، بقطع النظر عن صحتها من سقمها، أو زينها من شينها، بيدَ أنه ليس من المنطق ولا من المعقول - فضلاً عن أنه ليس من الإنصاف جدلاً - أن تقحم الشريعة الغرّاء متهمّةً في مشكلات وتبعات، لم تُنشئها أمة الإسلام، وليست هي من بابتها، وإنما فجّرتها نظمٌ وممارسات أجنبية عن أمة الإسلام، ثم تريدُ هي من أمة الإسلام أن تفكّر بعقلها لا بالعقل الإسلامي، وأن تُحسَّ بقلبها لا بالقلب الإسلامي.

ولكي نعمق الولاء للإسلام والبراء فيه، ونردم الوهدة التي تفصل الكثيرين عن ماضيهم ومجدهم الزاهر، والوقوف أمام كل نابتة تنبت في هذا الخِصْمِ المائج، ولئلا تقدّم الأمة تنازلات فكرية، أو عقدية أو تعليمية، غير مبرّرة ولا مفهومة، بل هي من نسج الحاقد، واضحة النشوز في مسار الصحوة الفكري، ورفض التبعية والتغريب؛ إنه لأجل أن ندرك ذلك كلّهُ، فلا بد لنا أن نضع

الحقائق التالية نُصِبَ أعيننا:

أولها: أن عقيدتنا أيها المسلمون، أساسها التوحيد لله، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك، وهيئات هيئات أن يكون أي تجسيد عقدي سواه أرجح منه وأولى بالقبول؛ ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وثانيها: أنه لا يمكن إدراك تضامن إسلامي ناجح بين أفراد ومجتمعات بعضها يبغض بعضاً، أو ينفر من بعض، أو يكره الإسلام، أو يرفض بعض تعاليمه في ساحات كثيرة أو قليلة.

وثالثها: أنه ينبغي لأي وحدة منشودة، أو تمازج مقترح في المصالح الشرعية، أو في درء المفاسد، أن يتفق في الوسيلة أو في الغاية، وفق الحق والشرعية، وإنَّ أي وحدة صف، أو أي هدف منشود، فإنه يعتبر وهماً مع هذا الخروج على المقررات الإسلامية، والثوابت الشرعية.

ورابعها: أن التراجع والتخاذل بين المسلمين، إنما يجيء بالدرجة الأولى من داخل النفس، قبل أن يجيء من ضغوط من سواهم، ولسنا أول أمة ابتليت وفرض الله عليها أن تثبت على دينها، وتكافح لأجل أن تحيا عزيزة شماء.

وخامسها: أن تكون ثقافتنا المذاعة والمنشورة، قائمة على

التقريب بيننا لا على المباعدة، وعلى الرتق لا الفتق، وعلى الاعتزاز لا الابتزاز، وعلى دعم القيم الدينية، وردّ الشبهات التي تُثار حول أمة الإسلام ومناهجها، وعلى أن تكون دعوتها لإحياء وحدة المسلمين، في أن تميت صيحات الجاهلية، وأن تُبرز العنوان الإسلامي وحده، أساساً للنهضة البتأة والفكر السوي،

﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [ص: ٢٨]، ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ ﴿ ٣٦ ﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿ ٣٧ ﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿ [القلم: ٣٥ - ٣٨].

اللهم، صلِّ على محمد وعلى آل محمد...

* * *

الغارة على المسلمين

الخطبة الأولى:

الحمد لله فإلِقِ الْحَبَّ وَالنَّوَى، مُخْرِجِ الْحَيِّ مِنَ الْمَيِّتِ
ومخرج الميت من الحي، عالم كلِّ نجوى، وكاشِفِ كلِّ بلوى،
سبحانه يخلق ما يشاء ويختار، له الحمد في الأولى والآخرة، وله
الحكم وإليه المرجع والمآل، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا
شريك له، الكبير المتعال، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وصفيه
وخليله، وخيرته من خلقه، بلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح
الأمّة، وجاهد في الله حقَّ جهاده، فصلواتُ الله وسلامه عليه وعلى
آله وأصحابه الأتقياء البررة وعلى من سارَ على طريقهم واتَّبَعَ هداهم
إلى يوم المعاد.

أما بعد:

فيا أيها الناس، أوصيكم ونفسي بتقوى الله سبحانه، والاعتصام
به، واللجوء إليه، فلا يجيب دعوة المضطر إذا دعاه ويكشف السوء،
ويجعلكم خلفاء الأرض إلا هو، ﴿ وَمَا يَكُومُنَّ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمْ
الضَّرُّ فَالَيْهِ تَجَرَّوْنَ ﴾ [النحل: ٥٣].

أيها المسلمون، إن مقارنة سريعة يقوم بها أي امرئ عاقل، بين
واقع الفرد المسلم اليوم، وبين واقع مثيله في صدر الإسلام الأول،
لتوضِّح لنا بوناً شاسعاً بين الواقعين، دون بذل حدس أو كبير تأمل.

نعم أيها المسلمون قد نرى المسلم اليوم، أفخر ملبساً، أو أَدَسَمَ مطعماً، أو أرفهَ مركباً، ولكنه من حيث الخصائصُ الروحية أقلُّ فؤاداً، وأضعفُ وازعاً، وقولوا مثل ذلك - عباد الله - في مقارنة مثيلة بين المجتمعات المسلمة في القديم والحديث؛ إذ أُمَّتْنَا في الصدر الأول كانت قائدة لا منقادة، متبوعة لا تابعة، دافعة لا مدفوعة، يدها هي اليد العليا وليست اليد السفلى، بل كانت أمة العدل والقسط والخيار، لها ألقابُ مملكة ودولة، قد وضعت موضعها، ولم تكن يوماً ما كمثل سِنُورٍ يحكي انتفاخاً صَوَلةً أسد هصور، أو كمثل جمل قد استنوق، أو صُرْدٍ استنسر.

كلا!! فلم يصل بها الحد إلى ضرب من ضروب قلب المعايير، أو الخلط واللَّبْسِ وعدم وضوح الهدف وإنزال الأمور منازلها؛ كما هو مصاب أمة الإسلام في هذا الزمن، الذي تحكي بعض مآسيه: بأن الروبضة يجب أن يُلقَّب بالعالم، وسائق السيارة بالمهندس، والحلاق بالطبيب، والذي من أجله كثرت آلام أُمَّتْنَا المعاصرة، ونكثت جراحها حتى استبيحت حُرُمَاتُهَا؛ فتجرعت مجتمعاتها جراحها في صياصيها، وقُذِفَ في قلوب بنينا الرُّعب، وهي لا تكاد تسيع ذلك، ويأتيها الموت من كل مكان، بل إنها تُدعُّ إلى الاستكانة والاستجداء دَعَاً، وتُوَزُّ من قبل أعداء الإسلام أَرَاً، إلى أن تعترف مُكرهة حينا ومستسلمة حينا آخر، بأن حقها باطل، وأن باطل غيرها حق؛ على تخوُّفٍ ومضض.

والحقيقة أن هذا كله لم يكن بدعاً من الأمر، ولا كان طفرة بلا

مقدمات، وإنما هو ثمرةُ خَلَلٍ وفتوق، وضرام وميض قد كان بادياً خلل الرماد، وسط ميدان الأمة الإسلامية، بعد أن بُحِّثَ فيها أصوات الناصحين والمندرين، غير أن أمة الإسلام لم تستبِن التُّصَحِّحَ إلا ضحى الغد، وهذا كله - عباد الله - ليس غريباً، وإنما الغريب كل الغرابة أن تضع الأمة كل أنواع الاستفهام في مسامعها حيناً بعد آخر، ثم هي لا تهتدي إلى السبب الرئيس لكل هذه البلايا، فصارت كالعيس في البيداء يقتلها الظمًا، والماء فوق رؤوسها محمولٌ، وهذا السبب الرئيس هو الذي ذكره الله جل وعلا في خمس كلمات لا سادسةَ لهنَّ، لم ينسب الباري ولا في كلمة واحدة سَبَبَ الهوان إلى جيش أو معسكر، ولا إلى تحرُّف في قتال، وإنما قال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

ألا وإن من المعلوم يقيناً: أن الله كتب على نفسه النصر لرسله وأوليائه؛ فقال: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْلَبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال سبحانه: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]، غير أن هذا الوعد والعهد، لا يمكن أن يأتي هكذا جُزافاً، دونما قيد أو شرط، بل قد علَّق الله هذا النصر بالإيمان واستيفاء مقتضياته في كل مناحي الحياة، تشريعاً وسياسة واقتصاداً، وإعلاماً وتعليماً، دون فصل بعضها عن بعض، وهذه هي سُنَّةُ الله في النصر، وسُنَّتُهُ سبحانه لا تحابي أحداً ولا تصانعه، وحين تُقَصِّرُ الأمة وتُفَرِّطُ وتتخاذل، أو تأخذ من الإسلام ما تشاء وتُهَمِّشُ ما تشاء كيفما

اتفق، فإنما هي تدق نواقيس الخطر على أعتابها، وتكشف أسقيتها لكل ناهب والغ، ثم هي الهزيمة ما منها بُدُّ، وَمِنْ ثَمَّ فَإِنَّ عَلَى الْأُمَّة أَنْ تَتَجَرَّعَ النَّبِيَّةَ الْمُرَّةَ عَلَى شَرْقٍ، وهي وإن كانت أمة مسلمة في الأصل، إلا أن ذلك لا يقتضي خرق السنن، وإبطال النواميس الإلهية، ﴿وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر: ٤٣].

أيها المسلمون، إننا في هذه الأيام العصبية، نعيش وسط زواجع، يموج بعضها في بعض، وفي ثنايا نوازل، تتلاطم أحادها كموج بحر ﴿لَجِي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾ [النور: ٤٠].

نعم، أيها المسلمون؛ فإن النسيم قد لا يهبُ علينا داخل المجتمعات المسلمة على الدوام، فقد يعلو القتر، ويطغى الكدر، أو ترمق في سماء المجتمعات المسلمة غيايات فوّهات البراكين المضطربة، غير أن من العقل والحكمة توطين النفس على مواجهة بعض النوازل على أمة الإسلام، والتي تمثلت في تضيق الخناق على الإسلام والمسلمين من قبل أعدائهم، بل والاستعداد النفسي والحسي لمجابهة أصابع الاتهام وعبارات اللوم لديار المسلمين بعد كل حدث سانح.

إن علينا جميعاً أن نقف أمامها بشجاعة وإقدام، وقناعة واعتزاز بهذا الدين القويم؛ كما أن علينا أيضاً ترك إضاعة الأوقات، في مجرد التعليق المرير عليها دون عمل جاد في رفعها أو دفعها بحزم وعزم؛ لأن مجرد التعليق لا يفقأ عيناً، ولا يقتل صيداً، فلا يصح أن تكون أمة

الإسلام أمام الغارة الكاسحة من اتهامات أهل الكفر كالرِّيْشَة في مهب
الريح، تهاوئى بها في كل اتجاه، حتى تكون لقمة سائغة لتمرير
قناعات التنازل عن أمور الدين، أو التخلّي عن بعض ثوابته، أو
التشكيك فيها، أو الاقتناع بإعادة النظر في هيكله التربية والتنشئة
والتعليم، التي أثمرت صحوة مرضية، ومعرفة سوية لدى الجمهور من
الناس؛ إنه لا ينبغي أن يكون ذلك لمجرد تهوئش وتشويش يذكيهما
الخوف والقلق من المصير، فيصدق فينا حينئذ قول ربنا: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ
مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَى
وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ [الحج: ١١]، وقوله
سبحانه: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ
كَعَذَابِ اللَّهِ ﴾ [العنكبوت: ١٠]، ولأجل هذا عباد الله، كان لزاماً علينا أن
نحذر أمرين مهمين خطيرين:

أولهما: الحذر من الحملة المسعورة الشعواء، على أمتنا
وحياضها، من خلال تشكيك الأعداء بسموّ رسالتنا الإسلامية، أو
الاستجابة لشيء من المساومة مع غير المسلمين في عقيدتنا ومناهجنا؛
لأن ذلك خيانة عظيمة، وحنونٌ لا عقل معه، وجرمٌ ما بعده جرم،
فضلاً عن كونه نقضاً بعد غزل، وحوراً بعد كور، يستحق صاحبه
وصف الباري جلّ شأنه لمثل هذا بقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آوَدُوا عَلَيَّ آوَدْتُهُمْ
مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَى لَهُمْ ﴾ [٢٩] ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنَطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ

إِسْرَارُهُمْ ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبُرَهُمْ ﴿١٧﴾
 ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرَهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿١٨﴾
 [محمد: ٢٥ - ٢٨].

جاء عند أحمد وابن أبي شيبة، من حديث جابر رضي الله عنه؛ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أتى النبي ﷺ بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه عليه، فغضب، وقال: «لقد جئتكم بها بيضاء نقية...» الحديث، إلى أن قال ﷺ: «والذي نفسي بيده، لو أن موسى كان حيًا، ما وسعه إلا أن يتبعني».

فحذار حذار - عباد الله - من خطورة الركون إلى غير الإسلام، أو ميل العاطفة والقلب مع غير دين الله، أو التسلُّل لُوَازِئًا عن شعار الإسلام ولبِّه، مهما كانت الظروف التي تحيط بالواقع، ومهما كانت دوافع الرغبة أو الرهبة مائلةً إلى مثل هذا؛ فإن ذلك لا يعد مسوغاً للميل عن دين الله، أو التنازل عن بعض ثوابته وعماده؛ فقد صحَّ عن النبي ﷺ أَنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا يُؤْتَى لَهُ بِالْمَنَاشِيرِ، وَيَقْطَعُ نَصْفَيْنِ؛ مَا يَصْده ذلك عن دينه، وفي حادث أصحاب الأخدود قال كبيرهم: مَنْ رَجَعَ عن دينه فدعوه، وإلا فأقحموه في النار، فجاءت امرأة بابتها لها ترضعه، فكانها تقاعست أن تقع في النار، فقال الصبي: اصبري يا أماء؛ فإنك على الحق.

أما الأمر الثاني عباد الله: فهو أن نحذرَ اختراق صفوف المسلمين، أو هزَّ كِيَانِهِمْ من قبل جهات داخلية منهم ممَّن هم من بني

الجلدة، ويتكلمون بذات اللغة، والذين يعرفهم أولو الأبواب في لحن القول، والله يعلم إسرارهم، تَرَوْنَهُمْ كَالْقُطْعَانِ، يَهْرَفُونَ بِمَا لَا يَعْرِفُونَ، والله أعلم بما يوعون، هم في الحقيقة لصوصُ حروب، ونشألون وسط الأزمات، يجعلون من النوازل والتداعيات فُرْصاً سانحة لِفَتِّ العَضْدِ من داخل المجتمع، وَقَلْبِ الحقائق، وإشعالِ فِتِيلِ تغيير الواقع المسلم؛ ليخرجَ عن إطاره المشروع، يعد أمثالهم في دول كبرى (طابوراً خامساً) حسب قواميسهم؛ فهم يتقونهم في مجتمعاتهم بكل ما يملكون من سُبُل، وهؤلاء هم أشدُّ خطراً من العدو الخارجي، بل إنهم يقومون بما يسمى (الحرب بالوكالة)؛ فهم أعرف بلغتنا وعلمنا وواقعنا من الأجنبي عنا، فبالتالي يكون أثرهم أشدَّ بلاءً، وأوقع فتكاً.

وإن تعجبوا عباد الله: فعجبٌ أفهامٌ مثل هؤلاء، كيف يحملون اسم الإسلام، وما تخطه أيديهم وتلوكة ألسنتهم غريبٌ كلَّ الغرابة عنه، فهم يشكِّكون في بعض ثوابت الدين، تشكيكاً مزوقاً، يلمزون مناهجه التعليمية الشرعية، ويهمزون صحوتنا المعتدلة المباركة، ويمشون على أهل الإصلاح بنميم، عقولهم في أقلامهم، وألسنتهم لا في أفهامهم وحجاهم، فهم في الواقع كمثل السوس، أو كطبع السوس يأكل مِنْسَأَةَ المجتمع حتى يَخِرَّ صريعاً على وجهه؛ ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ بِكُمُ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فِتْحٌ مِّنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَّعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعُكُم مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤١]، وقد حذر الله نبيه ﷺ من أمثال هؤلاء بقوله: ﴿لَيْنَ لَّمْ يَنْهَ الْمُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم

مَرَضٌ وَالْمَرْجُفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لِنُغْرِبَتِكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٢﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا تُقِفُوا أُخِذُوا وَقَتَلُوا قَتِيلًا ﴿٢١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿الأحزاب: ٦٠-٦٢﴾.

يقول ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: أي: هذه سُنَّةُ اللَّهِ في المنافقين، إذا تَمَرَّدُوا على نفاقهم وكفرهم ولم يرجعوا عما هم فيه، أن أهل الإيمان يَسَلِّطُونَ عليهم ويقهرونهم.

ولأمثال هؤلاء نقول: إن الشريعة شرعةُ اللَّهِ، والمنهاج منهاجُهُ، فهي شريعةُ خالدة، لا نرى فيها عوجاً ولا أمتاً؛ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧]، ونحن نقول: ﴿ءَأَمْتَابِهِ كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ ﴿٢٢﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصَدَقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿الأحزاب: ٢٢-٢٤﴾.

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم ...

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله على إحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له تعظيماً لشانه، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله الداعي إلى رضوانه، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه وإخوانه .

أما بعد :

فيا أيها الناس، ما أحوَجْنَا وسطَ هذه المستجدَّات والمتغيرات الملتهبة، إلى كلمة سواء بيننا، تجمعُ قلوبنا، وتشدُّ من أزرنا، وتلم شعثنا، ولا يمكن أن تكون هذه الكلمة إلا في كلمة التوحيد الجامعة، «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، بكل ما تحمله من مدلولات ولوازم ومطابقات، والتي من لوازمها: الألفة والتآخي، والتضامن والتآزر بين المسلمين، أفراداً وجماعات؛ إذ كيف نجتمع وبعضنا يبغض بعضاً؟! وكيف نألف وبعضنا ينكر بعضاً؟! بل كيف نتمازج في مقترحات ومصالح، أو في وسائل وغايات، على دعاوى وهمية، ومتعلقات عبئية، ليست من الإسلام ولا هي من بابه؟!

ثم إن تراجع المسلمين وتخاذلهم إنما يجيء بالدرجة الأولى من داخل أنفسهم، قبل أن يجيء من ضغوط مَنْ سواهم، ولسنا في الحقيقة أول أمة تعالج الرزايا والبلايا، ثم تؤمر بأن تثبت على دينها،

وتكافح من أجل إعلاء كلمة الله عزيزة شماء .

كما أن علينا جميعاً أن نتخلَّ مصادر ثقافتنا ووعينا المشبوهة، لنستبعد الغثَّ والسمين، وكلَّ ذي ورم، ونستبقي النافع الرافع، الذي يكون مبنياً على التقريب لا التغريب، والتصحيح لا الإفساد، والرتق لا الفتق، وعلى دعم القيم الدينية، والمثُل الاجتماعية، والقضايا التربوية السويَّة، ورد الشبهات التي تُثار حول الإسلام ومناهجه الحقَّة، وعلى أن تكون دعوتنا لإحياء وَحْدَةِ المسلمين، مرهونةً بإماتة صيحات الجاهلية، والأطروحات اللامليَّة، وأن نبرز العنوان الإسلامي الصحيح كمصدر وحيد، لا مجرد مصدر رئيس من عدة مصادر، كما هو الحال في كثير من ديار الإسلام. إنه بمثل هذا تكون النصره، وتحصلُ الرفعة، ويسمو الفكر السوي. هذه هي شرعُ ربنا الحق، ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢]، ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ ﴿٢٨﴾ كَتَبَ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿ [ص: ٢٨، ٢٩].

اللهم، صلِّ على محمد وعلى آل محمد...

تأملات في حجة النبي ﷺ

الخطبة الأولى:

الحمد لله جامع الشتات، وباعث الرفات، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تكتب بها الحسنات، وتمحى السيئات، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله المبعوث بجوامع الكلمات، والآيات البينات، صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه، ومن سار على طريقه واقتفى أثره إلى يوم الدين.

أما بعد:

فأوصيكم أيها الناس ونفسي بتقوى الله سبحانه؛ فاتقوا الله ربكم، واشكروه على ما أولاكم من نعمه العظيمة، وآلائه الجسيمة؛ فلقد تأذن سبحانه بالمزيد لمن شكر من عباده، ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۗ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَكذَّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۗ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾

[العنكبوت: ١٧ - ١٩].

أيها المسلمون، حجاج بيت الله الحرام، الحج في الإسلام الأغر، يعد نقطة ارتكاز في ميدان التجرد والإيثار، والأخوة والمساواة، إضافة

إلى دقة أحكامه الشرعية، ومسائله الفقهية كباب من أبواب العبادات .
وعامة أهل العلم: مطبقون على أن النبي ﷺ لم يَحُجَّ إلا مرة واحدة، وهي حجة الوداع المشهورة قبل وفاته بأشهر، غير أن آحاد هذه الحجة وصورها كانت وما زالت منهلاً للاعتبار، ومنبعاً للادكار، ومرتعاً خصباً لجمع الأوابد فيها ولقط الثَّار، المتمثل كله في الدروس والعبر، والمواقف الموقظة للضمير المسلم الحي، المهيئاً للنهل من سيرة المصطفى ﷺ، واتباعها حذو القذة بالقذة، مع اعتقادنا الجازم: بأن هذه الدروس والعبر برمتها، لا يمكن أن تستوعب في مجرد خطبة واحدة، أو كليمات عابرة، ولا جرم: فإنَّ حجته ﷺ هي كالبحر من أي النواحي أتيته، فإنما لجته المعروف، وساحله البر والتقوى .

عباد الله، الرأفة والرحمة، والحرصُ على راحة الغير وسلامته من الأذى، أمرٌ منشود بين أهل الإسلام على وجه التأكيد، ولربما ازداد هذا التأكيد بوضوح إذا كان الالتقاء الأخويُّ يسوده جوٌّ من أجواء العبادات الروحية، وفي حجة النبي ﷺ يُسْمَعُ التوجيه المبارك من النبي ﷺ إلى الفاروق رضي الله عنه حينما وجَّهه لتقبيل الحجر الأسود، ونهاه أن يزاحم الناس؛ فإنَّ وجد فُرْجة وإلا فليستقبله ويكبر ولا يزاحم؛ كما روى ذلك الطبراني وغيره. وفي هذا الموقف يتجلَّى حرص النبي ﷺ ودعوته لعموم المؤمنين في التخلق باللين والرحمة والرأفة والرفق، وألا يكونوا سبباً في الإيذاء أو المزاحمة، أو التنغيص لأجواء العبادة التي لا تكتمل إلا بالطمأنينة والصفاء، والبُعْد عن كل ما

من شأنه تكديرها وتشويشها.

ومن ذلكم عباد الله: المزاومة والافتتال في حال أداء بعض النسك في الحج؛ كتقبيل الحجر، أو رمي الجمرات، أو سد الطرقات في المساجد والممرات، دون مراعاة لأجواء السكينة في العبادة، أو احترام لشعور الآخرين وحقوقهم، والنبي ﷺ يقول: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه» [رواه مسلم].
وتحصيل الأجر في النسك عباد الله لا يبلغ الكمال إلا بالرفق واللين؛ لأن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف؛ كما صح الخبر بذلكم عن النبي ﷺ عند مسلم في صحيحه.

أيها المسلمون، في حجة الوداع المباركة يصعد النبي ﷺ على الصفا، فينظر إلى الكعبة؛ فيستقبلها، ثم يوحد الله ويكبره، ويقول: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»؛ بأبي هو وأمي صلوات الله وسلامه عليه، لقد قال هذه الكلمات في أرض أمن وأمان، في زمن استقر فيه سلطانه، وغلبت فيه رسالته، وهو حينما يذكر الله بهذه الألفاظ إبان النسك، فإنما هو بهذا يثير في النفس كوامن الإيمان بقوة الله وقدرته، وأثر الاعتماد عليه وحده، ونسبة القوة والغلبة له سبحانه دون سواه؛ ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُم مِّنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، إن النبي ﷺ حينما يكبر الله عند كل شوط

في الطواف، ويكبره عند الصفا والمروة، وعند رمي الجمار، وفي أيام التشريق، لهو يبعث في النفوس شعوراً عميقاً، واستحضاراً أسيفاً لقيمة ذكر الله وتكبيره في حياة المرء المسلم، وإن كلمة «الله أكبر» لهي رأس الذكر وعماده، وهي أول ما كلّف به النبي ﷺ حين أمر بالإنداز، ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَدِينَةُ ۖ فَرَأَانَدْرَ ۝ وَرَبِّكَ فَكَثِرَ ۝﴾ [المدثر: ١-٣].

الله أكبر الله أكبر الله أكبر، إنها لكلمة عظيمة تُحْيِي موات النفس الهامدة، لصوتها هديرٌ كهدير البحر المتلاطم، أو هي أشد وقعاً؛ بل إنها سلاح فتاك، في وجوه أعداء الملة ولصوص الأرض، وهي سيف الحروب الذي لا يثلم، كيف لا وقد ذكر النبي ﷺ أن مدينة تفتتح في آخر الزمان بهذه الكلمة، فقد قال ﷺ: «إِذَا جَاؤُوهَا، نَزَلُوا - أَيِ الْمُسْلِمُونَ - فَلَمْ يَقَاتِلُوا بِسِلَاحٍ، وَلَمْ يَرْمُوا بِسَهْمٍ، قَالُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ؛ فَيَسْقُطُ أَحَدُ جَانِبَيْهَا، ثُمَّ يَقُولُوا الثَّانِيَةَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ؛ فَيَسْقُطُ جَانِبُهَا الْآخَرَ، ثُمَّ يَقُولُوا فِي الثَّلَاثَةِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ؛ فَيَفْرَجُ لَهُمْ فَيَغْنَمُوا...» الحديث. [رواه مسلم].

وعلى صخرات الصفا والمروة - عباد الله - يذكر النبي ﷺ نعمة ربه عليه وعلى المؤمنين، ويحمده على أن رد كيد الأحزاب وحده، ونصر عبده، وأعز جنده، وذلك يوم الخندق، الذي قال عنه الباري جل شأنه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ۝ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ رَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ

بِاللَّهِ الظَّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿الأحزاب: ٩-١١﴾.

إن الإيمان بقدره الله وحده وقهره وغلبته، هو الشعور الذي ينبغي أن يخامر قلوب المسلمين في كل حين؛ لأن ذلك يثمر الإقدام والاعتماد عليه وحده، ويبعث في النفس خلق الشجاعة وعدم الاستخذاء لصروف الأيام وتكالب الأعداء وتحزبهم ضد أمة الإسلام، وأنه لا ينبغي أن تكون الآذان رجع صدى للذين يقولون: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، بل ينبغي أن يزيدهم ذلك إيماناً مع إيمانهم، وتعلقاً بالله ويقولوا: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، ولا غرو أن من يعتقد أن الأجل محدود، والرزق مكفول، والأشياء بيد الله يقلبها كيف يشاء، فلن يرهب الموت والبلى، ولن يخشى الفقر والفاقة، مهما طقطقت أرجل الأعداء الحاقدين، بل سيكون حديثه تترا قول الله: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا﴾ [التوبة: ٥١]، أو قوله: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢] يعنون بذلك: كسب المعركة بالنصر، أو الموت دون الظفر بها، وهو حسنٌ كذلك؛ لأنه شهادة في سبيل الله، وما عند الله خير وأبقى، أما الذين لا إيمان لهم بالله ولا بقضائه وقدره، بل طغوا وبغوا، وعتوا عتواً كبيراً، فهؤلاء إن انتصروا أو انهزموا، فهم بين عذابين: آجل أو عاجل: ﴿وَنَحْنُ نَرَبَّصُّ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبَّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢]، وأمثال هؤلاء يسيحون بأفئدة هواء، تلعب

بهم الأحداث والظنون، وتقف لهم أشباح الموت والمصائب عند كل أفق، بل هم ﴿قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَغْرَبًا أَوْ مَدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْحَدُونَ﴾ [التوبة: ٥٦، ٥٧].

أيها المسلمون، حجاج بيت الله الحرام، لما غربت شمس يوم عرفة، وذهبت الصفرة قليلاً حتى غاب القرص، دفع النبي ﷺ من عرفة وقد شق لناقته القصواء الزمام حتى لا تسرع، وهو يقول بيده اليمنى: «أيها الناس، السكينة السكينة».

إن هذا الموقف الجليل، الذي تتسابق فيه النفوس إلى الخير، وهي أينما حلت في عرصات المشاعر، فهي في نسك، ومع نسك، ووسط نسك، غير أن الهدوء والطمأنينة، والتأني والسكينة وعدم الاستعجال، هو الشعور الإيجابي المربي، وهو الطريق المباركة لكل نجاح أمثل، فالسكينة لا يعدلها شيء، إذ العجلة هي داء المجتمعات، وهي الألغام الموقوتة التي لا تثمر إلا الأشلاء والدماء، بل هي من مقتضيات حظوظ النفس البغيضة، والجهل بالعواقب وسوء المغبة، وذلك لخروجها عن الإطار المشروع حتى في حال العبادة؛ يقول الباري سبحانه: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾ [الإسراء: ١١]، بل حتى في أدق مواضع العبادة يقول النبي ﷺ: «إن الله يستجيب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوتُ فلم يستجب لي» [رواه البخاري ومسلم].

لقد جاء لفظ العجلة في القرآن متصرفاً في سبعة وثلاثين

موضعاً، كلها على سبيل الذم إلا موضعاً واحداً، وهو قوله جل شأنه: ﴿وَأذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٠٣]، فالعجلة - عباد الله - من الخلال المذمومة في أعمال المرء العبادية والحياتية، والواجب على العاقل: أن يلزم التأني في الأمور كلها؛ لأن الزيادة على المقدار في المبتغى عيبٌ كما أن النقصان فيما يجب من المطالب عجز، ومن لم تصلحه الأناة فلن تنفعه العجلة بل تضره.

وصفات العجل: أنه يقول قبل أن يعلم، ويجيب قبل أن يفهم، ويحمد قبل أن يجرب، ويذم بعدما يحمد. المرء العجل: تصحبه الندامة، وتخذله السلامة، وقد كانت العرب في القديم تكني العجلة: «أم الندامات»؛ ففي العجلة الندامة، وفي التأني السلامة، ولقد صدق الله: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

ألا فاتقوا الله معاشر المسلمين وحجاج بيت الله الحرام، وخذوا من هدي نبيكم ﷺ؛ تفلحوا، وتحسنوا، ﴿وَتَكَزَّوْا فَايَاتِ خَيْرَ الزَّادِ الْقَوِيِّ﴾ [البقرة: ١٩٧].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ وعلى آله وأصحابه.

أما بعد:

فلقد تمثّل النبي ﷺ في حجه بأعظم معاني التيسير والتسهيل، والرحمة للعالمين والرأفة بالمؤمنين، ولقد كان صلوات الله وسلامه عليه حريصاً أشدّ الحرص على أمته بألا يكلفهم ما لا يطيقون، أو يفعلوا ما لا يستطيعون؛ ففي يوم العيد يوم الحج الأكبر، ما سئل عن شيء قدّم أو أخر في ذلك اليوم إلا قال: «افعل ولا حرج»، فجاء رجل وقال: لم أشعُرُ فحلقتُ قبل أن أذبح؟ فقال: «اذبح ولا حرج»، وجاءه آخر قال: لم أشعُرُ فنحرتُ قبل أن أرمي؟ قال: «ارم ولا حرج». فما سئل يوماً عن شيء قدم ولا أخر إلا قال: «افعل ولا حرج» [حديث متفق على صحته].

ويقول ﷺ: «نحرتُ هاهنا ومنى كلها منحراً؛ فانحروا في رحالكم، ووقفْتُ هاهنا وعرفة كلها موقف، ووقفْتُ هاهنا وجمَعُ كلها موقف» [رواه مسلم].

هذا هو ديدنه ﷺ؛ فلقد كان يأمر دعاته ورسله باليسر والتيسير، فقد قال عليه الصلاة والسلام لمعاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري، لما بعثهما إلى اليمن: «يسِّرا ولا تعسِّرا، وبشِّرا ولا تنفِّرا» [رواه البخاري].

وهذا التيسير منه ﷺ هو فيما كان جارياً وفقَّ الشرع والعدل، لا وفق الأهواء والرغبات؛ إذ لو كان الأمر كذلك، لَمَا كان هناك تكليف أصلاً؛ لأن في التكليف نوعَ مشقَّة ونصب؛ فالواجب على الناس بعامة أن يراعوا مثل ذلك فلا يضيِّقوا على أنفسهم بما جعل الله لهم فيه سعة، كما ينبغي ألا يضيِّق المرء على نفسه في وقت يخصُّصه للطواف مثلاً فيزاحم ويشاقق، وقد جعل الله له فسحة في الوقت يتخير أيسره وأرفقه، وقولوا مثل ذلك في الهدى، وفي الرمي، ونحوهما.

كما أنه ينبغي للمفتين والمرشدين في الحج ألا يعسِّروا على الناس بفتاوى لم يصحَّ الدليل فيها، أو بفهمٍ شخصيٍّ للمسألة دون دليل يجب الرجوعُ إليه، أو أن يتوسَّعوا في فتاوى ليس لهم فيها سعة، أو أن يستقلَّ بعضهم برأي أو فتياً تتعلَّق بمصير كثير من الحجاج دون تروُّ أو مراعاة لنصوص الشريعة، وبدون المشورة العامة لأهل العلم، لاسيما في موسم الحج، لثلا يحدث الخلل بين الحجيج، ويقعوا في التذبذب بين الفتاوى والآراء، فالمفتون

مسؤولون أمام الله عن فتاواهم، وقد قال النبي ﷺ: «مَنْ أُنْفِيَ لَهُ
بغير علم، كان إثمُهُ على من أفتاه» [رواه أبو داود].

وإن من الأخطاء المشهورة بين بعض المرشدين: عَدَمَ
التفريق بين الدم في ترك الواجب، وبين التخيير في فدية الأذى،
أي: في ارتكاب محظور من محظورات الإحرام عدا الجماع؛
حيث يفتي بعضهم في الجميع بالدم، وهذا خطأ بيّن؛ فإن الحاج
إذا ارتكب محظوراً عدا الجماع، فإنه مخيّر بين أن يذبح شاة، أو
يصوم ثلاثة أيام، أو يطعم ستة مساكين؛ بنصّ حديث النبي ﷺ،
وأما إيجاب الدم استقلالاً: فإنما هو في حق من ترك واجباً من
واجبات الحج؛ كالمبيت بمنى، أو ترك رمي الجمار، ونحو ذلك؛
كما قرره جمهور أهل العلم.

تقبّل الله من الحجاج حجّهم، ويسّر نسكهم.

اللهم، صلّ على محمد وعلى آل محمد؛ كما صليت على
إبراهيم وعلى آل إبراهيم...

شهر التوبة

الخطبة الأولى:

الحمد لله الذي علا بحوله، ودنا إلى عباده بطوله، مانح كل غنيمة وفضل، كاشف كل عزيمة وضيق، نحمده على سوابغ نعمه، وواسع كرمه، وأشهد أن لا إله إلا الله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله إلى الثقلين الإنس والجن بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين، وعلى أصحابه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فأوصيكم أيها الناس ونفسي بتقوى الله سبحانه، فما أنتم في هذه الدنيا إلا غرضٌ تنتضل فيه المنايا، مع كل جرعة منها شرق، وفي كل أكلة غصص، لا تنالون منها نعمة إلا بفراق أخرى، ولا يحيا لكم أثر إلا مات لكم أثر، ولا يتجدد جديد إلا بعد أن يبلى لكم جديد، وقد مضت أصولٌ نحن فروعها، فما بقاء فرع بعد ذهاب أصله؟

أيها الناس، إن شهركم هذا قد بدا إدباره وأذن بوداع، وإن ما بقي منه فسيمرُّ مثلَ طرفة عين أو كلمح بصر أو هو أقرب، وهو عند ذوي العقول كفيء الظل، بينما تراه سابغاً حتى قلص، وزائداً

حتى نقص، ولا جرم - عباد الله - فإن الشيء يُتَرَقَّبُ زواله إذا قيل
تم ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ [يس: ٣٩].

ألا فإن ما بقي من الشهر اليوم هو المضمار، وغداً السباق،
والسبقة الجنة، والغاية رؤية الله سبحانه؛ أفلا تائبٌ من خطيئته قبل
ختام شهره؟! ألا عاملٌ لنفسه قبل يوم يؤسه؟! ألا إنكم في أيام
أمل من ورائه أجل، فيا وَيْحَ طالب الجنة إذا نام! ويا بؤس الهارب
من النار إذا غفا، ثم هو لا يتخوَّفُ قارعة حتى تحل به! ومن هذه
حاله فليس هو من عُمَّار الشهر في مراح ولا مغدى.

عباد الله، إن في هذا الشهر أناساً أشغلوا أنفسهم عن ذكر الله
وطاعته، حتى قصرُوا غاية برِّهم به في جعله موسماً حولياً للموائد
الزاخرة، وفرصةً سانحةً للهو والسمر الممتدِّين إلى بزوغ النهار،
فصَبْحُهُمْ مثل ليلهم، وأجواؤهم سود، وأجفانهم جَمْرٌ يومض؛
جعلوا من هذا الشهر محلاً للألغاز الرتيبة، والدعايات المضللة، أو
المواعيد المضروبة لارتقاب ما يستجدُّ من أفلام هابطة، وروايات
مشبوهة، ترمي بشرر كالقصر لإحراق ما بقي من أصل حشمة
وعفاف، أو تدئين يستحق التشجيع والإذكاء.

وبذلك تخسر الأمة في كل لحظة مواطناً صالحاً، يضلُّ
ضلالة يغشُّ بها ويخدعُ ويسرق ويحتال، تمتعاً بهذا المرئي والداء
المستشري، ولسانُ حال هؤلاء يقول: صفتت شياطين رمضان إلا
شياطينهم، حتى صاروا بذلك يَطْلُبُونَ ولا يُعْطُونَ، ويشتهون ولا

يصبرون، ويحسنون الجمع في حين أنهم لا يعرفون القسمة، إلى أن تحطمت فيهم روح المغالبة والمقاومة، فلا عجب حينئذٍ إذا لم يجد هؤلاء بهذا الشهر المبارك ما يجده المؤمنون الصادقون.

وفي المقابل عباد الله: فإن لهذا الشهر أناساً غَضَّ أبصارَهُمْ ذكْرُ المرجع، وأراق دموعهم خوفُ المحشر، فهم بين شريد هارب من الكسل والخذلان، وخائفٍ مقهور، وداعٍ مخلص، وثكلانٍ موجه.

ألا فاتقوا الله أيها الصائمون القائمون، وتنفسوا قبل ضيق الخناق، وانقادوا قبل عنف السياق، ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]، وإلا فما يصنع بالدنيا من خلق للآخرة؟! وما يصنع بالمالِ مَنْ عَمَّا قليل سيسلبه وتبقى عليه تبعاته وحسناته؟! فالله الله وأنتم سالمون في الصحة قبل السقم، وفي الفسحة قبل الضيق، وبالفوز من سَعَوْا في فكاك رقابهم من قبل أن تغلق عليهم رهائنها، ألا إن الله عتقاء من النار في هذا الشهر المبارك.

وأما هذه الدنيا: فهي غرارة ضرارة، حائلة زائلة، لا تعدو أن تكون بزخرفها كما قال الله تعالى: ﴿كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ﴾ [الكهف: ٤٥].

إنه ما بين أحدنا وبين الجنة أو النار إلا الموتُ أن ينزل به، وإنَّ غايةً تَنْقُصُهَا اللحظة، وتهدمها الساعة، لجديرةٌ بقصر المدة

مهما طالت، وإنَّ غائباً يحدوه الجديدان الليل والنهار، لحريّ
بسرعة الأوبة، فرحم الله امرأً قدّم توبته، وغالب شهوته، فإنَّ أجله
مستور عنه، وأمله خادع له، والشيطان موكل به، يزين له المعصية
والتفريط ليركبهما، ويمنيه التوبة ليسوفها، ﴿يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ لِإِغْرَاقٍ﴾ [النساء: ١٢٠].

فالبدارَ البدارَ قبل مفاجأة الأجل، فلو أن أحداً يجد إلى
البقاء نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء، دون أن يقضى عليه
بالموت، لكان ذلك لسليمان بن داود عليه السلام، الذي سحر الله له
ملك الجن والإنس، ﴿الرَّيْحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءَ حَيْثُ أَصَابَ ﴿٢٦﴾ وَالشَّيْطَانَ كُلَّ
بَنَاءٍ وَعَوَاصِرٍ ﴿٢٧﴾ وَآخِرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ [ص: ٣٦ - ٣٨]، هذا مع نبوته
وعظيم زلفته، غير أنه لما استوفى طعمته، واستكمل مدته، رماه
قوسُ الفناء بنبال الموت، وأصبحت الديار منه خالية، وورثها قوم
آخرون.

وإنَّ لكم في القرون السالفة لعبرة؛ وإلا فأين العمالقة وأبناء
العمالقة؟! وأين الفراعنة وأبناء الفراعنة؟! أين أصحاب مدائن
الرس؟! وأين عادٌ وثمودٌ وإرمُ ذاتُ العماد التي لم يخلق مثلها في
البلاد؟!!

فيا مؤخراً توبته بمطل التسويف، لأي يوم أجّلت توبتك
وأخرت أوبتك؟! لقد كنت تقول: إذا صمت تبت، وإذا دخل
رمضان أنبت، فهذه أيام رمضان عناقد تناقصت، لقد كنت في كلِّ

يوم تضع قاعدة الإنابة لنفسك، ولكن على شفا جرف هار.
ويحك أيها المقصر، فلا تقنع في توبتك إلا بمكابدة حزن
يعقوب عن البين، أو بعبرة داود ومناداة أيوب لربه في ظلمات
ثلاث: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء:
٨٧]، أو بصبر يوسف عن الهوى، فإن لم تطق ذلك فبذل إخوته
يوم أن قالوا: ﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩٧].

نعم أيها المذنب المقصر، لا تخجل من التوبة، ولا تستح
من الإنابة، فلقد فعلها قبلك آدمٌ وحواء حين قالَا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا
وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]، وفعلها قبلك
إبراهيم حين قال: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خِطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾
[الشعراء: ٨٢]، وفعلها موسى حين قال: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي
فَغَفَرَ لَكَ﴾ [القصص: ١٦]، وقد قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَيُّوبَ نَبِيٌّ
اللَّهُ لَبِثَ فِي بَلَاءِهِ ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً، فَرَفَضَهُ الْقَرِيبَ وَالْبَعِيدَ إِلَّا
رَجُلَيْنِ مِنْ إِخْوَتِهِ، كَانَا مِنْ أَحْصَى إِخْوَانِهِ، كَانَا يَغْدَوَانِ إِلَيْهِ
وَيُرَوِّحَانِ، فَقَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: تَعَلَّمْ وَاللَّهِ، لَقَدْ أَذْنَبَ أَيُّوبُ ذَنْبًا
مَا أَذْنَبَهُ أَحَدٌ مِنَ الْعَالَمِينَ، قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: مِنْذُ
ثَمَانِي عَشْرَةَ سَنَةً لَمْ يَرْحَمُهُ اللَّهُ فَيَكْشِفُ مَا بِهِ؛ فَلَمَّا رَاحَ إِلَيْهِ، لَمْ
يَبْصُرِ الرَّجُلَ حَتَّى ذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ أَيُّوبُ: لَا أَدْرِي مَا تَقُولُ، غَيْرَ
أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ أَمْرًا عَلَى الرَّجُلَيْنِ يَتَنَازَعَانِ، فَيَذَكُرَانِ اللَّهَ،
فَارْجِعْ إِلَى بَيْتِي فَأَكْفُرْ عَنْهُمَا كِرَاهِيَةً أَنْ يَذَكَرَ اللَّهُ إِلَّا فِي حَقِّ، قَالَ:

وكان يخرج إلى حاجته، فإذا قضى حاجته أمسكت امرأته بيده، فلما كان ذات يوم أبطأ عليها فأوحى الله إلى أيوب في مكانه: ﴿أرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢] فاستبطأته فبلغته، فأقبل عليها قد أذهب الله ما به من البلاء، فهو أحسن ما كان، فلما رآته قالت: أي بارك الله فيك، هل رأيت نبي الله هذا المبتلى، والله على ذلك ما رأيت أحداً كان أشبه به منك إذ كان صحيحاً، قال: فإني أنا هو، وكان له أندران: أندر القمح، وأندر الشعير، فبعث الله صحابتيْن، فلما كانت إحداهما على أندر القمح، أفرغت فيه الذهب حتى فاض، وأفرغت في الأخرى على أندر الشعير الورق حتى فاض.

فلا إله إلا الله! من يمنع المذنب من التوبة؟! ولا إله إلا الله، من يقنط من رحمة ربه إلا الضالون؟! يقول ابن عباس رضي الله عنهما: دعا الله إلى مغفرته من زعم أن عزيراً ابن الله، ومن زعم أن الله فقير، ومن زعم أن يد الله مغلولة، ومن زعم أن الله ثالث ثلاثة، يقول لهؤلاء جميعاً: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونََهُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤].

ألا فإن التوبة للمرء كالماء للسّمك، فما ظنكم بالسّمك إذا فارق الماء؟! جاءت امرأة إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله، إني قد زنيت فطهرني، فردها النبي ﷺ، فلما كان الغد، قالت: يا رسول الله لم تردني؟ فلعلك أن تردني كما رددت ماعزاً، فوالله إنني

لجبلي، قال: «أما لا فاذهبي حتى تلدي»، فلما ولدت، أتته بالصبي في خرقة، قالت: هذا قد ولدته، قال: «اذهبي فأرضعيه حتى تظطميه»، فلما فطمته، أتته بالصبي في يده كسرة خبز، حرصاً منها على التوبة وإقامة الحد، فقالت: هذا يا رسول الله، قد فطمته، وقد أكل الطعام، فدفعت الصبي إلى رجل من المسلمين، ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها، وأمر الناس فرجموها، فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها، فتنضح على وجه خالد فسبها، فسمع نبي الله سبه إياها، فقال: «مهلاً يا خالد، فوالذي نفسي بيده! لقد تابت توبةً لو تابها صاحب مكس، لغفر له»، وصاحب المكس هو الذي يأخذ الضريبة من الناس. وفي رواية: «لقد تابت توبةً لو قُسمت بين سبعين من أهل المدينة، وسعتهم، وهل وجدت شيئاً أفضل من أن جادت بنفسها لله عز وجل؟!».

إن صاحب الذنب مهما غفلَ عن التوبة، أو تنأى عنه الوصول إليها، فسيظلُّ أسير النفس، قلقاً لا قرار له، متلفتاً لا يصل إلى مبتغاه، ما لم يفتح له بابُ التوبة ليظهر نفسه من كلكها، ويخفف من أحمالها.

إلهنا، إلهنا! يا مَنْ يرى مدَّ البعوضِ جناحها في ظلمة الليلِ البهيمِ الأليلِ، ويرى نياطَ عروقها في نحرها والمُخ في تلك العظامِ الثَّخَلِ، امننْ عليَّ بتوبةٍ تمحو بها ما كان مني في الزمانِ الأوَّلِ.
بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم...

الخطبة الثانية

الحمد لله، حمداً كثيراً مباركاً فيه، كما يحبُّ ربنا ويرضى،
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمداً
عبد الله ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه.
أما بعد:

فيا أيها الناس، في يوم من الأيام صَعِدَ رسولُ الله ﷺ درجات
المنبر، فلما رَقِيَ عَتَبَةً قال: «آمين»، ثم رقي عتبة أخرى فقال:
«آمين»، ثم رقي عتبة ثالثة فقال: «آمين»، ثم قال: «أتاني جبريل
فقال: يا محمد، مَنْ أدركه رمضان فلم يُغْفَرْ له، فأبعده الله، قلت:
آمين» الحديث، [رواه ابن حبان وغيره].

صدق رسول الله ﷺ بأبي هو وأمي صلوات الله وسلامه
عليه، لقد خسر وفرط ورغم أنفه مَنْ ضيع فرصة رمضان، ونكص
على عقبيه، ألا أين أنتم أيها التائبون؟! عقلكم يحثكم على التوبة،
وهواكم يمنعكم!! والحربُ بينهما سجال، فلو جهزتم جيش عزم،
لَفَرَّ العدو منكم، تنوون قيام الليل فتكاسلون، وتسمعون القرآن فلا
تكون، بل أنتم سامدون، ثم تقولون: ما السبب؟! ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ
أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

ألا فاتقوا الله معاشر المسلمين، وتوبوا إلى ربكم توبةً نصوحاً، توبوا إلى الله فُرَادَى وجماعات فما توبة الأمة بأدنى شأنًا من توبة الأفراد إذ يقول الله تعالى: ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١]، ألا تَرَوْنَ - يا رعاكم الله - ما قاله الباري جل شأنه في كتابه: ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيَةً ءَامَنْتَ فَنَفَعَهَا إِيْمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَآذَآبَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يونس: ٩٨].

فيا أيها المسلمون، ما هي إلا التوبة والاستغفار؛ وإلا فالمصير هو النار، والخسار، وما لهذا الجلدِ الرقيق صبرٌ عليها، فارحموا أنفسكم، فقد جربتموها في مصائب الدنيا، أفرايتم جزعَ أحدكم من الشوكة تصيبه والرمضاء تُحرقه؟! فكيف إذا كان بين طابقيْن من نار، ضجيع حجر وقرين شيطان في نار يحطم بعضها بعضاً، لا تسمع فيها إلا تغيظاً وزفيراً، كلما نضجت فيها الجلود، بدلها الله جلوداً غيرها ليدوقوا العذاب، ﴿ كَلَّا إِنَّهَا لَأَطْنَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَاعَةٌ لِّلشَّوْءِ ﴿١٦﴾ تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰ ﴾ [المعارج: ١٥ - ١٨].

يقول الرسول ﷺ، فيما يرويه عن ربه عز وجل: «يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني، غفرتُ لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنانَ السماء ثم استغفرتني، غفرتُ لك ولا أبالي، يا ابن آدم، لو أنك أتيتني بِقُرَابِ الأَرْضِ

خطايا، ثم لقيتني لا تشركُ بي شيئاً، لأتيتك بقراها مغفرة»
[رواه الترمذي].

﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ وَلَا تُفْسِدُوا
فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ
الْمُحْسِنِينَ ﴿الأعراف: ٥٥، ٥٦﴾.

اللهم، صلِّ على محمد وعلى آل محمد؛ كما صليت على
إبراهيم وعلى آل إبراهيم...



تعلیق حول أحداث التفجير

الخطبة الأولى:

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلّل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد:

فاتَّقوا الله أيُّها المسلمون، واعلموا أن أحسن الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشرّ الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وعليكم بجماعة المسلمين؛ فإن يد الله على الجماعة، ومن شدّ عنهم؛ شدّ في النار.

أيُّها الناس، إن من يسرّ التاريخ الغابر والحاضر، ببداية فهمه واتزان نظره، ويتعرّف على واقع الأمم السالفة، والمجتمعات

الحاضرة: فلن يتطرق إليه شكُ البتة في وجود حقيقة ثابتة ومبتغى ينشده كلُّ مجتمع، وأسرٌّ لا يتغيّر. ولا يتبدّل مهما توالى عليه العُصور وعصفت به رياح الأيام التي يداولها الله بين الناس، ألا وهو مطلب الأمن والأمان. الأمن الذي يهنا فيه الطعام، ويسوغ فيه الشراب، ويكون فيه الثَّهَّار معاشاً، والثَّوم سُباتاً، والليل لباساً.

عباد الله، إنَّه متى اختلَّ إيجاد الضمانات الواقعية والإعدادات الشُّمولية ضدَّ ما يعكّر الصفوَّ في أجواء الحياة اليوميَّة للمجتمعات المسلمة، إنه متى اختلَّ ذلكم يوماً ما؛ فاحكموا على أمان النَّاس واستقرارهم بالغيبة والتَّيه المفرزين للممارسات اللامسؤولة والإخلال المرفوض بداهةً بكلِّ ما له مساس بالأمن، والذي يهدّد رسو سفينة المجتمع المسلم الماخرة، في حين أنَّه لا قبولَ له بأيِّ صفة كانت، مهما وُضعت له المبرِّرات والحيثيَّات التي يرفضها كلُّ ذي عقل حيٍّ وفؤاد ليس له هواء، وإن استعمل في نفاذ مثل تلكم الممارسات بعضُ بني أُمَّتنا ومِمَّن يتكلَّمون بلغتنا، ليجعلوا نتيجة الممارسات النشاز في المجتمع المسلم عرضةً لحتفهم قبل حتفِ مَنْ سواهم.

ومتى دبَّ في الأمة داءُ التسلُّل أو الافتيات الأمني من قبل بعض أفرادها فإنما هم بذلك يهيلون الترابَ على مفهوم الاستقرار، ويقطعون شرايينَ الحياة عن الأجيال الحاضرة والآمال المرتقبة.

هذا إن لم تكن تلك الممارسات تكأةً يتكئ عليها أعداء الإسلام من الكفرة الحاقدين، ومبرراً سائغاً لهم في تنفيذ ما من شأنه إيجاد المسوغات المشروعة - بمفهومهم - في الضغوط المتتالية على حياض المسلمين، فتأتيهم مثل هذه الإخلالات على طبقٍ من ذهب ليجتاحوا بلاد المسلمين بأدنى الحيل.

إنَّ الجوّ العامر بالثقة والأمان، والتّماهم البناء الخاضع لشرعة الله، لهو الجوّ الذي يستطيع أن يحيا فيه دين الله ويتعش؛ لتحلّ الأوليات والقضايا الواضحات محلّها الذي ينبغي أن يوجد مكانه لكافة أفراد المجتمع المسلم؛ ولذا فقد جاءت شريعة الإسلام بحسّم مادّة الأمن، وأنها غير قابلة للتردّد أو النزاع أو المساومة؛ فقد قال ﷺ: «إذا مرّ أحدكم في مسجدنا، أو في سوقنا، ومعه نبلٌ فليمسك على نصالها - أو قال: - فليقبض بكفه أن يصيبَ أحداً من المسلمين منها شيء» [رواه البخاري]، وفي «الصحيحين» أنّ النبيّ ﷺ قال: «من حمل علينا السلاح، فليس منا»، وفي «الصحيحين» أيضاً قوله ﷺ: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»، وفي الحديث الصحيح: «المسلم من سلّم المسلمون من لسانه ويده».

أيها المسلمون، بقي معنا هنا أن ندرك مفهوم الأمن بمعناه الشمولي والواقعي، وألا يكون محلاً لضيق العطن أو الفهم المقلوب لأبعاده وصوره أو لهما معاً، وذلكم من خلال قصر

مفهوم الأمن على نطاق ضيقٍ متمثلٍ في مجرد حماية المجتمع من السرقة أو النهب أو القتل وأمثال ذلك، كلا، فالأمن له مفهوم أعم من ذلكم وأجلّ، بل إنّ أوّل وأعظم مفهوم للأمن هو في أن ينطلق المجتمع المسلم على تقرير أنّ عقيدة المجتمع: ارتباطه الوثيق بربه، والبعد عن كلّ ما من شأنه أن يخدش تلكم العقيدة الغراء أو يثلمها أو ينقض بعض عراها، هذا هو أوّل الواجبات الأمنية التي بها يتحقّق الوازع الديني المانع من كلّ ممارسةٍ تخالف دين الله وشرعته، متمثلاً ذلكم الوازع في البعد عن الشرك بالله في ألوهيته وربوبيّته وأسمائه وصفاته، والبعد عن الشرك به في حكمه، أو الكفر بملة الإسلام والإلحاد فيها، أو تنحية شرعة الباري - جلّ شأنه - عن واقع الحياة، أو مزاحمة شرعةٍ غير شرعة الله مع شرعته، ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨]، ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣].

ألا إنّ الأمن بصورته المطلقة الواسعة لا يمكن أن يتحقّق بدون ذلكم، ولا أن يقرّر قرار المجتمعات المسلمة في الرضا عن النفس وعن الدين وعن الواقع والحال إلا من خلال ما ذكر الله بقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ

وَلْيَبَدِّلْهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ [النور: ٥٥].

كما أنَّ مفهوم الأمن - عباد الله - ينبغي ألا يُنحَى عن مراكز القوى في المجتمعات المسلمة، أو يدبَّ التجاهل فيه؛ لينسبنا أثر هذه المراكز الملموسة في أمن المجتمعات سلباً وإيجاباً. فهناك ما يسمَّى: مفهوم الأمن الغذائي، والأمن الصحي الوقائي، وهناك ما يتعلَّق بالضوابط الأمنية في مجال التكافل الاجتماعي، وتهيئة فرص العمل والإنتاج، والقضاء على البطالة، والعناية بالنشء في كل ما يفيد ولا يضرّ، وحسم مادّة البطالة الفكرية، والفراغ الرُّوحي أيّاً كان نوع ذلكم؛ لكونه مثمراً للخلل والفضى في الشُّبه والشّهوات، إضافةً إلى فهم النواحي الأمنية المنبثقة من دراسة الظواهر الأسرية، وما يعترّيه من ثقب واهتزاز في بنيتها التحتية، كما أنه يجب ألا نغفل عمّا يُعدُّ هاجساً أمنياً لكل مجتمع وصماماً للفتح أو الإغلاق لمادّة الإخلال بالأمن، ألا وهو الأمن الفكري الذي يحمي عقول المجتمعات ويحفظها من الوقوع في الشبهات بغفلة أو العبّ من الشهوات بنهم.

ومثل هذا النوع من الأمن لا يتسنى له التمام إلا من خلال مراعاة محورين أساسيين:

أولهما: محور الفكر التعليمي التربوي.

وثانيهما: محور الأمن الإعلامي الثقافي.

إذ يجب على الأمة ألا تقع في مزالق الانحدار والتغريب أو التبعية والإخلال عبر هذين المحورين، حيث إن الأمن على العقول لا يقل هاجساً عن أمن الأرواح والأموال، فقد نرى للعقول لصوصاً ومختلسين كما نرى للبيوت لصوصاً ومختلسين، فينبغي أن يُحمى التعليم بين المسلمين عن أن يتسلل لـوإذاً عن هويته، بل ويُحمى من خلال إيجاد الآلية الفعّالة التي توفر سُبُل العِلْم النافع الداعي إلى العمل الصالح، والبُعد عن التبعية المقيمة أو التقليل من شأن العلوم الدينية النافعة، أو استئغالها على النفوس، أو الاعتراف بها على الاستحياء والتخوُّف المفرزين الفتون الذي يتردّد بين الحدث والآخر عن مدى جدوى الأخذ بها والإبقاء لها على مضضٍ مُقلق.

وأما محور الفكر الإعلامي فهو مقبض رحي المجتمعات المعاصرة وأقنوم تأثيرها الأساس؛ إذ به يبصر الناس ويرشدون، وبه يخدع الناس ويغربون، به تُخدم قضايا المسلمين وتنصر، وبه تُطمس الحقائق وتهدر. بالفكر الإعلامي تُعرف المجتمعات الجادة من المجتمعات المستهترّة، فما يكون فيه من اعتدالٍ وكمال يكون كمالاً في بنية الأمن الإعلامي واعتدالاً؛ ولذا فإنه يجب على كلّ صاحب لسان فصيح مسموع، أو قلم سيّال مقروء أن يتحدّثوا عن شؤون المسلمين بكلّ مصداقية وواقعية وعدلٍ وإنصاف، وألا

تستهجنهم الحوادث وردود الأفعال ويستهوهم الشيطان، فينطلقون من خلال الحديث المشنَّج، والسَّبَاب المسترسل، والخصام الحاجب للقضية الأمّ الذي قد يفقأ العين ولا يقتل العدو، ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

إنَّ عزوَ الأمور إلى مسيبتها الحقيقية، ووضع النقاط على الحروف: ينبغي أن يكونَ هو أوَّلُ طرق معالجة المعضلات، والقضايا المزعجات، وإنَّ تجاهل الأسباب والبواعث، أو عزوها إلى غير مصادرها: لا يزيد الأمورَ إلا تعقيداً، والشُرورَ إلا اتساعاً، وإنَّ العقولَ السليمة لتستخفُّ بالطَّبيب يعزو سبب الطاعون إلى شرب الماء أو استنشاق الهواء؛ لأنَّ نتيجة التشخيص أيّا كانت فعاقبتها ستطالُ نفسي ونفسك أيها المسلم، أو ولدي وولدك وبنتي وبنتك وأسرتي وأسرتك؛ كما أنه ينبغي أن تكونَ هذه المعالجة من قِبَل ذوي الاختصاص من العلماء الأفاضل، والحكماء الموثوقين في دينهم وأمانتهم، دون تشويش أو تهويش، أو قيل وقال، وظنٍّ وخرص؛ فالله يقول: ﴿قِيلَ الْخَرَاصُونَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي عَمْرٍو سَاهُونَ﴾ [الذاريات: ١٠، ١١]، يقول قتادة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «الخرَّاصون هم أهل الغرّة والظنون».

إنَّ إطلاقَ اللسان، وسيلان الأقلام خائضَةً في المدلهمات، ولائَةً في النوازل دونَ زمام ولا خِطام: لمن شأنه أن يُحدث

البلبله، ويوغر الصدور، وأن يُخرج المجتمع المسلم من تشخيص
 النَّازلة الواقعة إلى التراشق والاختلاف، وتصفيه الحسابات الكامنة
 في النفوس، ولا تسألوا بعد ذلك عن محاولة الفك لرموز اللّمز
 والغمز، والهمز بنميم، من قِبَل مشكّكين في تدئين المجتمع
 المسلم، وسلامة المنهل الإسلامي العذب فيه من كلّ تهمة تصيبه
 أو تحلّ قريباً من داره، فيكثر اللّغَطُ ويقلّ استحضارُ العلم،
 فتضمحلّ العافية والسّلامة من الخطأ، فضلاً عن عدم القدرة في
 تقديم حلّ عاجلٍ سوى الخلط والجَهل والتضليل، ومن ثمّ تُزال
 المشكلة بأشكَل منها، وعلى سبيل المثال: لو سرّق إنسان في
 المسجد، لعلّت صيحاتُ بعض اللّهّازم أو المبغضين مناديةً بإغلاق
 المساجد أو هدمها قطعاً لدابر السرقة، ولو أنّ امرأةً محجّبةً غشّت
 وخدعت، لسُمع رجوعُ الصدى للمناداة بنزع الحجاب حسماً لمادّة
 الغشّ والخداع زعموا، فلا هم في الحقيقة قطعوا يد السّارق ولا
 عزّروا تلك التي غشّت وخدعت، وإنّما دعوا إلى هدم المسجد
 ونزع الحجاب، وهذا هو سرّ العجب، وهو ما يثير الدهشة وينشئ
 الغلوّ وردود الأفعال، فيتصارع الإفراط والتّقرّيط على حساب
 الاعتدال المنشود في المجتمعات المسلمة.

والإسلام - عباد الله - يكره الثرثرة الفارغة التي قد تخلو من
 ضرر ملحوظ في الباطن، فكيف بالضرر المتحقّق في الظاهر

والتناوش المفرق، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَلْتَجُوا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا بِالْبِرِّ وَالْقَوَىٰ وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المجادلة: ٩].

إنَّ الإسلامَ شديدَ الوضوحِ في تحديدِ موقفه من حرِيَّةِ النَّقدِ والحوارِ، فهو لا يرى أنَّ ذلكَ حقٌّ مباحٌ لكلِّ إنسانٍ، ولا أنه يكتبُ ويقولُ ما شاء بما شاء كيف شاء، غيرَ منضبطٍ بضوابطِ الشَّرْعِ وحدوده، وإنَّ من المؤسِّفِ أن يكونَ مفهومُ حرِيَّةِ التعبيرِ وحرِيَّةِ الحوارِ قد شاعَ مقلوباً في أذهانِ الأغرارِ من حَمَلَةِ الأقلامِ، وعليميِّ اللسانِ، فظنُّوه لا يعدو إرسالَ الكلامِ على عواهنه، وتسويدَ الصفحاتِ بضروبٍ من الهَرِّ يضرُّ ولا ينفعُ.

إنَّ الأمنَ الإعلامِيَّ في المجتمعاتِ لهو أحوجُّ ما يكونُ إلى دراساتٍ موسَّعةٍ تقتنصُ الهدفَ الواعي؛ من خلالِ دراسةِ أوساطِ المجتمعاتِ المسلمة، والرِّبْطِ بينها وبين الخلفِيَّاتِ الشرعيَّةِ والاجتماعيةِ للطبقةِ الممارسةِ لمثل هذه الأنشطةِ الإعلاميةِ الفعَّالةِ. كما ينبغي تحليلُ الأفعالِ وردودِ الأفعالِ بين معطياتِ المتطلَّباتِ الشرعيَّةِ والاجتماعيةِ، وبين متطلَّباتِ الرِّغباتِ الشخصيةِ المحفوفةِ بالشِّبهاتِ أو الشَّهواتِ، وأثر تلكِ المشاركاتِ في إذكاءِ الحِسِّ الأُمْنِيِّ الإعلامِيِّ، والكفايةِ الإنتاجيةِ لاستقرارِ المجتمعِ العائدِ للأسرِّ والأفرادِ بالتَّنفعِ العامِ والهدوءِ اللامحدودِ في الدَّارينِ.

فالواجب علينا جميعاً - أيها المسلمون - أن ننظرَ إلى

الحقيقة الأُمْنِيَّة من أوسع أبوابها وأقربِ الطُّرُقِ الموصلة إليها،
وأن ننزل الأمور منازلها في كلِّ المستجدَّات، وألا نقحم أنفسنا
في القضايا الكبار التي لا يصلح لها إلا الكبار، كلُّ بما أوكل الله
إليه من مصالح المسلمين ورعايتهم، وإقامة الحق والقسط فيمن
استرعاهم الله، فالله الله أن نزاحمَ بفضول الكلام والقييل والقال،
﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ
عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦].

بارك الله لي ولكم في القرآن العظيم، ونفعني وإياكم بما فيه
من الآيات والذكر الحكيم، قد قلت ما قلت، إن صواباً فمن الله،
وإن خطأً فمن نفسي والشيطان، وأستغفر الله؛ إنَّه كان غفَّاراً.

* * *

الخطبة الثانية

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.

وبعد:

فأتقوا الله أيها المسلمون، واعلموا أن ثمة مسلمات وثوابت، ينبغي أن تدرکہا المجتمعات المسلمة بعامة، نعني بذلك المجتمعات التي جعلت شرعة الله غايتها وبعيتها، وهذا التأكيد ينبغي أن يتكرّر كلما سنحت فرصة وادلهمت خطوب.

فمن تلك الثوابت - عباد الله - : أن عقيدة المسلمين أساسها التوحيد لله، والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك، وهيئات هيئات أن يفلح أي تجسيد عقدي سواه، ﴿حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

وثابت آخر: يؤكّد أن الشريعة الإسلامية شريعة ثابتة مستقرّة، تصلح لكلّ زمان ومكان، ويخضع لها كلّ شيء، ولا تخضع هي لكلّ شيء، منذ بعثة النبي ﷺ إلى يومنا هذا، وقد كان المسلمون عبر هذه القرون يعيشون بين انتصارات يتواضعون عندها، وبين هزائم وخسائر يسترجعون فيها ويحوقلون، وهم صابرون على ذلك

حتى يأتي الله بالفتح أو أمرٍ من عنده، وشريعَتُهُم باقية لا تتبدل ولا تتغير.

ومن الثوابِ أيضاً: أنَّ الأُمَّةَ الإسلاميَّةَ مهما بلغت من أوج التسلُّحِ العسكريِّ، والثورةِ الصناعيَّةِ، والعولمةِ الحضاريَّةِ، فإنَّها لا غنى لها عن العلماءِ الربانيين، والدعاةِ الصادقين، الذين تجتمع عليهم القلوبُ، وتتألف حولهم النفوسُ، ينطلقون من فهمٍ صحيح ثابتٍ لكتابِ الله وسُنَّةِ رسوله ﷺ، فهم النجوم الثواقبُ، والبدور المضيئة، ولولاهم بعد الله لمادت الأرض بأهلها، ولكن هُم فيها أوتادٌ ورواسي، فهُم عُدَّةُ الأُمَّةِ في مكافحة الفكر الإلحادي المنحرف، والدعوات المضلَّة المسعورة، وهم عُدَّتُها في كبح جماح الغلوِّ وتنشيط المفرطين، والعلماءُ والدعاةُ لن يتمكَّنوا من القيام بهذه المهمة في ظلِّ غياب الثقة أو الاعتزاز بهم وسط مجتمعاتهم.

ومن الثواب - عبادَ الله -: أنَّه لا يمكن إدراك أيِّ تلاحم وترابط أو تمازج مبذول في المصالح الشرعيَّة أو في درء المفسد الطارئة دون أن تكون الوسيلة أو الغاية المتفق عليها وفق الحقِّ والشرعية، وإنَّ أيَّ تصحيح مطروح، فإنَّه يُعدُّ وهماً مع هذا الخروج على المقرَّرات الإسلاميَّة، والثواب الشرعيَّة، بل إن مثل هذا الخروج يُعدُّ خيانة عظمى وجنوناً لا عقل معه، وإغماء لا إفاقة

فيه؛ إذ شرف المرء وشرف المجتمع إنما هو في الانتساب إلى الإسلام، لا في الصّد عنه، ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ قَلِيلًا أَيْبُكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

هذا وصلُّوا - رحمكم الله - على خير البرية، وأزكى البشرية، محمد بن عبد الله بن عبدالمطلب، صاحب الحوض والشفاعة، فقد أمركم الله بأمر بدأ فيه بنفسه، وثنى بملائكته المسبحة بقده، وأية بكم - أيها المسلمون - فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

اللهم، صلِّ على محمد وعلى آل محمد؛ كما صلَّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد...

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة
٥	١ - نداء الوحدة
١٧	٢ - قل هو من عند أنفسكم
٢٩	٣ - خُصَمَاءُ السُّنَّةِ
٤٣	٤ - العدل بين مفهوم الإسلام، ومفهوم أدعياء الحضارة المعاصرة .
٥٥	٥ - مشوِّشات العُطل
٦٧	٦ - بين عبودية البشر، وعبودية الكائنات
٨١	٧ - آفة العصر الحزن والاكتئاب
٩٣	٨ - «الرؤى» سلطان المنامات
١٠٧	٩ - بعد رمضان
١١٧	١٠ - خطبة عيد الأضحى
١٣٥	١١ - عسى الله أن يجعل في المحنة منحة
١٤٩	١٢ - الأمن بين الحقيقة والتلبس
١٦٣	١٣ - العقل بين مفهومين
١٧٥	١٤ - مفاهيم في رمضان
١٨٧	١٥ - إطلالة رمضان

- ١٦ - التفریط في الأعمال الصالحة ١٩٩
- ١٧ - التواضع إلى أين؟ ٢٠٩
- ١٨ - حيازة الدنيا بحذافيرها ٢٢١
- ١٩ - اللهو والترفيه في ميزان الشرع ٢٣٣
- ٢٠ - خطبة الوداع «دروس وعبر» ٢٤٥
- ٢١ - لماذا كسرت الأصنام؟ ٢٥٥
- ٢٢ - الأمة الإسلامية بين الواقع والمأمول ٢٦٩
- ٢٣ - الثبات في الفتن ٢٧٩
- ٢٤ - الغارة على المسلمين ٢٩١
- ٢٥ - تأملات في حجة النبي ﷺ ٣٠١
- ٢٦ - شهر التوبة ٣١١
- ٢٧ - تعليق حول أحداث التفجير ٣٢١
- الفهرس ٣٣٥